أدب

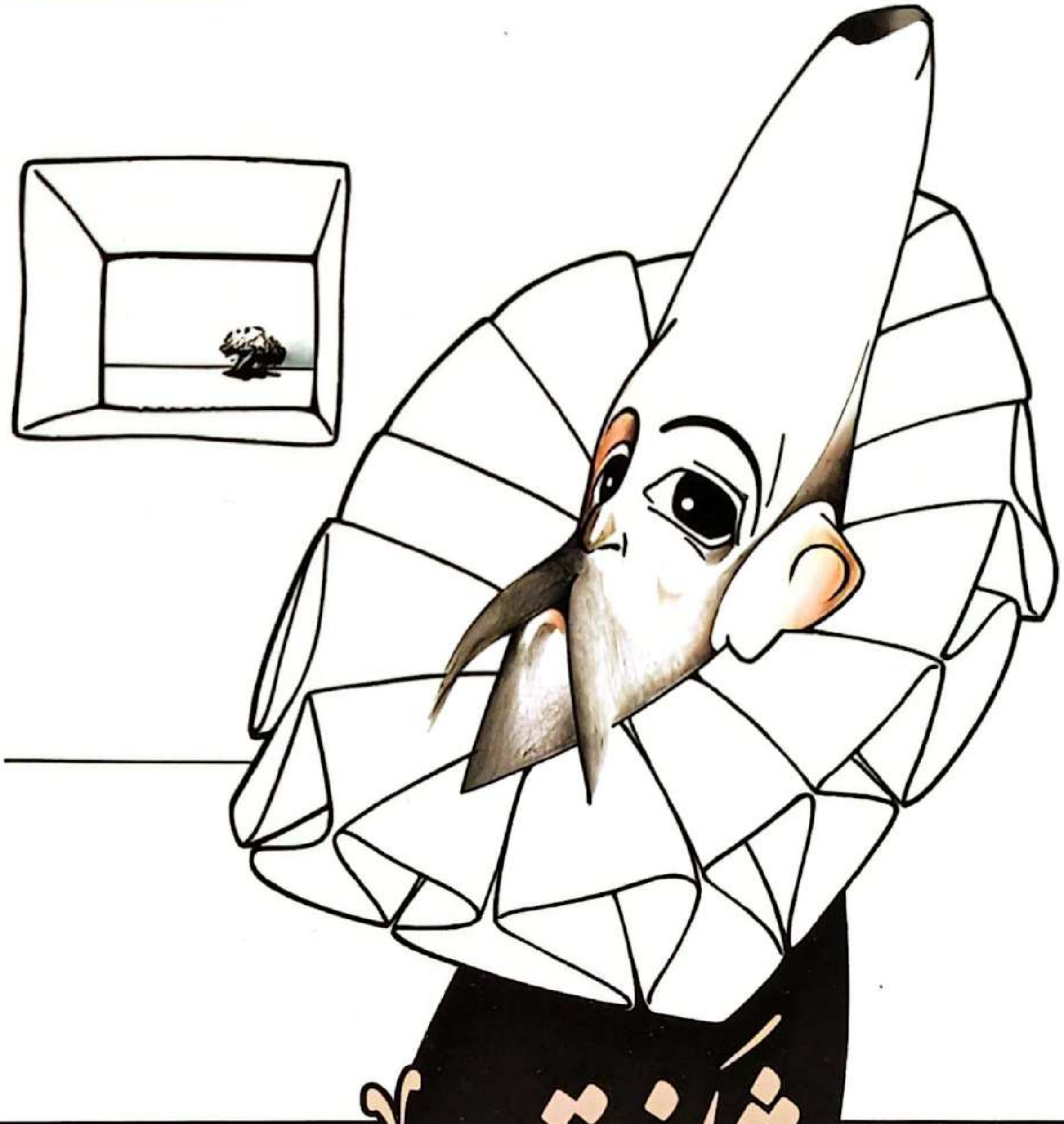

سرفانتس

أمير الأدب الإسباني

نجيب أبو ملهم و موسى عبود

تقديم
عبد الهادي سعدون

هذا كتاب مهم من جوانب عديدة، لعل الأهم فيه هو أنه أول دراسة عربية كاملة عن رائد الرواية العالمية المعاصرة ميغيل دي سرڤانتس وقد كتبه اثنان من رواد الدراسات الإسبانية البِكر في عالمنا العربي وهما الكاتبان والمترجمان د.نجيب أبو ملهم و د.موسى عبود. وهو أول كتاب نقدي يوضع عن سرڤانتس بلغتنا العربية، إذ لا وجود لأي جهد تعريفي أو نقدي سابق لهما إلا فيما تناثر هنا وهناك من تعريفات مبتسرة وتذكير في بعض الحوليات والمجلات والصحف مما لا تشكل أية أهمية في البحث والنقد. وهذا بحد ذاته (إضافة إلى حجم الدراسة المستفيضة المقدمة للقارئ العربي ومعلوماتها الوفيرة)، يعد سبقاً كبيراً وإشارة لهما للجهد المبذول فيه والطروحات المهمة والتعريفات المتقنة للغوص في عوالم كاتبنا العبقري ونتاجاته الأدبية الكثيرة وعلاقته بعوالمنا العربية مشرقها ومغربها. ولعل الهدف الأساسي منه كان تلك الإشارة الدالة على قرب عوالم سرڤانتس وحياته من فترة مهمة من فترات التواجد العربي في إسبانيا وانعكاساتها عليه شخصياً وعلى مجمل كتاباته الشعرية والمسرحية والروائية التي فتحت الدرب للآداب العالمية بالثراء والتنوع والتجديد.

إخراج وتصميم: MV Designing Your Future / Design Studio

ISBN 978-9-9226714-8-2

9 789922 671482

daralrafidain
dar.alrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

سرڤانتس

أمير الأدب الإسباني

سرفانتيس
أمير الأدب الإسباني

نجيب أبو ملهم

موسى عبود

تقديم: عبدالهادي سعدون

عنوان الكتاب باللغة الاسبانية:

Cervantes: Príncipe de la Letras Españolas

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية

Cervantes: Prince of Spanish Literature

By Najib Abo Malham and Moussa Abboud

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2023 (1000 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al _ Rafidain 2022

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 48 - 2

نجيب أبو ملهم موسى عبود

سرفانتس

أمير الأدب الإسباني

تقديم

عبدالهادي سعدون

www.daralrafidain.com

الفهرس

تقديم :أول كتاب عن ثربانتس بالعربية 9
مقدمة 17
توطئة 19

القسم الأول
حياته

الفصل الأول :أين ولد سرفانتيس 25
قلعة هناريس 27
عائلة سرفانتيس 29
في نابولي 45
قضى سرفانتيس ذلك الشتاء في نابولي مدينة أحلامه 45
الفصل الثاني :في الأسر 51
الفصل الثالث :سرفانتيس يطأ تراب الوطن 79
زواج سرفانتيس 87
سرفانتيس ينصرف إلى المسرح 89
سرفانتيس يعود إلى إشبيلية 91
سرفانتيس يعين مفوضًا لتموين الجيش 93
سرفانتيس يحلم بأميركا 97

عودته إلى مفوضية التموين 101
سرفانتيس في السجن 103
الفصل الرابع :سرفانتيس في بلد الوليد 113
سرفانتيس يستقرّ في مدريد 123
سرفانتيس يتشوق لزيارة نابولي 127
سرفانتيس يشترك بمباراة شعرية 131
صدمة جديدة إنهاء القسم الثاني من «ضون كيخوطي» 133
المرحلة الأخيرة مرضه ووفاته 135

القسم الثاني

الفصل الأوّل: ظهور سرفانتيس في «عكاظ» 141
الفصل الثاني :شاعرية سرفانتيس 147
الفصل الثالث :مسرحيات سرفانتيس 153
المسرحيات القصيرة 167
المؤلفات المنسوبة إلى سرفانتيس 169
الفصل الرابع :ضون كيخوطي 171
I ـ ظهور الكيخوطي وقت جنوح شمس رواية الفروسية إلى الغروب 175
II ـ نجاح كتاب سرفانتيس 189
III ـ أبرز شرّاحه ـ مترجموه 199
صوره الفنية 199
IV ـ موضوع الكيخوطي 219
V ـ أشخاصه 231

VI ـ روايتا الكيخوطي «الفضولي الممل» و«الأسير» 239
VII ـ تقليدات الكيخوطي 243
VIII ـ ضون كيخوطي في المسرح 249
IX ـ الصحافة وضون كيخوطي 253
X ـ الكيخوطي والنقد الوطني والأجنبي 255
القصص المثالية 267

تقديم

أول كتاب عن ثربانتس بالعربية

د.عبدالهادي سعدون

هذا كتاب مهم من جوانب عديدة، لعل الأهم فيه هو أنه اول دراسة عربية كاملة عن رائد الرواية العالمية المعاصرة ميغيل دي ثربانتس (سرفانتيس أو سرفانطيس كما يكتب في كتب أخرى تبعاً لتلفظ كل مترجم) وقد كتبه اثنان من رواد الدراسات الإسبانية البِكر في عالمنا العربي وهما المدرسان والكاتبان والمترجمان د.نجيب أبو ملهم و د.موسى عبود. ومن حقهما علينا أن نعيد طبع كتابهما هذا وننوه به ونهتم بإخراجه والتعليق عليه، بعد هذا الوقت الطويل من إصدارهما الذي يعود إلى عام 1947 في مدينة تطوان المغربية (عن مطبعة الخازن) ضمن المنطقة الشمالية في المغرب. والتي عدت لوقت غير قصير كمحمية إسبانية (المندوبية الإسبانية بالمغرب) وضمن أعمال هذه المحمية (نيابة الأمور الوطنية) عمل أبو ملهم وعبود كمترجمين رئيسيين في مدرسة اللغات ومكتب الترجمة الإسبانية العربية، وكذلك في أغلب أركان الدوائر الإسبانية آنذاك.

وقولنا إنه أول كتاب نقدي يوضع عن ثربانتس بلغتنا العربية ما هو إلا تأكيد مثبت، إذ لا وجود لأي جهد تعريفي أو نقدي سابق لهما إلا فيما تناثر

هنا وهناك من تعريفات مبتسرة وتذكير في بعض الحوليات والمجلات والصحف مما لا تشكل اية أهمية في البحث والنقد. وهذا بحد ذاته (إضافة إلى حجم الدراسة المستفيضة المقدمة للقارئ العربي ومعلوماتها الوفيرة)، يعد سبقاً كبيراً وإشارة لهما للجهد المبذول فيه والطروحات المهمة والتعريفات المتقنة للغوص في عوالم كاتبنا العبقري ونتاجاته الأدبية الكثيرة وعلاقته بعوالمنا العربية مشرقها ومغربها. ولعل الهدف الأساسي منه كان تلك الإشارة الدالة على قرب عوالم ثربانتس وحياته من فترة مهمة من فترات التواجد العربي في إسبانيا وانعكاساتها عليه شخصياً وعلى مجمل كتاباته الشعرية والمسرحية والروائية.

مما نعرفه أنهما قد عملا على كتابة هذا البحث والجهد النقدي الكبير في فترة متزامنة أو ليست ببعيدة عن زمن جهدهما الآخر الذي بدآه بترجمة عمله الأهم (الدون كيخوته)، وهو الجهد الذي أتما فيه ترجمة الجزء الأول من ملحمة الفارس النبيل دي لامانتشا، ولم يواصلا العمل على إكماله لأسباب لا نعرف عنها الكثير. ولكن ما نعرفه هو أن تكليفهما بترجمة (الدون كيخوته) إلى العربية تم ضمن مشروع ممول من اليونسكو وقد أتما جزأه الأول عام 1948، ولا نعلم الأسباب وراء عدم نشره من قبلهما أو من الجهة الممولة للترجمة والمشروع. ولا معرفة حقيقية حتى اليوم أين انتهت تلك الترجمة المهمة والتي تعد من أوائل الترجمات إلى العربية، وهي السابقة بكل تأكيد لترجمات الأهواني وبدوي والعطار وعطفة. البحث عن آثار لتلك الترجمة أعيتنا نحن المهتمين بتعقب تلك الترجمات، ولو ظهرت في يوم من الأيام لقامت بإضفاء ورقة مهمة في الجهد الترجمي العربي لهذه التحفة العالمية الفريدة.

والمؤلفان معروفان في تلك الفترة وما تلتها في الأوساط الأكاديمية الإسبانية والمغربية، إذ أن الدكتور نجيب أبو ملهم (ولد عام 1914 في قرية بمهرين ـ قضاء عالية ـ منطقة الشوف ـ لبنان). واصل تعليمه حتى حصل على الدكتوراه في الأدب والفلسفة من جامعة غرناطة بدرجة ممتاز. مارس التدريس في معهد الدراسة المغربية بتطوان، وعمل عضواً في مكتب الترجمة الإسبانية العربية كما عمل في الصحافة. وبعد أن ترك المغرب عمل بجامعة مدريد أستاذاً للغة العربية حيث داوم التدريس حتى أحيل إلى التقاعد. نشر بعض إنتاجه الشعري باللغة العربية في لبنان والمغرب، كما ترجم لإبنته الشاعرة الباحثة والمستعربة أيضاً مونسيرات أبو ملهم قصيدة مطولة نقلها من الإسبانية إلى العربية بعنوان: أناشيد البحر في منطق الإنسان، وترك لنا مؤلفات عن إيليا أبو ماضي (أطروحة دكتوراه) وكتاب ذكريات من لبنان باللغة الإسبانية (تطوان 1945) أو كتابه الشعري بالإسبانية آفاق أخرى (مدريد 1972). ولا بد ان القارئ سينتبه لقصيدة عمودية في مقدمة الكتاب، مدحاً بـ ثربانتس أمير الأدب، وهي لا بد من تأليف أبو ملهم نفسه لكونه شاعراً. أما الدكتور موسى عبود اللبناني الأصل أيضاً (وهو عديل لأبي ملهم) وقد مارس التدريس مع أبي ملهم في معهد الدراسة المغربية بتطوان، وعمل عضواً في مكتب الترجمة الإسبانية العربية. إضافة إلى كتابيه المهمين وهما تعليم اللغة العربية للإسبان (1955) وكتاب دروس في القانون الاجتماعي (1994)، فهو دكتور في الحقوق وعمل أستاذا في كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط. وقد شارك في أكثر من جهد تأليفي عن آداب إسبانيا ومؤلفيها رفقة (أبو ملهم) كما عليه كتابهما هنا عن ثربانتس وكتاب آخر عن الشاعر كيبيدو.

يشير المؤلفان أنهما اضطلعا للقيام بالعمل وذلك لشعورهما ومعرفتهما العميقة تعايشاً وتقارباً مع الثقافة العربية والإسبانية «بأنَّ الأدب الإسباني أقلّ الآداب الأوروبية انتشاراً في الأقطار العربية، وأنّ تاريخ الأدب الإسباني يكاد يكون مجهولًا كلّ الجهل حتى بين أعلى الطبقات العربية المثقفة» وهذا صحيح جداً، فيما لو عرفنا انه وحتى ذلك التاريخ لم تكن العلاقات الثقافية العربية الإسبانية في أفضل حالاتها والنزاعات أكثر من دروب التوافق والمعرفة. ويضيف المؤلفان أنهما بهذا الكتاب أنما يفتتحان به سلسلة من التعريف وترجمة أمهات المؤلفات الأدبية الإسبانية على مر العصور. وهو والحق يقال برعا به وقاما به بكل جهد وخبرة وحراك وإن كان جهدهما قد أعاقته مجموعة من المحاور البيروقراطية ربما أو عدم اكتراث الجهات المسؤولة من كل طرف، مما أوقفهما على جهد كتاب واحد أو كتابين غير، ومنها كتابهما عن ثربانتس.

لعل اختيارهما لثربانتس هو عين الصواب ولأسباب هما نفسيهما يشرحانه باختصار وبوعي تام في مقدمتهما البسيطة للكتاب، إذ يذكران بأنهما قد آثرا البدء بمشروع الكتابة عن ثربانتس أو سرفانتيس أو سرفانطيس كما يرد في مواضع أخرى من الكتاب هذا «وهو ترجمة ودرس مُسهب لمؤلفاته لسببين: أولًا لأنّه عَلَمٌ من أعلام الأدب العالمي، وأمير الأدباء الإسبان على الإطلاق فمن حقه أن يُقدَّم على الآخرين. وثانيًا لأنَّه يحتفل في هذه السنة بالذكرى المئوية الرابعة لمولده.». اليوم ونحن في الألفية الثالثة التي نحيا تكون قد مرت المئوية الخامسة لولادة ثربانتس، وما نزال ننتظر كتاباً وجهداً موازياً لكتابهما، ولا نكاد نرى في مكتبتنا العربية جهداً تعريفياً وبحثياً عربياً مهماً أو بأهمية ما دونه الباحثان.

اليوم في مقارنة بسيطة مع ما نشر عن حياة ثربانتس وما استجدت من معلومات عنه وعن ظروفه الشخصية والعائلية والثقافية من تاريخ نشرهما للكتاب عام 1948 وحتى اليوم، لو كان بأيدي المؤلفين ما يشجعهما على إضافة وتغيير وتحوير في الكثير من مواضع الكتاب التي اعتمدت على معلومات قديمة، ولكان بإمكانهما التوسع في مجالات أخرى وحذف أو تغيير كلي للعديد من الفقرات والمعلومات والمصادر التي أصبحت بحكم القديمة، وجاءت غيرها لتحل محلها ولتصحح الكثير من الغموض والالتباس في حياة مؤلفنا الإسباني. ولكن الزمن لا يعود بسهولة! مع ذلك وعلى الرغم من هذه الهنات البسيطة الواضحة لأي باحث معاصر أو لأي قارئ عربي اليوم، فالكتاب في غزارة معلوماته وطريقة كتابته والبحث فيه وفي أسراره ومعلوماته والاجتهاد في الكثير من نقاطه وآرائه، لهو جدير بالقراءة والمعاينة والبحث والتصور مقارنة أو محادثة او معارضة له.

هذا الجهد الخارق بتحليلاته وتصوه وزمن كتابته البعيد كما نضعه بين يدي القارئ بحلة ومراجعة جديدة، لم يكن له أن يظهر آنذاك لولا إصرارهما، يضاف له تواجدهما في العمل ضمن وحدة تعريفية بالترجمة والثقافة الإسبانية، وهو ما سهّل ومهد لهما وشجعهما القيام به. وهذا برأيي قمة المعرفة والتصور وأيضاً التبادل والتلاقح الثقافي عندما تتوفر الشروط المناسبة لأي شخص أو جهة في العمل المشترك والتبادل المعرفي ليكون العمل سليماً والختام مفيداً للطرفين.

هنا وبعد أكثر من 75 عاماً نعيد للقارئ العربي بطبعة جديدة ضمن مشروع (الأدب الإسباني الأمريكي لاتيني) واحداً من أهم الكتب

التي صدرت بالعربية عن أهم روائي عالمي وهو ثربانتس، رائد الرواية المعاصرة وأمير الأدب الإسباني كما يصفه المؤلفان. بدورنا لم نتصرف بشيء أو نضع أي هامش يخل بالنتاج الأصلي، غير توضيحاتنا في المقدمة حفاظاً عليه كما جاء في وقته وأمانة منا لجهدهما الكبير. وما نقوم به ليس سوى اعتزاز بهذا الجهد وللتركيز على حياة وجهد إثنين من رواد الترجمة والبحث والتدريس العربي في نطاق الثقافة الإسبانية وآدابها.

مدريد في تموز 2022

سرفانتيس

ملك اليراع بمنطق الإنسان شرف يكلّل مفرق الأوطان
قد غصت في لجج الحياة مشمراً ونشلت دراً حافلاً بمعاني
وجسست من هذي البرية منبضاً نبضاته غابت عن الأقران
يا ذا البصيرة والبلاغة والنهى هذا مقامك في بني الإنسان

مقدمة

لا نكتشف مجهولًا إذا قلنا إنَّ الشعب الإسباني كان في غابر الزمان أكثر الشعوب اتّصالًا بالعالم العربي. وإنّ إسبانيا العربية كانت الصلة الوحيدة بين الشرق والغرب. وغير خفي على أحدٍ أنَّ لغة العرب وأدبهم تَركا في اللغة والأدب الإسبانيين من الآثار ما لا يُشاهد في لغة وأدب أيَّة أمة أخرى. كما أنَّ الأدب العربي الأندلسي اقتبس من البيئة الإسبانية صبغة خاصة بحيث يستحيل أحيانًا فهمه على القارئ الشرقي الذي يجهل تلك البيئة بجغرافيتها وتاريخها. وبالرغم من هذا التماسك والتقارب بين اللغتين والأدبين يمكن الجزم بأنَّ الأدب الإسباني أقلّ الآداب الأوروبية انتشارًا في الأقطار العربية، وأنّ تاريخ الأدب الإسباني يكاد يكون مجهولًا كلّ الجهل حتى بين أعلى الطبقات العربية المثقفة.

فإلى تلافي هذه الوضعية نرمي بسلسلة المؤلفات والترجمات التي نؤمل نشرها لننقل إلى اللغة العربية أمهات المؤلفات الأدبية الإسبانية على مرّ العصور ولنترجم لمؤلفيها ونعرف بتطور الحركة الأدبية والفكرية في إسبانيا حتى يومنا هذا.

وهو لعمري مشروع خطير واسع الأرجاء وَعِر المسالك؛ لكننا أقدمنا عليه بجرأة متكلين على الله راجين منه العون والتوفيق.

وقد آثرنا أن نبدأ المشروع بهذا الكتاب الذي هو ترجمة لـ سرفانتيس

ودرس مُسهب لمؤلفاته لسببين: أولًا لأنّ سرفانتيس عَلمٌ من أعلام الأدب العالمي، وأمير الأدباء الإسبان على الإطلاق فمن حقه أن يُقدَّم على الآخرين. وثانيًا لأنَّه يحتفل في هذه السنة بالذكرى المئوية الرابعة لمولده. وقد نظمت الأمة الإسبانية وبلدان أميركا الجنوبية حفلات ومهرجانات فخمة بهذه المناسبة. فكان حقًا علينا أن نخرج هذا المؤلف ليكون بمثابة مساهمة عربية في تكريم أمير الأدباء.

تطوان المغرب أبريل - يوليو 1947

المؤلفان

توطئة

هيا بنا أيّها القارئ العزيز لنرجع القَهْقَرِىّ إلى سنة 1547 فنجد على عرش إسبانيا ذلك العاهل العظيم الذي يحمل فوق جبينه في آن واحد تاج إسبانيا وتاج الإمبراطورية الألمانية. ذلك الذي خلّد التاريخ ذكره تحت اسم كارلوس الخامس.

ها هو ذا الإمبراطور الكبير يتنقل في الربوع الألمانية لا يعرف الكلل إلى جسمه سبيلًا ولا اليأس إلى نفسه منفذًا. وها هي يده الحديدية لا تني عن ملاحقة المبتدعين الذين اتّخذوا لنفوسهم لقب المصلحين وعُرفوا فيما بعد باسم البروتستانت.

أجل! إنّ مؤسس البدعة لوتير كان قد انسحب من الميدان لكنه ترك وراءه بركانًا متفجرًا لم تخمد نيرانه وصدعًا في الدين لم يُسدّ، وبابًا للحرب لن يُغلقَ.

وها هو ذا الإمبراطور منذ أن تقلّد العرش وحسامه لم يزَر غمده، يحدوه إلى هذا الصراع الجبار أمل مكين في قطع دابر البدعة لتبقى إمبراطوريته الواسعة الأطراف متماسكة الأجزاء موحدة العقيدة.

وإلى جانب هذا الشغل الشاغل نشأ خطر آخر أقضّ على العاهل العظيم مضجعه، ألا وهو خطر الأتراك؛ فإنّ السلطان سليمان القانوني كان

قد وسَّع ممتلكاته الأوروبية واحتلَّ بلغراد وبلاد المجر وبالرغم عن امتناع فيينا عليه فقد أصبح سيفًا مسلطًا على الإمبراطورية الألمانية، لا يؤمن شره ولا يعرف من أين يسدد الطعنة. ولم يقف الخطر التركي على البرّ فإن الأساطيل العثمانية كانت تمخر عباب البحر المتوسط وتزداد يومًا بعد يوم عددًا وقوة وجرأة في مهاجمة الأساطيل والممتلكات الإسبانية. وبلغت بها الجرأة إلى مهاجمة الشواطئ الأوروبية نفسها من حيث كان يحمل القرصان غنائم واسعة وأسارى عديدين يبيعونهم فيما بعد في أسواق الرقيق في الجزائر والقسطنطينية. فالخطر التركي كان إذًا على كارلوس الخامس مزدوجًا: في البر على ممتلكاته كإمبراطور ألمانيا وفي البحر على أساطيله وممتلكاته كملك إسبانيا.

وبالرغم من انتصار كارلوس الخامس على المبتدعين في معركة «مولهبرغ» وعن اتّساع الممتلكات الإسبانية التي كانت تشمل في الشمال بلاد فلانديس ويقوم مقامها اليوم البلجيك وهولندا وفي الجنوب مملكة نابولي وصقلية في إيطاليا ومعظم جزر البحر المتوسط. وفي أميركا والشرق الأقصى تمتد حتى اليابان بحيث أمكن ابنه فيليب الثاني أن يقول بحق أن الشمس لا تغيب عن ممتلكاته، بالرغم عن هذا كله؛ كانت دلائل السقم قد أخذت تبدو في أفق إسبانيا وشرع العدو يضرب حولها حصارًا لن تلبث أن ترى نفسها فيه أسيرة: فمعركة مولهبرغ من جهة لم تسفر عن النتائج التي كانت تُرجى منها في بادئ الأمر في استئصال شأفة البدعة وإذا بهذه ترفع رأسها بعد الهزيمة بعزم أمضى وهمة أشد. ومن جهة أخرى عاد الخطر التركي إلى الميدان وقد استفحل شره وجاوزت كل حدّ جرأته فأصبحت تقتحم مراكبه السواحل وتدخل قرصانه خليج قادس ومرفأ إشبيلية فتأسر

المراكب الإسبانية وتذهب بها غنيمة باردة. وفي الشمال بدأت بوادر الفتنة في فلاندس ومن ورائها بريطانيا العظمى والمبتدعون في ألمانيا. أضف إلى هذا كله سياسة هنري الثاني ملك فرنسا الذي كان يعمل في الخفاء مع أعداء كارلوس الخامس وفي الأخير يجب ألّا ننسى خطرًا آخرَ بدأ نجمه يتألق في سماء الشمال، نعني به إنكلترا التي كان سلطانها على نمو مطرد ولن تلبث أن تصبح الخطر الأكبر على السلطان الإسباني.

فهذه الأخطار كلها تصدت لـ كارلوس الخامس. وإن يكن قابلها بعزمه الثابت وتغلّب عليها كلها فإن نفسه كانت إلى الراحة قد أخذت تميل وقلبه إلى الهدوء يسكن ولم تكن إسبانيا إلى الراحة والهدوء بأقلّ ميلًا من عاهلها العظيم. لأن الجهاد المتواصل سنة تلو سنة في ألمانيا وفلانديس. في إيطاليا وجزر البحر المتوسط في الجزائر وتونس ووهران في أميركا والشرق الأقصى وقد استنفد قوى الأمة وعصرها عصرًا. فأصبحت ترنو بطرف الاشتياق إلى السلم والهدوء مكتفية من الماضي المجيد بذكراه الخالدة فتحييها في قصصها وأناشيدها. وما ذلك الاستقبال الفخم الذي أحاطت به مقدم إيزابل دي فالوا بعد ذلك بسنوات حين تزوجت بالملك فيليب الثاني إلا دلالة قاطعة على اشتياق الأمة إلى الهدوء والسلم لما يفرضه ذلك الزواج من وئام بين الأمتين وذلك ما حملهم على منح الأميرة الفرنسية لقب إيزابيل حاملة السلم.

ومجمل القول أنَّ النصف الثاني من القرن السادس عشر هو فترة الانتقال في تاريخ إسبانيا، فترة تُطوى فيها صفحة العهد المجيد ويبدأ في نهايتها عهد الانحطاط، فترة ككل فترات الانتقال من مجد إلى هوان يكثر فيها المنافقون ويقل ذوو النفوس الرفيعة والهمم الشمّاء، فترة تتغلب فيها

السعايات والأهواء الخاصة على مصالح الدولة ومنافع الأمة وتختنق في جوها الفاسد، تلك القلوب الكبيرة التي تعد على الأصابع، هذه القلوب التي قبض الله لها أن تساير الماضي المجيد في عظمته وتترفع عن الحاضر الذليل في سفالته فتحيا بين بيئتها كأنها عمها غريبة وفي مجتمعها وكأنها منه بعيدة، لا تلين قناتها لعمى ممزوج بنفاق، ولا لعلو تسنده خيانة.

ومن هذه القلوب الكبيرة التي عاشت في ذلك النصف الثاني من القرن السادس عشر أمير أدباء الإسبان وأحد نوابغ الإنسانية جمعاء ميغيل سرفانتيس سافيدرا.

القسم الأول

حياته

الفصل الأول

أين ولد سرفانتيس

مسألتان حام حولهما الخلاف بين المؤرخين: أين ولد سرفانتيس ومتى ولد. وقد أكثر البحاثون في الكلام حول هاتين القضيتين وأشبعوهما درسًا وأسفرت أبحاثهم عن رأي يكاد يكون مؤكدًا في كليهما.

أمَّا البلدة التي أبصر النور فيها كاتبنا؛ فهي حسب هذا الرأي مدينة قلعة هناريس وقد نازعتها هذا الحق سبع بلدات أخرى لكلّ على دعواها حجج وهي: إسكيفيا بدعوى أن سرفانتيس نفسه وصف هذه البلدة بأنها شهيرة. وإشبيلية وقد حمل لواء دعواها الأديب الشهير نقولا أنطونيو وحجته أن اسمي سرفانتيس وسافيدرا هما اسما عائلات إشبيلية. وأنَّ كاتبنا أبصر في صباه الروائي والممثل لوبي دي رويدا، يمثّل مسرحياته في إشبيلية، لكن هذه الحجة الواهنة تنهار أمام الأدلة القاطعة التي قدّمها المؤرخون الحداث على أنّ لوبي دي رويدا إنّما كان يتنقل في مدن قشتالة حين كان سرفانتيس لم يزل في عهد الصبا.

ونازعتها بلدة لوسينا ولا سند لها على دعواها سوى أسطورة تناقلها أهلها خلفًا عن سلف لا يؤديها برهان ولا تدعمها بينة.

وزعم آخرون أن مسقط رأس سرفانتيس مدينة مدريد، ولا دليل يؤيد

هذه الدعوى سوى رأي لوبي دي فيغا وغيره من معاصري كاتبنا وتسمية سرفانتيس إيّاها بوطنه في مؤلفه الشعري رحلة البارناس. وقد فات أصحاب هذا الرأي أنَّ الكاتب إنّما ضمّن هذه الكلمة في مؤلفه المذكور معنى مجازيًا كما أوضح ذلك في غير ما مقطع من المؤلف نفسه.

وهنالك من يزعم أنّه ولد في بلدة كونسويغرا ومن يدّعي أنّه أبصر النور في مدينة طليطلة. لكن كلا الرأيين ضعيف، وواهٍ لا يستند على حجج ثابتة.

وكان فريق آخر يزعم أنّه وُلد في بلدة الكاسار دي سان خوان وله على دعوة حجة قوية. لكنّه ظهر في الربع الأخير من القرن الماضي ضعف هذه الحجة وفسادها.

وهكذا انتهى الخلاف بين البلدات السبع بانهيار دعواها كلها. وقد أصبح الآن كما قدمنا من الصحيح الثابت الذي لا يقبل النزاع ولا الجدل أن كاتبنا ولد في مدينة قلعة هناريس.

قلعة هناريس

تقع هذه المدينة على ضفة نهر هناريس على ثلاثة وثلاثين كيلومترًا من مدريد. وقد لعبت في تاريخ إسبانيا الثقافي دورًا خطيرًا بفضل جامعتها الشهيرة التي أسسها الكردينال سيسنيروس سنة 1498 وفتحت أبوابها لقبول الطلاب سنة 1508. وكانت خلال القرن السادس عشر إلى جانب جامعة سلمنكة ـ أو طلمنكة كما يسميها العرب ـ من أهم الجامعات الأوروبية. وقد ظلت مركزًا ثقافيًا ذات قيمة حتى سنة 1936 إذ نقلت إلى مدريد.

ففي هذه البلدة الصغيرة بمساحتها وعدد سكانها العظيم بمركزها وأثرها في يوم من سنة سبع وأربعين وخمسمائة وألف لم يعرف بالضبط وإنّما يرجح أنه التاسع والعشرون من شهر سبتمبر أيلول ولد ميغيل دي سرفانتيس سافيدرا. وفي التاسع من شهر أكتوبر تشرين الأول عُمِّد في كنيسة القديسة مريم الكبرى. كما يُستفاد من سجل العمادات الذي لم يزل محفوظًا في تلك الكنيسة وبواسطته أمكن الجزم بأنّ سرفانتيس ولد في مدينة القلعة.

أمّا الذي حمل المؤرخون على تعيين التاسع والعشرين من سبتمبر تاريخًا لولادته فهي العادة التي ألفها الإسبان بتسمية المولود باسم القديس الذي خُصص له في التقويم يوم ولادته. فتسمية كاتبنا باسم ميغيل إنما تعود إذًا لولادته يوم عيد القديس ميغيل أو ميخائيل وبه يحتفل في 29 من الشهر المذكور.

عائلة سرفانتيس

كان والد سرفانتيس واسمه ضون رودريغو طبيبًا يتعاطى مهنته في مدينة القلعة. وفي سنة 1540 تزوج من ضونيا ليونور كورتيناس ورُزق منها سبعة أولاد نخص بالذكر منهم فضلًا عن ميغيل أخاه رودريغو المولود سنة 1550 وأخته أندريا ولويزا المولودتين الأولى سنة 1544 والثانية سنة 1546.

ولم يكن ضون رودريغو موفَّقًا في مهنته. فكانت عائلته تعيش في حالة إلى الفقر أقرب منها إلى اليسر. وفي هذا الجو العائلي المُغطى بغيوم الفقر وسُحب الحاجة؛ قضى ميغيل سني فتوَّته حتى قارب الخامسة عشر من عمره. وفي هذه السنوات تردد على مدارس القلعة وحصل فيها على العلوم الابتدائية وشيئًا من الأدب واللغة اللاتينية والعلوم التي كانت تُدرَّس في ذلك العهد.

وكان من المتفوقين في الدراسة ويُشار إليه بتوقد الذهن وقوة الإدراك ودقة الملاحظة والرغبة الشديدة في الاطّلاع على أبواب المعرفة، قوي الميل إلى الشعر والمسرح، كما عبر عن ذلك مرارًا فيما بعد في غير واحد من مؤلفاته.

في إشبيلية

في أحد أيام الربيع من سنة 1563 إذا بالفتى ميغيل دي سرفانتيس يصل إلى مدينة إشبيلية بصحبة أبيه وأخوته. فإنّ ضيق العيش وعُسر ذات اليد في القلعة دفع ضون رودريغو إلى هذا الانتقال عسى أن يجد في عاصمة الجنوب بابًا للرزق أكثر اتّساعًا ومجالًا للعمل أجدى وأنفع.

فقد كانت إشبيلية في ذلك العهد مدينة باهرة نامية، والسفن بين أمريكا ـ الحديثة الاكتشاف ـ والأندلس لا تبرح تمخر عباب البحر المحيط جيئة وذهابًا ومرساها في الغالب إشبيلية. وهذا الاتصال فتح ميدان السعة وأغدق على المدينة سوابغ النعمة فنمت التجارة وازدادت الثروة وأزهرت الآداب والفنون بحيث كانت تُعتبر بحق من أهم العواصم الإسبانية إن لم نقل أهمها على الإطلاق.

فلا عجب أن يفد إليها ضون رودريغو دي سرفانتيس وفي نفسه أمل بأن تبتسم له فيها الثروة فتزدهر حاله مسايرة للبيئة الجديدة.

وبالرغم عن أن حالة ضون رودريغو المالية لم تتحسن فإنَّه لم يحجم عن إرسال ابنه ميغيل إلى خير مدارس إشبيلية. وكان الآباء اليسوعيون قد فتحوا سنة 1554 مدرسة يتلقى العلوم فيها أبناء الأشراف والأعيان. ففيها تلقى كاتبنا بعض الدروس العليا. وقد أثّر في نفسه تأثيرًا عميقًا ما كان هؤلاء الأساتذة يمتازون به من عناية وإخلاص وتضحية في التدريس. فذكرهم في كتابه محاورة الكلاب بالثناء والمدح إذ قال: ومما يلفت النظر ما كان يغدقه هؤلاء الأساتذة والآباء المباركون من محبة وعطف ورعاية وعناية في تعليمهم أولئك الصبيان فيقومون غصون شبابهم لئلا

تعوج أو تضل عن طريق الفضيلة التي كانوا يدلونهم عليها إلى جانب طريق المعرفة.

وفي هذه المدرسة تعرف ميغيل إلى بعض الفتيان من نخبة المجتمع الإشبيلي. ومن الراجح أيضا أنه تعرف هنالك بماثيو فاسكيس الذي أصبح فيما بعد كاتم أسرار الملك فيليب الثاني.

وفي إشبيلية شاهد تمثيل روايات المؤلف الشهير «لوبي دي رويدا» مؤسس المسرح الإسباني. فنبهت في نفسه حسبما يُقال ميلًا إلى الفن المسرحي.

وفي إشبيلية أبصر الحياة على حقيقتها واختلاف ألوانها ومظاهرها. وفيها أغرم بالبحر وعظمته ومغامراته وأحسَّ برغبة ملحّة في أن يلمس بيده هذه الحياة التي طالما سمع البحارة يتحدثون عنها في تنزهاته العديدة على ضفاف الوادي الكبير.

مدريد

لم تبتسم لضون رودريغو آلهة الثروة في إشبيلية كما كان يؤمل يوم أمها متفائلًا. وها هو بعد أربع سنوات يجر عثار الخيبة والفشل فيلم آماله المبعثرة ويحول وجهه شطر مدريد سعيًا وراء حظ أكثر افترار ثغر.

وكانت مدريد قد أصبحت منذ مدة قريبة قاعدة المملكة فقطعت في طريق العمران شوطًا بعيدًا وأخذت تمتد وتتسع فوق الهضاب التي تناسب بينها مياه نهر «مانسناريس» فناهيك عن شوارع جديدة تفتح مستقيمة وسيعة في كلّ جهة وشوارع قديمة تمدد وخنادق تطمر وغابات كثيفة تقوم مقام أشجارها الباسقة أديار وقصور.

وفوق هذه المدينة الحديثة تغلي مراجل الحياة المتّقدة فمن حفلات تقام ومجالس أدب تُعقد ونوادٍ تُنشأ ومسارح تُفتح. فالحياة الأدبية تدفقت من كلّ فجٍ وصوبٍ على العاصمة. وأصبحت تُشدّ إليها الرحال من سائر المقاطعات حتى كبرت بسرعة غير مألوفة.

فإلى هذه المدينة الناشئة وصل كاتبنا وهو في العشرين من عمره بصحبة أبيه وأخوته. وفيها سمع دروس الأستاذ «فرنسيسكو دل بايو» في النحو. ولكن هذا لم يلبث أن مات فحلّ محل الأستاذ «خوان لوبيث دي أويوس» واتّصل به سرفانتيس اتصالًا وثيقًا. وقرأ عليه وكان من المبرزين وكان «لوبيث دي أويوس» يسميه «بالتلميذ العزيز الحبيب».

لكن ثقافة سرفانتيس كانت ناقصة لو قيست بثقافة الطبقة المفكرة من رجال عصره ولذلك النقص سببان: حياته المتنقلة وعدم استقراره الداخلي الذي لم يكن ليتيح له أن يتقيّد ببرنامج دراسة لا توافق مزاجه النفسي. ولا يُستفاد من هذا أنه كان كسولًا! لا! فقد قال عن نفسه: إنّه كان يقرأ حتى الأوراق الممزقة التي يعثر عليها. لكنّه كان يقرأ ما تجده فيه نفسه لذة. وبنوع خاص كان يقرأ في كتاب الحياة الذي أصبح مفتوحًا أمام ناظريه فإنّي ألقاهما إن على الناس وإن على الطبيعة التي تحيط به تلقى درسًا جديدًا في الحياة.

وفي مدريد اتّصل سرفانتيس بطائفة من الشعراء الشباب الذين كانت العاصمة تعج بهم آنذاك وسيصبحون فيما بعد نجومًا تتألق في سماء الأدب والشعر. فأمّ نواديهم وحلقاتهم واستمع إلى منظوماتهم وشاطرهم لذة السمر وحلاوة الحديث.

الانتصار الأول

في أواخر سنة 1568 قطفت يد المنون زهرة حياة الملكة إيزابيل دي فالوا ولما تتجاوز اثنين وعشرين ربيعًا. فجاءت وفاتها طعنة نجلاء في صدر الملك فيليب الثاني الذي كان يكن لها أسمى وأنبل عواطف الحب وقد برهن عن ذلك بأوضح بينة إبان مرضها فكان لا يفارق سريرها ويعتني بها بنفسه ويقدم لها الأدوية بيده فتركت بموتها في نفسه فراغًا لن يسد وحزنًا لن يمحى. وعاد العبوس يخيّم على البلاط الملكي وأطلت من جديد سحب الكآبة والقلق بعد أن غاب ذلك النجم البسام الذي حيته الأمة الإسبانية جمعاء لثمان سنوات خلت باسم «أميرة السلم»، وانهار أمل الأمة في استمرار الطمأنينة في علاقات الدولة الخارجية.

وبهذه المناسبة كلف الكردينال ضون دييغو دي اسبينوثا وهو إذ ذاك رئيس المجلس الملكي والأستاذ لوبيث دي أويوس أستاذ سرفانتيس أن يكتب «سيرة مرض ووفاة مولاتنا ضونيا إيزابيل دي فالوا ملكة إسبانيا مع المراثي التي قيلت فيها». وقد أدرج الأستاذ في هذه المجموعة مرثية قيّد تحتها أنها من نظم «تلميذه الحبيب» وهو اللقب الذي كان يشير به إلى سرفانتيس.

ولاقت منظومة كاتبنا نجاحًا كبيرًا. فقابله رفقاؤه بالتهنئة والإكرام وأستاذه بالثناء والتكبير. ومما هو أعظم وأخطر أن هذه المناسبة فتحت أمامه بابًا للمغامرة في طريق المستقبل المجهول.

إيطاليا

كان سرفانتيس يقطف باكورة الانتصار في ميدان الأدب حين قدم مدريد الإيطالي «خوليو إكوافيفا أرغوان» نجل الدوكي دي إتري الذي

أصبح فيما بعد كردينالًا. وقد جاء مبعوثًا من جانب البابا بمهمة رسمية لدى الملك فيليب الثاني.

وكان خوليو إكوافيفا ينتمي إلى إحدى العائلات الشهيرة في إيطاليا وينحدر من سلالة هؤلاء الذين كانوا فيما مضى نبراسًا يضيء في إيطاليا إبان النهضة وقد أخذ نورهم ينكمش في هذا العهد. لكنه كان من طبقة هؤلاء الأمراء الذين ينعمون بأن يحاطوا بالأدباء والشعراء والفنانين فيغدقون عليهم حمايتهم ونعمهم. فقبل أن يغادر مدريد أحب أن يستفسر عن أحوال أدبائها وشعرائها الشباب ويستصحب بعضهم إلى بلاطه. فلا غرو إذًا أن يقع اختياره على سرفانتيس الذي كان حينئذ في أوج الانتصار على أثر مرثيته. ولعلّ الكردينال ضون دييغو إسبينوثا نفسه هو الذي عرف خوليو إكوافيفا به.

وقبل أن تنتهي سنة 1568 كان سرفانتيس يغادر التراب الإسباني وفي القلب حسرة على ما يخلفه ولهفة على ما سيلقاه ألم على ما يودعه واشتياق إلى ما سيقتبله.

أجل! ودع سرفانتيس إسبانيا وقد رآها ضيقة أمام طموحه الواسع وصغيرة أمام آماله العظام وسار وفي النفس أمان كبار يود أن تتحقق في عالم الغربة الفسيح الأرجاء فيعود إلى وطنه مظفرًا مكللًا بأكاليل الغار والعظمة. غادر سرفانتيس إسبانيا كما غادر ذات يوم بطله دون كيخوطي - على حد قول أحد مؤرخيه - قريته ساعيًا وراء عظمة خفية ومستقبل مجهول لاقى فيه بدلًا من العز والعظمة أنواعًا من الضيم وأصنافًا من الآلام. وفي هذه الرحلة زار مدينة بلنسية وطركونة وبرشلونة وجنوب فرنسا. ثم عبر جبال الألب وبلغ مدينة ميلان أولًا وبعدها روما.

وها هو ذا كاتبنا في بلاط الأمير حيث كان يؤمل أن يرى العظمة منه على قاب قوسين. لكن تلك العظمة لم تكن سوى حلم من الأحلام احتل في ذهن سرفانتيس مقام الحقيقة. وسرعان ما تبدد هذا الحلم أمام يقظة الوصول فإن الأمير أكوافيفا بعد أن حل في قصره وانصرف إلى أعماله لم يعد يُعره كبير اهتمام وبقي سرفانتيس واحدًا من جملة ذلك العدد الوافر من الفتيان أبناء العائلات النبيلة الذين يعجُّ بهم بلاط الأمير وكلهم يتسابقون إلى خدمته وتنفيذ أوامره ولم يكن كاتبنا بأعجلهم إلى ذلك، فلا غرو أن يسري إلى نفسه شيء من الخيبة ويستحوذ الأسى على قلبه وينهار ذلك البنيان الرفيع الذي أقامه من أمان مذهبة وأحلام مرصعة، لكن نفسه لم تكن لترضخ إلى هذا الخمول ولا لتسكن إلى هذا النسيان، فما كاد ينهار صرح آمالها حتى شرعت بإقامة صرح جديد لم يتبين لها مدى ارتفاعه لكن أساسه في أعماقها قائم وعلى نبضات قلبه مستند.

ذلك الأساس هو الجيش...

سرفانتيس جندي في جيش إيطاليا

وَدَّع سرفانتيس قصر الأمير لينخرط في الجيش لعلّه يجد في المغامرات الحربية ما يبرد غليل نفسه المتعطّشة إلى الحركة والمجد، فانخرط كجندي في الجيش الإسباني المرابط في إيطاليا تحت أوامر القائد ميغيل دي مونكادا في سنة 1569 نفسها وبرفقة هذا الجيش تجوّل في كل أنحاء إيطاليا فشاهد روما والبندقية وجنوة وفلورنسا وميلان ونابولي، وقد تركت هذه المشاهد في نفسه أثرًا عميقًا: فرؤية الكنوز الفنية التي ملأت المدن الإيطالية، والاطّلاع على أمهات المؤلفات من الأدب الكلاسيكي وأدب

النهضة، وجمال الطبيعة في هذه البقعة التي تُعتبر من أجمل وأخصب التراب الأوروبي كلّ هذا زاد حسّه إرهافًا وتفكيره نضوجًا، وإن عبقريته الفطرية وذكاءه المتقد وحافظته الغريبة وذوقه الأدبي الرفيع تحالفت كلها في هذا الطور من حياته فرسمت له تصميم خير مؤلفاته العاطفية.

أمّا المدينة التي سلبت لبّه وسحرت فؤاده ـ ولعلّه بسبب امرأة أحبّها فيها أكثر منه بسبب جمالها الطبيعي ـ فهي مدينة نابولي التي حفظ لها في قلبه حتى الوفاة خير الذكريات.

وفي الخامس عشر من شهر سبتمبر أيلول سنة 1571 كان سرفانتيس يركب البحر على متن إحدى سفن ذلك الأسطول الضخم الذي أقلع من مرسى مسينا تحت قيادة الأمير ضون خوان دي أوستريا ليصطدم بالأسطول التركي في معركة ليبانطو.

الخطر التركي ـ ليبانطو

إنَّ القرن السادس عشر شهد بلوغ السلطان التركي أوج العظمة والمجد، ففي أواسط ذلك القرن كانت تركيا من أعظم الممالك ولعلها كانت وإسبانيا تحتلان أوسع إمبراطوريتين عرفهما ذلك العهد، وكانت حدود الإمبراطورية التركية في أوروبا تمتد من تخوم روسيا ـ التي كانت تحتل منها جزءًا غير يسير ـ حتى فيينا نفسها، وفي الشرق كانت تبلغ حدود الهند ومن جهة أخرى كانت تسيطر على جميع البلدان الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الشرقية حتى حدود المغرب الأقصى. وقد تحول إذ ذاك قطرا الجزائر وتونس إلى قواعد للقرصنة تخرج منها المراكب التركية فتغير على المراكب والشواطئ الأوروبية ثم تعود بالغنائم وبالأسارى فيباعون

في أسواق الرقيق ولا ينجو منهم إلا من أمكن أهله افتداءه بأموال تبلغ أحيانًا قدرًا هائلًا. وقد تأسست في البلدان المسيحية رهبنات مهمتها افتداء الأسرى لما بلغ هذا الأمر من خطورة. وقد كان استفحال شأن القرصنة باعثًا على نمو الأسطول التركي حتى أصبح قوة تخشى أوروبا بأسها بقدر ما كانت تخشى بأس جيش تركيا البري، وكان أمير البحر «العلج علي» هو القلب النابض واليد المحركة لهذا الأسطول، وفي عهده كانت المراكب العثمانية تمخر عباب البحر المتوسط بجرأة تزرع الرعب في قلوب سكان الشواطئ الأوربية كلها وكفى دليلًا على منعة هذا الأسطول أنَّ أساطيل إسبانيا والبندقية وروما وفلورنسا متحدة لم تفقه في موقعة ليبانطو بعدد مراكبها وأن المعركة ظلت متوازية خلال ساعات طوال.

لكنه لم يكن إذ ذاك ما يدل على اقتراب العاصفة؛ لأنَّ السلطان سليم الثاني كان قد عقد مع جمهورية البندقية معاهدة تجارية جرت المعاملات في ظلّها بأمان لا يشوبه قلق غير أنَّ السلطان وقد رأى تلك الجمهورية في حالة ضعف كبير أحبَّ أن يسترجع جزيرة قبرص واثقًا من أنّ أسطوله الضخم كفيل بأن يضمن له استرجاعها، فوجه رسولًا إلى حكومتها يعرض عليها مطلبه فساء البندقيين ذلك الطلب وأوشكت العامة في احتدامهم أن يقضوا على الرسول الذي اضطر أن يفرّ سرًا، وبحجة إساءة البندقيين معاملة رسوله أمر السلطان أسطوله أن يزحف على قبرص، فطلبت البندقية النجدة من الأمراء المسيحيين فلبى النداء البابا وملك إسبانيا فيليب الثاني وشرع البابا بتأسيس رابطة أوروبية لدرء الخطر التركي لكنه لم ينضم إليها زيادة عن روما وإسبانيا إلا فلورنسا.

واجتمع ممثلو تلك البلدان، لكنهم لم يتّفقوا على القيادة، وبينما كانوا

يقضون الأسابيع والأشهر في المناقشة والمنافسة كان الأتراك يطأون شواطئ قبرص ثمّ يضربون حصارًا شديدًا حول مدينة نيغوسيا، وما عتمت أن بلغت الأنباء باحتلالهم تلك المدينة مع ما رافق دخولهم إياها من فظائع وأهوال، فكانت هذه الأنباء حافزًا لتوحيد الكلمة. وفي 20 مايو أيار من سنة 1571 وقَّع البابا بيوس الخامس وملك إسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة وأسندت القيادة إلى ضون خوان دي أوستريا شقيق الملك فيليب الثاني الذي كان إذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره وبعد ذلك بنحو أربعة أشهر أي في الخامس والعشرين من شهر سبتمبر أيلول من السنة نفسها أقلع من مرفأ مسينا أسطول الرابطة المؤلف من 300 مركب تحمل 30,000 رجل.

وعلى متن إحدى سفن ذلك الأسطول المسماة لاماركيزا أبحر الجندي ميغيل دي سرفانتيس، لكنه لم يلبث أن أُصيب بحمى شديدة الوطأة أجبرته على ملازمة الفراش طيلة أيام السفر، غير أنّه حين سمع الطلقة الأولى المؤذنة ببلوغ أسطول الرابطة خليج ليبانطو الذي يصل خليج كورنتيا بالبحر اليوناني هبّ من فراشه ناهضًا وصعد مترنحًا من الحمى حتى مَثُل بين يدي قبطانه شاحب الوجه غائر العينين مما حمل قبطانه على أمره بالعودة إلى الفراش، لكن كاتبنا أبى إلا أن يأخذ نصيبه من شرف العراك وأصرّ على البقاء قائلًا: إنّه يفضل الموت مجاهدًا في سبيل ربّه وملكه على الحياة. وألحَّ على أن يعهد إليه أخطر مكان في المركب ليحارب ويموت فيه، فما كان من القبطان إلا أن نزل عند رغبته وأسند إليه شغل أخطر مكان في مركبه «لاماركيزا» على رأس اثنتي عشر جنديًا، وما إن بدأت المعركة حتى أخذ سرفانتيس يبدي من الجرأة والإقدام والحماس ما لا يُوصف.

وبعد زمن يسير أصابه طلق ناريّ في صدره أسال دمه غزيرًا، لكنّه لم يلبث أن استجمع قواه وعاود الكرَّة ضاربًا صفحًا عن دمه المتفجر، وما مرت برهة قصيرة حتى أصابه طلق ثانٍ في صدره، غير أنّه ظلّ ثابتًا في مركزه لا تلين له قناة ولا تبدو عليه بوادي الضعف لا يقيم لدمه وزنًا ولا لحياته قيمة.

وبعد قليل تلقى في يده اليسرى طلقًا جديدًا تركها معطوبة إلى آخر حياته، وكم من مرة اضطر سرفانتيس في سني حياته التعيسة أن يلوح بهذه اليد المعطوبة مذكرًا، ولكن كمن ينفخ في رماد! ولم تثن جراحه الجديدة همته عن مواصلة القتال فبقي يدافع ويكافح إلى أن رأى المراكب التركية تُنكص أعلامها وتتراجع هزيمة. وتمّ النصر في هذه الموقعة لأسطول الرابطة وسقطت بيد أياديه غنائم وافرة وأسارى لا يحصون وافتك ثلاثة عشر ألف أسير من النصارى كانوا قد رُبطوا بالمراكب التركية وكلفوا بجدفها.

وها نحن نترك الكلام هنا للمؤرخ الإسباني المعاصر سباستيان خوان أربو ليصف تأثيرات سرفانتيس بعد هذه المعركة: ما كادت المعركة تنتهي ويحلّ الليل بظلامه حتى هبّت زوبعة هوجاء وعصفت الأعاصير وأبرقت السماء وأرعدت وظلّت الرياح تعبث طيلة الليل ببقايا السفن المكسرة وجثث القتلى والأشلاء المبعثرة والدماء العائمة التي كانت تحتل بقعة فسيحة من البحر، وقد ألقى الليل عليها بساط رأفته، وفي ذلك البحر وذلك الليل كانت المراكب المظفّرة تنشد مرفأها القريب، وها هو ذا ميغيل سرفانتيس ممددًا فوق فراشه وقد أثقلت الحمى جفونه ونشبت آلام الجراح في بدنه يسمع في أعماق تلك الظلمات نشيدًا محزنًا يصعده من

بعيد البحر الهائج ويسمع تلاطم الأمواج واصطدام الرياح بالمركب الذي يحمله ودوي الرعد الذي يخنق بين فترة وأخرى دويّ الأمواج. ولعلّه كان يسمع وسط هذا النشيد الوحشي المشؤوم صياح المحاربين وتجديفهم وأصوات الفرح واصطدام المراكب ممزوجة بدوي الضربات وتأوهات الجرحى الذين يسقطون ليرقدوا إلى الأبد في جوف ذلك البحر، أجل! إنّه رجل سلم ومن أجل السلم وحده يقبل الحرب ويقدسها كما قال بعد ذلك بزمن طويل بلسان مجنونه النبيل. ولعلّه الآن، وهو ينصت إلى دوي العاصفة هابة على المياه المغطاة بالجثث، بعد أن هدأت جدة الدم وتلاشت نشوة الظفر وتحرر من كلّ شيء وارتفع إلى تلك الأجواء الرفيعة التي تكاد تكون سماوية، تلك الأجواء التي عرف أن يرفع إليها مرارًا وتكرارًا في صفحات كتابه الخالد، وراء الزمن والفضاء وقد تناسى حينًا وطنه وشمل بفكره الإنسانية جمعاء متذكرًا النكبات التي خلفها وراءه ذلك اليوم الدامي، إذ ذاك قد فكر في هذه الحاجة السرية الهائلة إلى الحروب البشرية التي تنقض على العالم كلعنة إلهية بين حين وآخر، ولعلّ فؤاده قد امتلأ إذ ذاك للمرة الأولى من الحنين إلى حلم سلم وسعادة يخيم على البشرية المعذبة ذلك الحلم اللذيذ الذي سيحييه يومًا في مؤلفه «ضون كيخوطي» والذي طالما لامس نفسه، ولعله لم يشعر قط بذلك الحلم شعوره به تلك الليلة بينما كانت المراكب عائدة وسط ثورة الأعاصير من مذبحة ليبانطو.

بعد المعركة

ما كاد نبأ النصر يبلغ إيطاليا حتى أسرعت مدنها إلى إقامة الحفلات والأعياد، وعمّ الفرح إسبانيا أيضًا، وبلغ إسكوسيا نفسها، وتغنى الشعراء

بذلك اليوم وحفظ الرسّامون ذكره بلوحاتهم وتنافست المدن الإيطالية في الاستعدادات الفخمة لاستقبال ضون خوان دي اوستريا، واستولت على المنتصرين نشوة أذهلتهم عن الواقعَ فظنوا أنهم قضوا على الأسطول التركي للأبد، وصمموا على استرجاع قبرص وفتح المرافئ الأفريقية، وبلغ التفاؤل بفريق منهم أن حلموا بفتح القسطنطينية وبيت المقدس لكن يد الفرقة لم تلبث أن دخلت بينهم فلم تتعد تلك المشاريع حدود الخيال.

أمّا الأتراك فما كادت تتلاشى الدهشة الأولى التي أحدثها في نفوسهم نبأ الهزيمة حتى استرجعوا عزيمتهم واستجمعوا قواهم وشرعت دور الصناعة في القسطنطينية تشغل بنشاط وعزم تحت إدارة العلج علي في تجديد الأسطول التركي، وقبل أن تنقضي سنة كان الأسطول الجديد يعاود الكرة على المرافئ المعادية.

سرفانتيس جريح - عودته إلى الجيش

عاد سرفانتيس من معركة ليبانطو معطوب اليد جريح الصدر فأدخل أحد مستشفيات مسينا وبأمر من ضون خوان دي أوستريا زيادة راتبه ثلاث دكات ذهبية في الشهر.

وقد أكسبته الإقامة في مسينا معرفة بأخلاق القرويين وسذاجتهم وطيب قلوبهم وحصل من معاشرتهم والاتصال بهم خبرة واسعة ومعلومات دقيقة أودعها بعد أعوام كتابه الخالد، ولا غرو أن يكون قد نظم في هذه الفترة بعض المنظومات وصرف بعض نواحي تفكيره إلى الأدب وشيئًا من وقته في المطالعة.

وما كادت تندمل جراحه حتى أحسّ بالرغبة في العودة إلى الجيش،

وفي 29 أبريل نيسان سنة 1572 إذا به ينخرط من جديد في كتيبة اليوزباشي مانويل ونسي دي ليون المنتمية إلى فريق لوبي دي فيغيرو.

سرفانتيس يعود إلى الميدان الحربي

ظنَّ النصارى في بادئ الأمر أنَّ معركة ليبانطو قضت على سلطان الأتراك في البحر وأنّه لن تقوم لهم قائمة بعدها، ولكن سرعان ما خاب ظنهم وتلاشت أحلامهم، فرأوا الترك ولم يمض عليهم سوى نيف وسنة قد استرجعوا نشاطهم وجددوا أساطيلهم وعادت سفنهم تمخر عباب البحر المتوسط متصدية لمراكب النصارى وتغير على مرافئهم العديدة ملقية الرعب في قلوب سكّانها، فأدرك النصارى حينئذ أنّ الميدان ما زال مفتوحًا وأنّ الحرب لم تقل كلمتها الأخيرة. ففكروا في معاودة الكرة عسى أنّ يقضوا هذه المرة قضاء حاسمًا على عدوهم الخطر، وجمع ضون خوان دي أوستريا من جديد أساطيل الرابطة في مرفأ مسينا بعد أن آب المتحالفون إلى الوفاق فيما بينهم وأصبح متأهبًا للإبحار لا ينتظر سوى الأمر بالإقلاع من أخيه الملك فيليب الثاني.

لكنّ الدسائس لم تكن لتهدأ في البلاط الملكي ولذلك لمّا وصل ضون خوان الأمر بالإبحار كان الطقس قد أصبح رديئًا، فأقلع على كره وركب سرفانتيس هذه المرة أيضا أحد مراكب ذلك الأسطول رغم يده المعطوبة.

لكن هذه الحملة لم تكن مُوفقة واصطدم الأسطولان المعاديان في خليج نافارينو الواقع إلى جانب شاطئ البيلوبونيز الغربي في اليونان، في السابع من أكتوبر تشرين الأول من سنة 1572، ولم تسفر هذه المعركة التي

عُرفت في التاريخ باسم معركة نافارينو عن نتيجة معينة لأحد الجانبين، ورجعت أساطيل الرابطة إلى مرفأ مسينا بعد أن فقدت عددًا كبيرًا من البواخر بسبب العواصف التي هبّت عليها، وما كادت تبلغ ذلك المرفأ حتى فوجئ ضون خوان بنبأ عقد صلح منفرد بين البندقية والترك تخلّت بمقتضاه تلك الجمهورية عن جزيرة قبرص التي تألفت الرابطة من أجل حمايتها.

وفي السنة التالية جهز ضون خوان حملة جديدة وكان سرفانتيس من جملة الجنود الذين اشتركوا فيها وتوجه الأسطول إلى الشاطئ الأفريقي فاحتل مدينة تونس دون كبير جهد وعناء، وكان ضون خوان يؤمل أن يُمنح مملكة تونس لكن أخاه فيليب الثاني لم يرض بذلك، وبعد أن جدد بناء حصونها ترك فيها حامية وعاد بأسطوله إلى إيطاليا وعاد سرفانتيس أيضا وأقام في هذه المرة في جزيرة سردينيا.

وفي سنة 1574 بينما كان ضون خوان في مدينة جنوة بلغه نبأ بأن أسطولًا تركيًا ضخمًا أقلع من القسطنطينية تحت قيادة العلج علي قاصدًا شواطئ أفريقيا، فتبادر إلى ذهن القائد الإسباني أنّ الترك سيهجمون لا محالة على تونس، فكتب إلى أخيه مستنجدًا لكن الدسائس كانت تعمل عملها، وحين وصله الأمر بنجدة حامية تونس كانت تلك المدينة قد سقطت بين يدي الترك منذ زمن ولاقت حاميتها أشنع ميتة.

فأبحر ضون خوان وأبحر معه سرفانتيس من جديد لكنه لم يكتب له النصر هذه المرة. وغرق الكثير من مراكب أسطوله وبقيت تونس بين يدي الترك وكذلك سقط بين أيديهم حصن لاغوليطا، وعاد ضون خوان إلى إيطاليا خائبًا، وقد تركت هذه الخسائر في نفس سرفانتيس أثرًا عميقًا من

الأسى وبدأ يدرك مدى الدسائس والأهواء الفردية الجشعة التي لا تحجم عن التضحية بدماء الجنود المساكين في سبيل مطامعها.

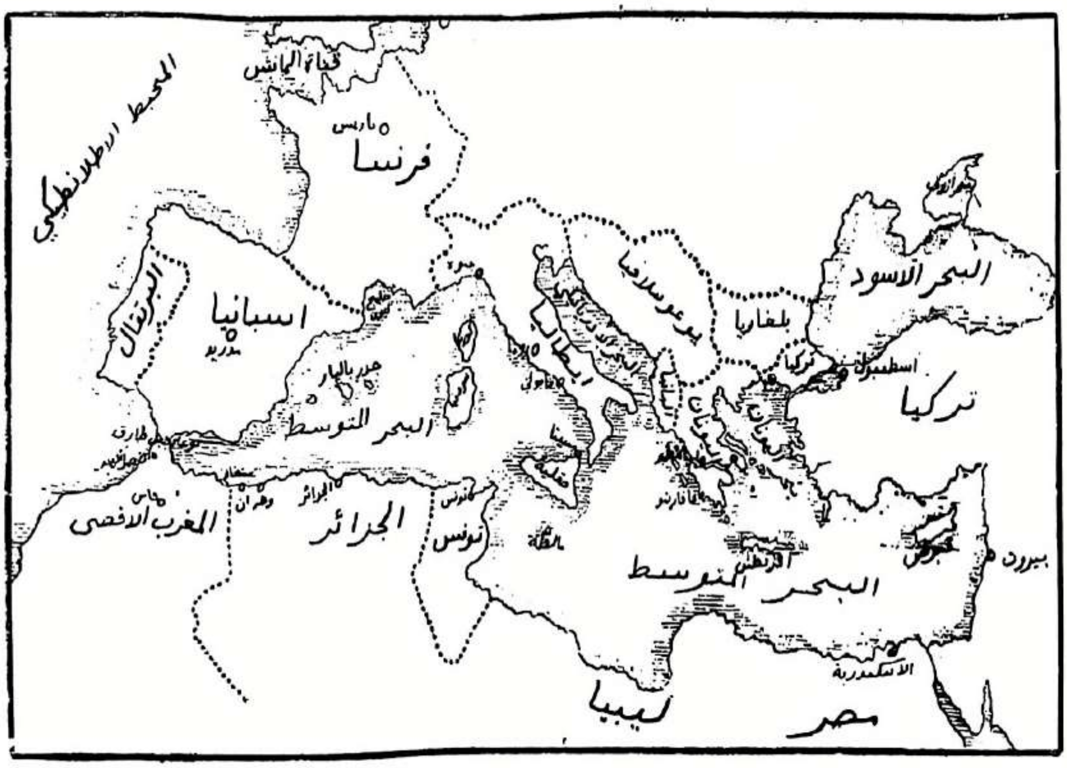

خريطة البلدان الواقعة حول البحر المتوسط وفيها جرت الحوادث التاريخية الدولية المشار إليها في هذا الكتاب

في نابولي

قضى سرفانتيس ذلك الشتاء في نابولي مدينة أحلامه

قضى سرفانتيس ذلك الشتاء في نابولي مدينة أحلامه وكان هذا آخر عهده بـ إيطاليا، لكن هذا الطور الأخير من إقامته ترك في قلبه أثرًا لن يمحى، فقد كانت نابولي وقتئذ مدينة زاخرة بالجنود الإسبانيين وبالشعراء والملاهي. وفي كل هذه الأجواء يجد سرفانتيس ما يسري عن نفسه آلام الخيبة، وفي نابولي التقى بأخيه رودريغو الذي كان منخرطًا في أحد الجيوش أيضا، وفي نابولي أغرم كاتبنا بامرأة لم يحفظ التاريخ لنا اسمها، بادلته الحب وألقت على جراح قلبه المتألم بلسمًا عذبًا ظلت ذكراه في نفسه حتى أواخر أيامه، ولعلّ هذا الحب هو السبب الرئيسي الذي جعله يتشوق طول حياته إلى تلك المدينة الإيطالية، وقد ادعى بعض المؤرخين أنه رزق صبيًا من تلك المرأة التي أحبها ويستندون في دعواهم على أبيات له وردت في مؤلفه الشعري رحلة البارناس وفيها يقول مشيرًا إلى التقائه بشاب ـ بالخيال طبعًا ـ في شوارع نابولي:

وبكل حنو عانقني صديقي، ولما صرت بين ذراعيه قال لي أنه يشك ببقائي هنالك طويلًا، وناداني «أبت» وناديته: «بني» وهكذا أحق الحق.

لكن هذه المسألة لم تتضح كل الوضوح.

***

خرج سرفانتيس من وطنه منذ ثلاث سنوات سعيًا وراء المجد وها هو ذا الآن بعد أن اشترك بمعركة شلت فيها يده وظنها الضربة القاضية على العدو والسلم لارتقائه درجات العلى يرى آماله تنهار وأحلامه تتلاشى ومعركة ليبانطو أصبحت على قربها حلمًا بائدًا لا يؤبه له. ومن الأسطول الجبار الذي انتصر في ليبانطو لم تبق سوى بقايا سفن محطمة تعود من نافارينو وتونس لكن نفس كاتبنا الوثابة لم تكن لتخلد إلى الهدوء، فما كاد يسدل الستار على هذا الفصل من حياته حتى أزاحه عن مسرح آخر ليمثل عليه فصلًا جديدًا، أي أنّه بعد أن أخفق في نيل أمانيه من رحلته إلى إيطاليا تحوّلت أفكاره من جديد شطر الوطن وأخذ يتبادل الحديث في الموضوع مع أخيه رودريغو إلى أن استقر رأيهما على العودة معًا.

لكنّه كان بحاجة إلى رسائل توصية يحملها إلى مدريد، وكانت تربطه بـ الدوكي دي سيسا نائب الملك في صقلية بعض روابط الصداقة لعل مصدرها شغف الدوكي بالأدب وما أبداه كاتبنا من إقدام يوم ليبانطو، فقابله وعرض له فكرته، ويظهر أن الدوكي وافق عليها لكنّه أشار عليه أن ينتظر عودة ضون خوان إلى إيطاليا واعدًا إيّاه بأن يسهل له إذ ذاك مقابلة الأمير الفتى.

الرحيل

في أواسط يونيو حزيران من سنة 1575 وصل ضون خوان دي أوستريا إلى نابولي وبعد وصوله بأيام قلائل حظي سرفانتيس بمقابلته بواسطة الدوكي دي سيسا، وقد أسفرت المقابلة عن إعطاء الأمير كاتبنا رسائل توصية إلى أخيه الملك فيليب الثاني ليقلده قيادة كتيبة وهو تقليد يستحقه -

حسبما جاء في الرسالة ـ لما أبداه من شجاعة وإقدام ودلّ عليه من نبل وكرم واتّصف به من مواهب وذكاء.

وكانت رسائل ضون خوان ورسائل الدوكي دي سيسا ويده المعطوبة كافية في ظنه ليقلد ما يتمناه فيعود للانضواء من جديد تحت لواء قائده الشاب لكن الأقدار كانت تخبئ لهما غير ما حسباه، فدفعتهما في طريقين لن يلتقيا: الواحد نحو الموات الزؤام في سهول فلانديس والآخر إلى الأسر الشديد في سجون الجزائر، فكانت هذه المقابلة آخر عهدهما الواحد بالآخر.

وفي العشرين من شهر سبتمبر أيلول من تلك السنة أقلعت من مرفأ نابولي السفينة صول إي شمس حاملة على متنها في جملة من حملتهم الجندي المعطوب اليد ميغيل دي سرفانتيس وأخاه رودريغو.

أمل خائب

أقلعت السفينة صول وبمعيتها سفينتان أخريان «لامندوثا» و«إيغيرا» والفرح يملأ قلوب ركّابها وبالخصوص كاتبنا الذي كان يعلل النفس بالاجتماع قريبًا بالأهل والخلان بعد غياب أربع سنوات ومشاهدة تربة الوطن والحصول على أمنيته الغالية التي ستساعده على نيلها رسائل التوصية التي يحملها من إيطاليا.

وبعد أن قطعت شوطًا بعيدًا من الطريق وتوغلت داخل خليج ليون وأبصرت مرفأ المريمات الثلاث الصغير إذا بالبحري المكلف بالحراسة فوق مقدمها يبصر في تلك الليلة وقد أشرف قمرها على المغيب أشباح سفن تركية تقترب فأخذ يصيح ملقيًا الرعب بين البحارة

والركاب، لكن قبطان المركب حافظ على رباطة جأشه ولم يبد أدنى خوف أو قلق.

وكانت السفن التركية أربعة يقودها أمير القرصنة الجزائرية أرناؤوط مامي، وقد خرجت من الجزائر كعادتها تبحث عن سفن نصرانية لتنقض عليها، وكانت السفينة «صول» قد سبقت رفيقتيها فأصبحت منفردة، ولما أبصر قبطانها الخطر حاول أن يبلغ بها الشاطئ قبل أن يدركها القراصنة فأمر برفع الشراع وإعداد المدفعية بقصد أن يمرّ بين السفن التركية مسرعًا بينما المدفعية تطلق عليها نيرانها، لكنه لم يتمكن من تنفيذ خطته؛ لأنّ الرياح هدأت فجأة وبقيت السفينة في مأزق حرج، غير أنّ الترك لم يحركوا ساكنًا في الليل بل اقتصروا على مراقبتها إلى أن أصبح الصباح، عندئذ أرسلوا وفدًا على فلك صغير يدعو قبطان المركب الإسباني إلى الاستسلام فرفض الإجابة إلى طلبهم واستعد للمدافعة.

وكان ذلك في السادس والعشرين من سبتمبر أيلول وبعد قليل بدأت المعركة وظلت ناشبة من الفجر حتى المغيب، وأبدت السفينة جرأة كبيرة في مدافعة السفن التركية الأربع وصمدت في وجهها النهار كله، وأبلى سرفانتيس في هذا اليوم بلاءه في معركة ليبانطو وظلّ يكافح حتى الليل إذ بدأت النيران تدب في السفينة من جهاتها الأربع وقتل معظم رجالها وتعطلت مدافعها. وتمزقت قلوعها ولم يبق في الإمكان إخماد النيران المندلعة الألسن، عندها فهم سرفانتيس أنّ كلّ شيء قد انتهى وأنّه لم يبق له من الواقع المرّ الأليم مفر ولا نجاة.

وما هو إلا القليل حتى رأى إحدى السفن التركية تتقدم إلى المركب الإسباني ويصعد رجالها إلى متنه، فيستولون على كل ما فيه من أناس

وغنائم، ومن جملة الذين لم يلاقوا حتفهم فسقطوا أسارى كاتبنا ميغيل وأخوه رودريغو، وأنّها والحق يقال لساعة أليمة تلك التي أبصر نفسه فيها يقيد كالعبيد ويُنقل إلى السفينة التركية كما تنقل السلع ليباع فيما بعد أو يُتاجر به في أسواق الجزائر والقسطنطينية، وها هي أحلامه تتبدد كالسحاب وآماله تنقشع كالغيوم وأفراحه تذوب كالثلج تحت حرارة الشمس، وها هو ذا حاجز حصين يرتفع بينه وبين الوطن ووراء هذا الحاجز ليل الأسر المظلم الذي لا يدرك نهايته سوى عالم الغيب، فلا يتمالك عن أن تمر أمام عينيه تلك الصور المؤلمة المخيفة: صور الأسرى المشدودين إلى مقاعد المراكب ليجدفوا ساعات تلو ساعات دون أن يكل لهم ساعد أو تهدأ لهم يد، وويل لمن تقاعس فجزاؤه أن يكون غداء الحيتان، وصور الأسرى الذين يحاولون الفرار يموتون فوق المشانق والخوازيق، وصور الجلد والتعذيب والنزاع البطيء في مطامير الجزائر المظلمة، وكم من مرة سمع الأسرى المفتكين يقصون على مسمعيه هذه المشاهد فاقشعر لها بدنه وذابت لها نفسه ألمًا وحسرة، وإذا بالأقدار ترمي به الآن وسط هذا العالم الذي كان يخشاه ويحارب للقضاء عليه، وعوضًا عن مشاهدة الوطن والأهل ونيل الأمنية المنشودة ها هو ذا يلقى الأسر مع ما يخبئ وراءه من آلام وأهوال.

الفصل الثاني

في الأسر

الجزائر

قضى سرفانتيس ساعات في حالة ذهول عميق لم يشعر خلالها بما جرى حوله ولا باقتراع الأسرى ووقعه في نصيب «دالي مالي» شقيق أرناؤوط مالي وأقسى القراصنة قلبًا وأغلظهم معاملة، ولما استفاق من ذهوله أبصر إلى جانبه أخاه رودريغو وبعض رفقاء رحلته، والكل مقيد بقيود غليظة لكن قيوده أعظمها وأوثقها ففهم أن سبب ذلك رسائل التوصية التي كان يحملها وعليها توقيع ضون خوان دي أوستريا مما حمل القراصنة على الظن بأن حاملها ذو مكانة رفيعة وأن في الإمكان قبض كمية وافرة مقابل فكاكه. عبث الدهر الخؤون! يقدم للمرء كأس الحلاوة حتى إذا قاربت شفتاه انقلبت علقمًا وما كان بالأمس محط الأمل لنيل العلى إذا به اليوم سبب في التضييق والتشديد.

***

ما كادت السفن التركية تبلغ مرفأ الجزائر حتى انتشر الخبر في المدينة كالبرق فأقبل الناس زرافات ووحدانًا كعادتهم كلما عاد القراصنة من

غزواتهم ليشاهدوا الأسرى والغنائم، وكانت عودة القراصنة كالأعياد في حياة الجزائر ويعم الفرح الجميع لأن كل واحد يرى سبيلًا للكسب والطرب.

ونزل رؤساء المراكب ثم أنزل الأسرى واقتيد كلّ إلى سجن مولاه، وكانت دار دالي مامي واقعة في الناحية المرتفعة من الجزائر وفي منتهاها مطمورة يئن في داخلها مئات المساجين الإسبان، وإليها سيق سرفانتيس، وبعد أن ربطت قيوده برزت مدقوقة في حائط المطمورة. تُرك في تلك البؤرة المظلمة العفنة التي لا يكاد يدخلها النور يحرق الأرم ألمًا وغيظًا ويبلل بدموعه تلك التربة القاسية التي يفترشها في أسره المر.

أما أخوه رودريغو فوقع في نصيب أمير الجزائر: رمضان باشا.

***

لا نعلم بالضبط كم من الزمن أمضى سرفانتيس في حبسه المظلم محرومًا من الاتّصال بالعالم ومن استنشاق الهواء النقي مكبلًا بالقيود الثقيلة، وسبب هذه المعاملة الشاذة كما قلنا قبل؛ رسائل التوصية التي كان يحملها، وخوفًا عليه من الفرار أمر سيده بزجه في تلك المطمورة المظلمة. لكن نفس كاتبنا التواقة إلى الحرية كانت من تلك الحالة في جحيم، وفقد كل شهوة للطعام وهزل جسمه هزالًا أدخل الخوف على حياته في قلوب حراسه من أن يودي ذلك الضعف بحياته فينقم عليهم مولاهم دالي مامي إذا خسر ما يؤمله من دية لافتكاكه. وويل لهم من نقمته! فأسرعوا إلى إبلاغه حالة الأسير فأمر بأن يخفف من قيوده ولم يلبث أن سمح له بالخروج إلى المدينة والتجول في شوارعها، فكان ذلك القسط اليسير من الحرية بلسمًا

لنفسه المعذبة وباب فرج أمام عينيه وحافزًا لهمته للسعي رغم الأخطار العظيمة عن سبيل الحرية؛ لأنّه حسبما قال فيما بعد في كتابه الخالد «في سبيل الحرية وحدها يمكن ويجب بذل الحياة، وفكرة الحصول على الحرية ستكون شغله الشاغل خلال سنوات أسره الخمس».

وقد قال فيما بعد لم أيأس قط من الحصول على الحرية، وكنت إذا عُرض لي خاطر وفكرت فيه مليًا وباشرت تنفيذه ثم جاء الواقع مخالفًا لمبتغاي لا أتراجع ولا ألين بل أبحث عن أمل آخر أستند عليه مهما كان ضئيلًا وهزيلًا. ويقول الأب هايدو في تاريخ الجزائر: «أنه كاد يفقد الحياة أربع مرات فوق الخازوق أو مبقورًا بالكلاب أو محروقًا حيًا. وكانت هذه هي الميتات الثلاث التي تُستعمل للإعدام والثانية أشنعها وهي عبارة عن نوع من المشنقة غُرز في وسطها كلاب حاد من الفولاذ فيُعرى المحكوم عليه وتُكتف يداه على ظهره ويُرفع بالحبل حتى أعلى المشنقة ثم يُفلت فيسقط ويعلق الكلاب بذراعه أو بساقه أو ببطنه ويبقى يتلوى على هذه الحالة حتى يلفظ النفس الأخير.

فهذه الميتات الشنيعة أبصرها سرفانتيس بأم عينيه لكنها لم تكن لتوهن عزمه وتثني همته عن تدبير الحيل للفرار، فكلما أخفقت حيلة عاد إلى تدبير غيرها وهو أقوى أملًا وأشدّ عزمًا وأكثر ثقة بالنجاح.

المحاولة الأولى

لم يكن قد انقضى على سرفانتيس في الأسر سوى بضعة أشهر حين دبّر الحيلة الأولى للفرار، فذات ليلة استدعى بضعة أصحاب له وأفشى إليهم بقصده، واتّفقوا سرًا على تنفيذ الحيلة، وكان عددهم لا يتجاوز الثمانية،

وكانت الخطّة التي رسمها سرفانتيس تقوم على الفرار عن طريق البرّ إلى مدينة وهران التي كانت حينئذ واقعة تحت حكم الإسبان، ولكن العقبات في سبيل تنفيذ هذه الخطة كانت عديدة، فالطريق وعرة المسالك محفوفة بالأخطار وحرّاس الحدود لا يغمض لهم جفن، والبدو يخيمون في تلك الجهات ولا يسهون عن مطاردة الأسرى الفارين مقابل مكافآت ينالونها، أمّا العقبة الكؤود فهي جهلهم الطريق، وحاجتهم إلى دليل وفي يقودهم إلى وهران فالخطة إذًا لم تكن سهلة التنفيذ ولا مضمونة النجاح؛ لكن نفس سرفانتيس الكبيرة المعذبة في الأسر جعلته يغضّ الطرف عن بقية الأخطار بعد أن اتّصل بأحد المسلمين واكتسب ثقته واتّفق معه على أن يكون دليلًا له ولرفاقه في هذه المغامرة التي وراءها الحرية المنشودة أو الموت الزؤام.

وفي اليوم المعين اجتمع سرفانتيس ورفاقه العازمون على الفرار وتزودوا بما قدروا على جمعه من الزاد والأحذية وتنكروا بزي المسلمين، وباشروا السير ليلًا وما إن جاوزوا المروج المحيطة بالجزائر حتى تصدّت لهم المسالك الوعرة .والبراري الخشنة المغطاة بالأشواك والصخور وواصلوا المشي طيلة الليل رغم العقبات كلها، فأصبحوا مُنهكي القوى، خائري العزم، متورمي الأرجل لا يقوون على مواصلة السير.

وبعد أن بلغوا أحد الأماكن أبصروا الدليل يتردد متحيرًا يُقدّم رجلًا ويؤخر أخرى وقد التبست عليه الطريق، فأصبح من أمره في حيرة كبيرة، وما عتم أن صرح لهم بحيرته وإشكال الأمر عليه وحاجته إلى العودة على عقبه ليسترشد بمن له بتلك الأراضي معرفة ثابتة فلم يرَ هؤلاء مخرجًا سوى النزول عند رغبته، فابتعد عنهم ابتعاد غراب نوح.

مرّت ساعة وتلتها ساعة أخرى ومن بعدها ساعات وهم ينتظرون عودة الدليل، ولما أخذت الشمس تميل إلى المغيب بدأت آمالهم برؤيته تتلاشى وما أن حلّ الليل بظلامه حتى فقدوا كل أمل وأظلمت الدنيا في وجوههم إذ ما عساهم أن يفعلوا الآن؟ إن واصلوا السير نحو وهران بلا دليل فذلك معناه الموت الأكيد، وإن عادوا إلى الجزائر فالموت في انتظارهم أيضًا ولكن قد يسعدهم الحظ باختلاق معذرة تبرر تغيبهم إن أمكنهم أن يبلغوا المدينة دون أن يلقى القبض عليهم فبعد أخذٍ وردٍ قرروا العودة وفي تلك الليلة نفسها سلكوا طريق الإياب.

وهكذا فشلت المحاولة الأولى بالفرار.

أمّا كيف بلغوا الجزائر في أوبتهم وما اختلقوه من أعذار مقنعة دفعا لكلّ عقوبة فذلك ما لا نعلمه بالتفصيل وكلّ ما في علمنا هو أنّهم لم يعذبوا وإنّما نعرف مما رواه سرفانتيس أنّه أودع السجن وفُرضت عليه مراقبة أقسى وأضيق مما كان عليه في حاله الأولى، ولعلّ السبب في عدم معاقبتهم بالجلد والتعذيب أو غير ذلك حسب تعليل بعض المؤرخين أنّ أمير الجزائر الذي لم يكن من القساوة في درجة خَلَفِه حسان باشا. كان يستعد في تلك الآونة لتسليم مقالد الحكم إلى خَلَفِه المذكور الذي كان ينتظر وصوله بين حين وآخر.

ومع هذا كله فقد خيم الظلام من جديد على نفس سرفانتيس وحياته.

مساعي عائلة سرفانتيس لافتكاكه من الأسر

في سنة 1596 افتك بعض الأسرى الإسبان ومن جملتهم الفارس غبريال دي كاسطنبيدا. وقبل أن يغادر الجزائر حمّله سرفانتيس رسالة إلى

والديه، يشكو إليهما فيها مرارة الأسر ويدلهما على الطرق التي يجدر بهما أن يسلكاها لنجاح مسعاهما. وكانت رسالة ميغيل تمليها نفس معذبة يحزّ الألم في أعماقها؛ لأنّه قد ضيّق عليه تضييقًا شديدًا بعد محاولته الفرار. ويقول أحد الأسرى المسمى خوان بالكارسبل في مذكراته أنه سمعه يشكو مرارًا من سوء معاملة مولاه له. ويستفاد من إحدى الوثائق أنه اضطر أن يقترض مالًا ليأكل لأن مولاه لم يكن ليعطيه طعامًا ولا لباسًا.

ويظهر أن كاسطنييدا دخل إسبانيا أواسط السنة وما كاد يبلغ مدريد حتى قصد توًا عائلة سرفانتيس ليبلغها رسالته ويعلمها بحالته وحال أخيه. وبوسعنا أن نقدر ما تحدثه هذه المفاجأة في قلوب أفراد تلك العائلة من فرح وألم ممتزجين: فرح بالعلم بأن الأخوين اللذين انقطعت أخبارهما منذ أسرت السفينة «صول»، ما زالا على قيد الحياة. وألم لما يسمعونه من تفاصيل تلك العيشة البائسة المحفوفة بالأخطار والمهددة بالموت في كل آونة.

وكانت العائلة كعادتها في حالة مادية صعبة؛ لكن الأمل بافتكاك الولدين الأسيرين جعلها تتغلب على العقبات وحملها على التضحية بكلّ غالٍ ورخيص. فرهن الأبوان بقية ثروتهما الضئيلة وتنازلت الأختان عن مهريهما لجمع الكمية الكافية لافتداء الأخوين.

لكن كل ما جمعوه بشق النفس وعظيم التضحية لم يكن بالشيء الكثير إذا قيس بالكمية المطلوبة للفدية. فلم يكن إذ ذاك بُدّ من إفراغ جعبة الوسائل كلها: من طلب توصيات وإلحاح وجهد وإجهاد، وعملت العائلة بمقتضى نصائح ميغيل في رسالته، وزيادة في التأثير ارتدت أمّه ملابس الأرامل واستصحبت ابنتيها وبدأت تطوف على أبواب العظماء مستعطفة

مستنجدة وكان ميغيل يلح في رسالته أن يقصدوا خاصة ضون خوان دي أوستريا.

غير أنّ الحالة السياسية في إسبانيا كانت غير مستقرة؛ لأنّ ثورة فلانديس ـ التي كانت تدعمها إنكلترا وفرنسا في الخفاء ـ على الحكم الإسباني ـ كانت في ازدياد بحيث لم ينجح في تهدئة الخواطر واحد من التدابير المتخذة فلا غرو ألا يعار كبير اهتمام لمصير الخمسة وعشرين ألف أسير الذين كانوا يموتون موتًا بطيئًا في مطامير الجزائر ولا غرو أن تذهب سدى دموع ضونيا ليونور والدة كاتبنا ودموع بنتيها، أما ضون خوان دي أوستريا فلم تتمكن من مقابلته.

وفي نهاية الأمر جمعت العائلة بعد بذلها كلّ تضحية ما قدرت عليه من المال وتوجّهت الأمّ مصحوبة ببنتيها وهن مرتديات لباس الحداد إلى دير لامرسيد ودفعن ما جمعنه إلى الراهب خورخي دي أوليفار الذي عينته رهبنته تلك السنة لافتداء الأسرى وأوصينه بميغيل خاصة؛ لأنّ الأنباء التي كانت تبلغهن عن تصرفاته وعن تعرضه الدائم للأخطار كانت تجعلهن يقلقن عليه أكثر من قلقهن على أخيه رودريغو فلذا كان همهن الآن افتداءه أولًا، وبعد ذلك يفكر في افتداء رودريغو.

وبعد أيام قلائل أبحر الراهب نحو الجزائر حاملًا ثروة آل سرفانتيس وآمالهم.

المحاولات الجديدة

ما إن حلّ الراهب خورخي دي أوليفار في الجزائر حتى شرع بالمفاوضات مع موالي الأسرى لافتداء من يقدر عليه، ولم يلبث ميغيل أن اتصل به ونفسه مُفعمة بأمل في نيل الحرية عاجلًا، لكن آماله خابت حين علم مبلغ ما دفعته إلى الراهب عائلته، فإنه وإن كان عظيمًا إذا قيس بثروتها فإنه ضئيل جدًا إذا قيس بما يطلبه مولاه دالي مالي. ولم تسفر مساعي الراهب عن نتيجة في هذا الباب لأن دالي مالي كان إذ ذاك غائبًا عن الجزائر في إحدى جولاته البحرية المعتادة على رأس قراصنته وقد ترك تعليمات حاسمة لنوابه بأن لا يطلق سراح أسيره بأقل من الفدية المعينة، ولما رأى ميغيل أنه لا سبيل لإطلاق سراحه قرر أن يفتدي بالمبلغ المرسل أخوه رودريغو عسى أن يكون ذلك الخطوة الأولى في سبيل تنفيذ مشروع جديد للفرار كان قد أعده من ذي قبل.

وخبر هذا المشروع هو أنّه كانت لحاكم مدينة الجزائر دار تقع شرقي المدينة على فرسخ منها، وكانت تحيط بالدار حديقة فسيحة الأرجاء كثيفة الأشجار يعتني بها أسير إسباني نافاري يدعى خوان. فاستحكمت بينه وبين ميغيل سرفانتيس صداقة متينة وزار ميغيل الحديقة وتفقد أنحاءها. وكان في طرفها كهف واسع لا يعرف بوجوده إلا القليلون، فرأى كاتبنا في الكهف وكثافة الحديقة وموقعها طريقًا سهلًا لتدبير حيلة جديدة للفرار. وكانت هذه تقوم على أن يقترب ليلًا من الشاطئ بالقرب من الكهف مركب إسباني يقوده بحري ماهر عالم بتلك الأنحاء. ويومئ إلى الأسرى

المختبئين في الكهف بإشارة معهودة فيغادرون الكهف ويسرعون إلى المركب ثم يقلع هذا موليًا وجهه شطر إسبانيا.

وكان سرفانتيس قد أدلى بمشروعه هذا إلى عدد من الأسرى ومن بينهم من ينتمون إلى كبار العائلات فوافقوا عليه، ووافق أيضا البستاني خوان على أن يكون من جملة الفارين.

وحيث كان هذا المشروع قد أعد قبل وصول الراهب خورخي دي أوليفار رأى ميغيل أنّ إطلاق سراح أخيه سيساعده على تنفيذه؛ لأنّه سيقدر إذ ذاك أن يعهد إليه بالقيام بكلّ ما يوصيه به لنجاح المشروع، ثمّ استحصل على رسائل توصية من ضون أنطونيو دي طوليدو من عائلة الدوكي دي ألبا ومن ضون فرنسيسكو دي فالنسيا وكلاهما من فرسان سان خوان إلى نواب الملك في بلنسية وميورقة ويابسة يرجوانهم فيها أن يبذلوا الجهد في إرسال مركب مسلح بأقرب وقت ممكن إلى الجزائر ودفع الرسائل إلى أخيه وأوصاه بما يجب عليه أن يعمله لينجح في مهمته بعد أن يبلغ مدينة بلنسية أو جزيرة ميورقة.

***

كان الرهبان الافتدائيون قد فرغوا من جميع المعاملات وتأهبوا لمغادرة المدينة بالأسرى المفتدين، لكنهم فوجئوا بوصول أمير الجزائر الجديد حسان باشا الذي كان في أول أمره نصرانيًا من البندقية ثم جحد النصرانية واعتنق الإسلام وبلغ بدهائه هذا المنصب الرفيع وفاق من سبقه من الأمراء والقراصنة بالظلم والاستبداد والقساوة وقبل أن يقلع المركب حاملًا الرهبان والأسارى المفتدين؛ أصدر حسان باشا أمرًا

بأن يسلم إليه الكاهن فيانويفا والفارس تامورا بدعوى أنهما أهانا بعض المسلمين وأن يحرقا حيين، فخاف الرهبان الافتدائيون على الأسيرين وأخرجوهما سرًا من الجزائر، فثارت ثائرة الأمير وتهدد بأن يصب نقمته على الأسرى أجمعين وإذ ذاك تقدم الراهب خورخي دي أوليفار وعرض نفسه رهينة بدل الأسيرين المهددين بالموت، فقبل حسان باشا لما رآه في أسر الراهب من باب للكسب لأن رهبنة الافتدائيين لن تحجم عن بذل الفدية مهما عظمت مقابل افتكاك رئيسها خورخي دي أوليفار. فزجّ في السجن وكُبل بالقيود. بينما كان المركب يقلع من مرفأ الجزائر حاملًا عددًا كبيرًا من الأسرى المفتدين ومن جملتهم رودريغو دي سرفانتيس ومعه رسائل ميغيل، وكان من جملتهم أيضا أسير آخر يُدعى فيانا، وكان هذا بحريًا ماهرًا ومغامرًا مقدامًا عالمًا بشواطئ أفريقيا، وقد تعهد بأن يتولى قيادة المركب الذي سيوجه من إسبانيا إلى الجزائر لتنفيذ خطة سرفانتيس.

***

وبعد ذلك بنحو أربعة أشهر أقلع من ميورقة شطر الجزائر مركب مسلح يقوده البحري فيانا.

أمل يخيب

حوالي العشر من شهر سبتمبر من تلك السنة تلقى سرفانتيس علمًا بأنّ المركب الذي يقوده البحري فيانا أقلع من ميورقة. فأخذ يسرع في اتّخاذ التدابير النهائية وإعداد العدة للفرار حين يبصر العلامة المتفق عليها المؤذنة بوصول المركب، وكان الأسرى العازمون على الفرار مجتمعين في الكهف وقد مضى على بعضهم مدة طويلة فهزلت أبدانهم وانحطت

قواهم؛ لأنّهم لم يكونوا يجرؤون على الخروج لاستنشاق الهواء إلا في الليل واحدًا واحدًا؛ لئلا يثيروا الريبة أو يقع عليهم بصر المسلمين وكان سرفانتيس خلال هذه المدة كلها يتعهدهم بما يحتاجون إليه من مأكل وملبس يعاونه في مهمته هذه البستاني خوان وجاحد إسباني أصله من مليلية يلقب بـ دواردور.

وفي ليلة الثامن والعشرين من سبتمبر بلغ المركب المنتظر شاطئ الجزائر وأبصر سرفانتيس علامة التعارف فخفق لها قلبه طربًا، وأقبل على رفقاء أسره ينبئهم بالخبر ويدعوهم إلى الخروج من مخبئهم والإسراع إلى المركب.

ونزل بعض البحّارة إلى الشاطئ ينتظرون الأسرى لينقلوهم حال وصولهم إلى السفينة، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان. وذلك أنّ بعض الجزائريين مروا حينئذ صدفة بتلك الناحية فشاهدوا البحّارة والمركب، فداخلهم الريبة وأطلقوا أرجلهم للريح يفشون الخبر في المدينة وقد كان بوسع الأسرى أن يركبوا السفينة ويفروا قبل أن يصل النبأ إلى المدينة وتأتي النجدة، لكن الذهول الذي أحدثته في نفوس البحارة تلك المفاجأة جعلتهم يركبون السفينة ويبتعدون بها على عجل ووقع الأسر في حيص بيص. ورأى سرفانتيس ما شيده من آمال عظام ينهار من جديد ولا يبقى بين يديه سوى مرارة الخيبة وألم الفشل الذريع.

وما أنّ أبصر الأسرى السفينة تعود على أعقابها حتى هرعوا إلى مخبأهم واجمين وقد أحسوا بسيف الموت مصلتًا فوق رؤوسهم، لكن نفس سرفانتيس الكبيرة التي لم يكن الخوف ليعرف إليها منفذًا ألقت عليهم درسًا في رباطة الجأش وبذل الذات وأنعشت نفوسهم اليائسة بنور

تضحيتها. فطمأنهم بقوله: إنّه يأخذ على عاتقه تبعة كل هذا المشروع فلا داعي لهم إلى الخوف واليأس.

غير أنّ نفس ميغيل لم تكن في أعماقها مطمئنة إلى نتيجة هذه المغامرة، وبدأت تساورها الشكوك، ولعلّه بدأ يقضّ عليه مضجعه شبح الخيانة مجسمًا في شخص ذلك الجاحد المسمى دورادور ولم تكن ظنونه خاطئة فإن دورا دور بعد أن ساعده طيلة تلك المدة لتنفيذ خطته إذا به الآن ينقلب عليه وعلى رفاقه، ولعلّه قد اكتشف أمر المركب ظن أنّ المشروع سينكشف بكامله فتلحقه العقوبة كالآخرين فظهر له أنه سبق الحوادث قبل أن تسبقه ويكون هو المخبر قبل أن يكون المخبر عنه، وفي 30 سبتمبر أي بعد وصول المركب بيومين التمس مقابلة الأمير ليفشي إليه بسر خطير، فاستقبله حسان باشا وأنصت إليه، فأعلمه دورادور بالقضية من ألفها إلى يائها وأنّ الأسرى مختبئون في الكهف وأنّ سرفانتيس هو قلب تلك الخطة النابض ودماغها المفكر.

وكان حسان باشا كما قلنا سابقًا من أقسى القراصنة وأغلظهم وقد سجل في سنوات إمارته أبشع صفحة في تاريخ الجزائر بفظاظته وقساوته في معاملة الأسرى النصارى، ولعلّ السرّ في هذه القساوة رغبته في أن يبرهن للترك وللمسلمين كافة بأنّه قطع كلّ صلة بالنصرانية وأتباعها، لأنّه كما ذكرنا أيضا كان نصراني الأصل من البندقية. فوقع أسيرًا بين يدي العلج علي ثمّ جحد النصرانية واكتسب ثقة مولاه وبمساعدته بلغ هذا المنصب الرفيع، ويقول سرفانتيس في مذكراته أنه لم يكن يمضي يوم دون أن يبرد حسان باشا غليله في تعذيب أو إعدام أحد الأسرى لأتفه الأسباب أو بدون سبب البتة، فمن السهل أن نتصور ما أحدثه هذا النبأ في نفسه من غضب

ممزوج بالفرح؛ لأنّ العادة كانت بينهم في أنّ الأسرى الذين يُقبض عليهم وهم يحاولون الفرار يقعون تحت سلطة الأمير مباشرة فيصير من حقه أن يعاقبهم على هواه دونما التفات إلى مواليهم.

ولذلك ما كاد يفشى إليه بهذا الخبر حتى أمر رئيس حرسه بأن يسير على رأس عشرة خيّالة وأربعة وعشرين رجالة مصحوبين بـ الدورادور كدليل إلى بستان الحاكم حيث الأسرى مختبئون، ويأتي بهم مكبلين بالحديد، فتوجه الجنود ورئيسهم إلى المكان المعهود، وعند وصولهم ألقوا القبض على البستاني خوان ثم تقّدموا إلى الكهف، وما إن بلغوه حتى تصدى لهم سرفانتيس قائلًا: إن التبعة في كل ما جرى تقع عليه وحده، أما هؤلاء النصارى فليس لأحد منهم ذنب يعاقب عليه. فدهش رئيس الجنود لرباطة جأشه وأرسل واحدًا منهم يعلم الأمير بما وقع، فعاد الجندي يحمل أمرًا بزج الجميع في السجن وسوق سرفانتيس أمام الأمير، فقيدوا يديه ورجليه واقتادوه بين خيالين في شوارع المدينة إلى قصر الأمير.

على هذه الحالة اخترق شوارع المدينة، والله يعلم كم كان الألم يحزّ في نفسه وهو يسير مكبلًا بالحديد عرضة لهزء الصبيان وسخريتهم؛ ليمثل بين يدي أمير عتي لا يعرف للشفقة وجهًا ويسمع من شفتيه العقوبة المفروضة عليه لمخالفته الجسيمة. ولم يكن بوسع ميغيل وهو العارف باستبداد الأمير أن يتصور عقوبة غير الموت الشنيع على إحدى الصور المألوفة، لكن رباطة جأشه لم تغادره وقناته لم تلن ولا خفف الخطر من حدة عزمه فما إن مثل أمام الأمير حتى ردد على مسامعه ما صرّح به أمام الجنود وهو أنّه هو المسؤول وحده عن تنظيم المحاولة للفرار وأنّ الآخرين لا يد لهم

البتة في هذا كله، وخلافًا لما كان ينتظره الجميع وفي مقدمتهم سرفانتيس ذاته اقتصر الأمير على إصدار أمره بأن يحبس في سجن الأمير نفسه.

وبينما كان ميغيل ورفقاؤه يودعون السجن كان الجزء الثاني من المأساة يتمثل على الشاطئ وهو أنّ المركب الذي جاء بالأمس لنقل سرفانتيس ورفاقه ثم ابتعد حين اكتشف أمره لم يقلع عن تنفيذ المشروع، وأبصر الترك عن بعد أنّه لم يغادر تلك الناحية نهائيًا ففطنوا لقصده ودبروا حيلة لإيقاع بحارته في الشرك، فخبأوا بعض الجنود على الشاطئ، ولما نزل البحار إلى البرّ، خرج الجنود من مخابئهم وانقضوا عليهم وأمسكوهم ومن جملتهم فيانا نفسه، وهكذا انتهت هذه الصفحة.

***

دخل ميغيل المطمورة منتظرًا أن ينقل منها إلى ساحة الإعدام بين ساعة وأخرى، وانقضت بضعة أيام وهو يرى الموت بين جفونه، وذات يوم دخل المطمورة بعض الجنود وفكوا قيوده وأمروه أن يتبعهم، فتقدم ميغيل بخطى ثابتة حاسبًا أنه إلى الموت يسير.

لكن ساعته كانت لم تدق بعد؛ فقد اختارت يد القدر ذلك اليوم ضحية أخرى، وما تلك الضحية سوى البستاني خوان الذي كان في طليعة المشتركين بمحاولة الفرار، ولعلّه بعد سرفانتيس المسؤول الأكبر عن كل ما جرى بتسهيله للأسرى المغادرة التي كانت في البستان المعهودة حراسته إليه، ولذا طلب مولاه من الأمير أن يسمح له بتنفيذ حكم الإعدام بيده وها هو ذا سرفانتيس وبقية المساجين يقتادون ليروا كيف يعدم البستاني ولتكون هذه المشاهدة لنفوسهم عبرة ولجماحهم كابحًا ولحماسهم رادعًا.

وكان المشهد رهيبًا مريعًا أحسّ خلاله سرفانتيس بنفسه تطير من جسمه وبأحشائه تتقطع أسى وحزنًا وأحسّ بالساعات كأنّها قرون، وشاهد كيف نصب الحبل فوق غصن من إحدى الشجرات العالية في بستان الحاكم، وكيف رُبطت إحدى رجلي ذلك المسكين وكيف كان يُرفع حتى أعلى الغصن ثم يفلت الحبل حتى يبلغ الأرض مرارًا ومرارًا، ثم شاهد ورفاقه كيف بقي على هذه الحالة معلقًا في الجو يتلوى ويتأوه إلى أن فارق الحياة.

وعاد سرفانتيس إلى مطمورته وكأن لسانه قد انعقد ونفسه قد أفلتت، وغمره حزن عميق زاده شدة تفكيره بأن هذا المسكين لاقى حتفه بسببه. وبعد أن مرت أيام عديدة أخذ ميغيل يستفيق من شبه سبات عميق وأخذت نفسه تنفتح للحياة من جديد وتحسّ بالكيان الذي يحيط بها، وأول ما بادر إلى خاطره التفكير بالفرار؛ لأنّ نيل الحرية كان كما قلنا شغله الشاغل وفكرته الثابتة، والأهوال التي مرّ بها في محاولتيه السابقتين لم يكن من شأنها إلا أن تزيده عزمًا وإقدامًا.

وكانت مطمورة الأمير أقبح مطامير المدينة كما كان هو نفسه أقسى الناس قلبًا، ويقول سرفانتيس بهذا الصدد: إنّه وإن كان الجوع والعري يتعبانا أحيانًا بل غالبًا لم يكن ليتعبنا شيء مثل أن نسمع ونرى كل يوم الفظائع المنعدمة النظير التي كان الملك حسان يرتكبها في معاملته النصارى، ففي كل يوم يشنق واحدًا أو يخوزق آخر أو يقطع أذن ثالث وكل هذا لأتفه الأسباب إن لم نقل بلا سبب البتة بحيث إن الأتراك نفسهم كانوا يعلمون أنّه إنما كان يفعل ذلك حبًا بفعله لا غير؛ ولأنّ القتل من طبيعته. لكن ميغيل الذي شاهد هذه الفظائع بأم عينيه لم يكن لتلين له قناة أو ليتراجع عن عزمه، ولم يكن حسان باشا ليطمئن إليه إن لم يكن تحت

رقابته الشديدة فاشتراه من مولاه دالي مالي بخمسمائة دينار وكان يقول: متى ضمنت هذا الإسباني المعطوب ضمنت النصارى كلهم بل والمدينة كلها أيضًا.

المحاولة الثالثة

قلنا أن ميغيل ما كاد يستفيق من هذا الذهول الذي أعقب المأساة التي ختمت بها محاولته الثانية للفرار حتى شرع يفكر بحيلة جديدة، وكأنه هذه المرة أبصر نور الفرج يشع من جهة وهران التي فكر بالفرار إليها في محاولته الأولى، وهو يعلم الآن أن حاكمها ضون مارتين دي قرطبة كان لعشرين سنة خلت أسيرًا مثله في الجزائر، وقد سجّل خلال أسره صفحة مجيدة من صفحات الشجاعة والإقدام لم يزل ذكرها يتردد على شفاه سكان المدينة من نصارى ومسلمين، فهو لا شك يقدر الأمور حق قدرها ولن يتردد عن مساعدة فريق من الأسرى يبغون النجاة والفرار.

ولاحت لـ ميغيل هذه الفكرة كأنّها نجمة الخلاص فسار وراءها مؤملًا، وكتب رسالة مسهبة إلى ضون مارتين دي قرطبة يسأله فيها أن يبعث ببعض رجال من ذوي ثقته تكون لهم خبرة بتلك الأراضي ليساعدوه على الفرار مع بعض الأسرى الآخرين. ودفع الرسالة إلى رجل مسلم كان قد اتصل به واكتسب ثقته، فخرج الرسول لكنه ما كاد يبلغ أبواب المدينة حتى أوقفه الحراس لريبتهم في أمره، وفتشوه فعثروا على الرسالة وعليها توقيع ميغيل دي سرفانتيس فرفع الأمر إلى حسان باشا، فأمر به أن يُعدم على الخازوق، فلفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يفشي بسر مرسله ضاربًا بتضحيته مثلًا في الوفاء لا يقل نبلًا عن وفاء سرفانتيس.

واقتيد كاتبنا إلى مجلس الأمير، وهي المرة الثانية التي يقف فيها أمامه هذا الموقف، فصدر الأمر بضربه على بطنه ألفي عصا ومعنى هذا: الإعدام؛ لأن أقل من هذا بكثير يكفي للقضاء على حياة أقوى الناس جسمًا وأصلبهم بنية.

لكنّ الأيام انقضت والحكم لم ينفذ، فأخذ الأمل يعود رويدًا رويدًا إلى نفس ميغيل، غير أنّه هذه المرة توقف قليلًا يتأمل ويعتبر في محاولاته الفائتة، ولا يسعنا هنا إلا أن ننقل الصفحة الفتانة التي دبجتها يراع المؤرخ سباستيان خوان أربو في وصفه وضعية سرفانتيس النفسية في هذه الآونة من حياته. قال: لقد انقضى الوقت وابتعد الأمل، والآن ما عساه أن يفعل؟ فإذا التفت وراءه وجد ألف موضوع للفخر بما قام به ولكنه يجد أكثر منها للخوف على مصيره فيقشعر بدنه كأنه يرى فجأة أعماق هذه اللعبة الخطرة التي تحركه الأقدار ضمنها، إذًا أين هي عظمة أعماله؟ وما هو الذي حصله مقابل ما بذله من جهد وتعرض له من خطر؟ فذات يوم التقى بستاني مسكين أسير من نافارة إن لم يكن فرحًا كان على الأقل قانعًا بالاعتناء ببستانه في انتظار ساعة الافتداء دون أن يعكر صفو هدوئه أي فكر آخر، فذهب سرفانتيس لزيارته مرة وتحدث وإياه ولان البستاني أمام كلماته وقد سحر لبّه الحلم بالعودة إلى الوطن، وبعد ذلك بمدة كان يقضي معلقًا بإحدى رجليه في أعالي شجرة نخل على مرأى من رفاقه.

وكان هنالك رجل مسلم ساذج من مسلمي الجزائر ولعله كان يعيش سعيدًا بصحبة زوجه وأبنائه فتصدى له سرفانتيس ذات مرة وسلمه رسالة إلى وهران وبعد ذلك بأيام إذا به ينفذ فيه الحكم بالإعدام، ألا يقف سرفانتيس أمام هذه الصدف متشائمًا؟

وبأي نور تنصب هذه الأعمال على خيبة ضون كيخوطي المتكررة؟ إنها تنصب بنور براق إلى حد أنها تكاد تثير عواطفنا كما لو أننا كنا نرى فيها صميم سرّه الرئيسي على وشك أن ينكشف أمام أعيننا، فهنالك أيضًا كما هو الأمر هنا، نية مقدسة وضعت تحت خدمة فكرة صالحة تصطدم عند كل خطوة بعقبة كأداء وهنالك مثل هنا ينقلب الخير شرًا والسعي في طريق الفضيلة ينقلب ضررًا على الساعي وحتى على من سعي من أجلهم.

ولكن هنا أيضا مثل هنالك فوق كل شيء نبل الدافع العاطفي الذي لا يحجم عن أي وسيلة أو تضحية دون ما نظر إلى النتائج، وهنا مثل هنالك فكرة الخير تحرك سيف الفارس، وهنا مثل هنالك نبل مقاصد وطيبة نفس وكرم قلب لا ينضب بل يعود إلى المعركة بعد كل خيبة بقوى جديدة. فحسبه هذا، حسبه أن ينقاد إلى خوالج قلبه، فإن لم تأت النتائج حسب المقاصد فإن اللّٰه في السماء وهو يرى ما في القلوب فالتأمل يدوم إذًا قليلًا.

انقشعت هذه السحابة التي كانت تخيّم على نفسه وعاد الأمل إليها، وعادت تبتسم له الحياة، ومن بعيد أخذت تلوح له من جديد فكرة الفرار.

***

بدأ ميغيل يفكر في الحرية وسبحت أفكاره في الفضاء لتبحث عن محط آمالها الأوحد ضون خوان دي أوستريا وكم كان يتلهب للاتصال بذلك القائد خصوصًا حين يسمع صبيان الجزائر ينشدون متهكمين على الأسارى:

ضون خوان لن يأتي

والنصراني هنا يموت

وفي هذه السنة 1578 حصلت وقعة وادي المخازن التي تغلب فيها المغاربة على البرتغاليين وقتل فيها ملك البرتغال ضون سباستيان ونخبة فرسان بلاده، ولما بلغ الجزائر نبأ نزول ضون سباستيان في الشاطئ المغربي هلعت قلوب المسلمين وسكتت الألسن عن شتم الأسرى وعمّ القلق والخوف جميع السكان، وبقدر ما كان القلق شديدًا إذ ذاك كان الفرح عظيمًا حين بلغت بعد أيام الأنباء بانتصار المغاربة.

لكن ذلك المشهد ترك في قلب سرفانتيس نوعًا من الأمل وفتح أمام خياله بابًا فسيحًا للتصور، ورأى في ذلك القلق الذي استحوذ على الجزائريين لمجرد علمهم بنزول جيش البرتغال في شواطئ المغرب مفتاح باب الحرية، فكتب إلى صديقه ماتيو باسكيس كاتم أسرار الملك فيليب الثاني رسالة شعرية مطولة يشرح له فيها الوضعية ويفهمه بأنه إذا جرد الملك أسطولًا تحت قيادة ضون خوان دي أوستريا ودفع به إلى مهاجمة الجزائر فإن فتح هذه المدينة يتم بسهولة كبيرة؛ لأنّه متى بلغها الأسطول عم الخوف جميع السكان وإذ ذاك يثور الخمسة وعشرون ألف أسير وينضمون إلى الأسطول المهاجم فلا تلبث المدينة أن تسقط بين أيديهم.

لكن هذا الحلم لم يتجاوز حد الأحلام ولم يبال أحد برسالة سرفانتيس ولم يعرها أدنى اهتمام.

المحاولة الرابعة

1579

نحن الآن في سنة 1579 وقد مرّ على ميغيل أربع سنوات في الأسر كأنّها أربعة قرون! وكم أصبح يرى بعيدًا كل ما خلفه وراءه من أهل

وخلان وأمال وأماني! إنّ فكرة الفرار قد عادت إلى رأسه لكن أنّى له أن يحققها والطرق مسدودة والأبواب موصدة، وقد زاد في الطين بلة بلوغه نبأ وفاة ضون خوان دي أوستريا في فلانديس، فتلاشى معه كلّ أمل في قلب سرفانتيس بزحف أسطول إسباني على الجزائر واحتلالها وافتكاك الأسرى الذين فيها.

ولكنه مع هذا كله لم يفتح لليأس إلى قلبه طريقًا وظلّ يترقب الفرص بأذن صاغية وعين يقظة.

ففي سبتمبر من تلك السنة تعرف بجاحد إسباني اسمه خيرون أصله من غرناطة كان ينتمي إلى عائلة رفيعة من تلك المدينة، وقد تسمى بعد إسلامه باسم عبد الرحمن، ويظهر أنّ «خيرون» هذا قد ساورت نفسه الشكوك وداخل قلبه الندم على استبداله دينه بدين آخر ونزعت نفسه إلى العودة إلى أحضان النصرانية، وكانت تعرف سرفانتيس به وهو في هذه الحالة من الشك، فحفز به كاتبنا إلى العمل بما يوحيه إليه قلبه من الندم والعودة إلى دين آبائه. واقترح عليه أن يسهل له السبيل للعودة إلى إسبانيا، فقبل خيرون فرحًا شاكرًا، وهنا أخذ ميغيل يهيئ مشروعه الجديد، وكان قد اتّصل سابقًا بتاجر إسباني من بلنسية اسمه إيكساركي من أهم التجار الذين كانوا يتاجرون بين إسبانيا والجزائر، وكانت له متاجر عظيمة في الجزائر وفي بلنسية وتربطه صداقة بكثير من الجزائريين، ويتمتع باحترام كبير بين النصارى والمسلمين، ولا يتأخر - متى استدعى الأمر - عن افتداء بعض الأسارى، فإليه أفضى ميغيل بمشروعه الجديد وقوامه أن يقدم إيكساركي المال الكافي على سبيل القرض لشراء مركب مسلح باسم خيرون الذي لم يكن ليثير الريبة لاعتباره مسلمًا، ويعلن أن المركب مُعد للقرصنة تحت

قيادة صاحبه عبد الرحمن أي خيرون، وفي حقيقة الأمر يكون معدًا لفرار خيرون وسرفانتيس وعدد كبير من الأسارى.

وبدأ تنفيذ المشروع فاشترى المركب وأعلم ميغيل أصحابه المقربون وأعدت العدة وتأهب الأسرى العازمون على الفرار وعددهم يبلغ الستين. ولما لم يبق سوى يومين لركوبهم البحر إذا بمفاجأة جديدة تهدم كل ما بنوه من أمل!

وخبر ذلك أنه كان في الجزائر في تلك الآونة رجل إسباني اسمه خوان بلانكو دي باث أصله من مونتمولين في مقاطعة اكستريمادورا يُدعي أنه راهب وأنه مفوض محكمة التفتيش. وكان ذا طبع حاد وخلق سيء يخشاه جميع الأسارى، ولا يعرف بالتحقيق سبب قدومه إلى الجزائر وكل ما يعرف أنه كان ينافق ويخاتل، وذات يوم التقى به القس خوان خيل من رهبنة الآباء المثلثين وسأله أن يثبت بأوراق رسمية صحة دعواه فلم يمكنه ذلك وظهر نفاقه وكذبه وتجاوز الشك إلى صحة ترهبه، ولعله إن كان في الحقيقة قسا كان من هؤلاء الأفراد القلائل الذين يتخذون من الدين ستارًا يخفون وراءه مطامعهم وأهواءهم.

فهذا الرجل الحسود كانت تؤلمه شهرة سرفانتيس بين الأسارى، وبلغ به الحد أن امتنع عن مبادلته التحية ولم يكن يفتأ يحيك له الشباك ليوقعه فيها.

وكان عدد كبير من الأسرى على علم بمشروع سرفانتيس لكن بلانكو دي باث لم يكن على بينة من هذا الأمر. وقد عني كاتبنا عناية خاصة بألا يتسرب إلى علمه. غير أن الأقدار شاءت أن يبلغه الخبر قبل موعد الإقلاع

من المرسى بيومين، فثارت ثائرته على إقصائه عن تدبير مشروع كهذا واعتبره طعنة نجلاء في صميم عجرفته، فآل على نفسه أن يثأر من ميغيل ومناصريه، وأعمل التفكير في طريقة يبلغ بها الخبر إلى مسامع الأمير دون أن يمثل بين يديه بنفسه، فأفضى بالأمر إلى جاحد فلورنتيني الأصل اسمه كايبان وهذا بدوره نقل الخبر إلى حسان باشا. فاستفسر من هذا عن مصدر النبأ فلم يسعه إلا أن يدلي باسم بلانكو دي باث فاستدعاه الأمير وسأله عن القصة فأطلعه على كل ما في علمه، وأمره حسان باشا أن يترك الأمر سرًا وغرضه من ذلك أن يتيح للأسارى الفرصة ليجتمعوا في المركب كي يلقى القبض عليهم أجمعين.

بالرغم عن احتياطات الأمير ما لبث الخبر أن انتشر في المدينة فجزع الأسرى وهلعت قلوبهم خوفًا وشرع كل من له اشتراك في المحاولة يبحث عن مختبأ يتقي فيه غضب حسان باشا. وقد تسرب الذعر إلى قلب سرفانتيس نفسه لأن هذه هي المرة الثالثة التي يطلع فيها الأمير على محاولته للفرار، فلا عجب أن يحاول النجاة، فهرب من دار مولاه واختبأ في دار صديقه الفارس دييغو كاسطيانو الذي كان أسيرًا أيضا، ولما رأى حسان باشا أن خطته للقبض على مدبري المشروع قد أفسدت عليه أبرق وأرعد، وأرسل مناديًا ينادي بأن من يخبئ سرفانتيس يعاقب بالإعدام، فازداد الخوف بين الأسرى واضطرب التاجر البلنسي إيكساركي وخشي سوء العاقبة على ماله وحياته إن اكتشف الأمر.

لكن سرفانتيس لم يلبث أن بدد مخاوفه إذ ما كاد يطلع على الأمر الذي أصدره حسان بأن الموت جزاء من يخبئه حتى خرج من دار صديقه وهرع إلى دار التاجر «ايكساركي» فطيب خاطره وأعلمه بأنه قد عزم على

الاستسلام إلى الأمير، فعرض عليه «ايكساركي» أن يخفيه ثم يبعث به على متن أحد مراكبه إلى إسبانيا ويدفع من جيبه فديته، لكن نفس سرفانتيس الأبية لم تكن لترضى بالنجاة تاركة عرضة للخطر الرفاق الذين شاركوه في تدبير الأمر، فرد على ايكساركي بقوله: بوسعك أن تعود مطمئن البال وأن تكون على ثقة بأنه لا عذاب مهما عظم حتى ولا الموت نفسه بكاف بأن أدلي باسم واحد سواي وقل للآخرين أن يطرحوا الخوف جانبًا لأني أخذت على عاتقي عبء هذه القضية كله وإن كنت متأكدًا بأن الموت ينتظرني وراءها وقد أشار إلى عزمه هذا بعد سنوات بكلمات وديعة يرى خلال بساطتها نبل تلك النفسية قال: عزمت على الاستسلام لئلا يلحق الأذى بنصراني خبأني عنده ولئلا يبحث الملك إن لم يعثر على أسير آخر يعذبه ويعرف منه حقيقة الأمر.

وهكذا أعطى ميغيل درسًا جديدًا في الوفاء والإخلاص رافضًا النجاة ومفضلًا عليها التضحية بذاته ليسلم الآخرون.

وذهب يبحث عن صديق له جاحد يسمى موراتو الريس ويلقب بـ مالطرابيو كان ذا مكانة لدى الأمير، فأطلعه على نذبه وعلى عزمه أن يقابل حسان باشا ليعترف له بالحقيقة. فطلب له مالطرابيو المقابلة، ولما مثل بين يديه أعلمه بالأمر وألقى التبعة كلها على نفسه كما فعل أمامه في المرة السابقة، فهدد بالتعذيب والموت ليقر بأسماء شركائه في المؤامرة. لكن لا الوعد ولا الوعيد كانا ليحملاه على البوح بسره الدفين وأخيرًا ربط حول عنقه حبل المشنقة ورأى الموت منه على قاب قوسين، فلم يلن عزمه ولم تتحرك شفتاه.

فما كان من حسان باشا إلا أن ازداد عجبًا وللأسير تقديرًا واعتبارًا،

ومن أعجب العجاب أنّه لم يفرض على سرفانتيس أيّة عقوبة البتة. وهذا ما سمح له أن يقول بعد الحادثة بسنوات في معرض كلامه عن هذا العهد من حياته وعن فظائع حسان باشا ولم ينجح معه سوى جندي إسباني اسمه فلان دي سابيدرا فإنه بالرغم عما قام به هذا من أمور ستبقى في حافظة هؤلاء القوم سنين طويلة وكلها من أجل الحصول على الحرية لم يعصه قطّ ولم يأمر بعصيانه ولم يقل له كلمة سوء بينما كنا جميعًا نخشى أن يخوزق على أقل واحد من الأمور الكثيرة التي أتى بها، كما أنه خشي ذلك هو نفسه أكثر من مرة.

لكنه وإن لم يفرض عليه عقوبة فقد أمر بسجنه والتضييق عليه دفعًا لكل محاولة جديدة.

لم يبق أمام سرفانتيس باب للفرج ولا طريق للخلاص. ومما نزع من قلبه كل أمل علمه بانتهاء مدة إمارة حسان باشا واستعداده للانتقال إلى القسطنطينية بأمواله ونسائه وخدمه وعبيده. وكان سرفانتيس يؤمن بأنّ الخلاص من القسطنطينية فيما إذا نقل إليها يكاد يكون مستحيلًا، فلا عجب أن يشتد حزنه وتجزع نفسه وتتراخى همته، ولكن ما العمل؟ إنّ الفرار مستحيل؛ لأنّ المراقبة حوله شديدة، وضون خوان دي أوستريا قد توفي بعيدًا في فلانديس ورسالته إلى ماتيو باسكيس بقيت بلا جواب، وزاد في الطين بلة انتشار وباء الطاعون في الجزائر فكان الأسرى يموتون بالمئات كلّ يوم. فرأى ميغيل أنّ الأبواب قد أقفلت في وجهه كلها ولم يبق أمامه سوى الاستسلام إلى العناية الربانية لتفعل به ما تشاء.

ولكن هذه الحرية التي أصبح يبصرها في عالم المستحيلات كانت أقرب إليه منها في أي وقت مضى، وستأتيه من حيث لم تكن في الحسبان!

في طريق الحرية

في التاسع والعشرين من شهر مايو من سنة 1580 بلغ الجزائر راهبان من رهبانية الآباء المثلثين أحدهما اسمه الأب خوان خيل والثاني الأخ أنطونيو دي لابيلا وانتشر الخبر بين الأسرى كالبرق، فدبّ الأمل إلى القلوب وعمّ الفرح جميع النفوس، وسرعان ما اتّصل سرفانتيس بالأب خوان خيل الذي أنبأه عن حال أهله وأصحابه وعن حالة البلاد عامة، وأعلمه بأنّ عائلته أعطته ثلاثمائة دينار اسكودو لافتدائه، فرأى ميغيل آماله تتلاشى من جديد؛ لأنّ حسان باشا يبغي به ألف دينار. إذ قد اشتراه من دالي مامي بخمسمائة بقصد أن يربح به خمسمائة أخرى، ومن الصعب أن يرضى بأقل من هذه الكمية، ولا سبيل إلى جمع الفرق لأنّها كمية باهظة وحاول والراهب أن يطيب خاطره، واعدًا إيّاه بأنّه لن يألو جهدًا من أجل افتكاكه. لكن نفس كاتبنا لم تكن لتطمئن لما كان يعلمه من جشع حسان باشا وقساوته.

ولم يلبث الأب خيل أن تثبت بنفسه من أن ميغيل كان حقًا في تخوفه؛ لأنّ الأمير لم يلن ولم يرضَ بأقل من الألف دينار فلسًا واحدًا. فانصرف إلى تدبير أمور أسارى آخرين أسهل افتداء من ميغيل. وفي شهر أغسطس آب أقلع مركب يحمل البعثة الأولى المؤلفة من مائة وثماني أسارى وعلى رأسها الأخ أنطونيو دي لابيلا، وبقي الأب خوان خيل يكافح في سبيل افتكاك أسارى آخرين.

وأقبل شهر سبتمبر أيلول واقترب موعد خروج حسان باشا من الجزائر، فأخذ يعد العدة للسفر. وأمر بنقل أمواله وحريمه وخدمه وعبيده وأسراه إلى المراكب المهيّئة لنقله، ومن جملة الأسرى الذين نقلوا ميغيل

سرفانتيس، وها هو ذا اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر، يوم سفر حسان باشا قد حلّ والأسير لا يرى سبيلًا إلى الحرية! وها هو ذا مكبل بالحديد في أحد جوانب المركب ينتظر أن يقلع بين ساعة وأخرى فيقاد إلى القسطنطينية ليباع في أسواق رقيقها كما تباع الدواب فوداعًا أيتها الحرية ووداعًا يا تراب الوطن! وداعًا إلى الأبد!

وأطبق جفنيه كي لا يرى القلوع تُنشر والمراسي تُقلع والمجاديف تُحرك، لكنه ما لبث أن فتحها حين سمع صوتًا يناديه وإذا به يرى أمامه طلعة الراهب خوان خيل! فخُيل له أنه ملاك بزي إنسان! لكن الراهب طمأنه وأكد له أنه قد أصبح حرًا فقد قبل حسان باشا في آخر ساعة أن يطلق سراحه مقابل خمسمائة دينار فاقترض المائتين اللتين كانتا تنقصان لتكمل الخمسمائة ودفعها إلى الأمير، ونزعت القيود من يدي الأسير ورجليه ورأى إذ ذاك بملء عينيه أنه في الحقيقة حرّ طليق، فتقدم إلى الراهب وعانقه والدموع تقطر من عينيه وبصحبته غادر المركب.

سرفانتيس يجمع البينات على نبل تصرفه في الأسر

خرج سرفانتيس من المركب الذي كان مزمعًا أن ينقله إلى القسطنطينية ليباع في أسواق رقيقها وأطلّ على حياة الحرية كمن يستفيق من سبات عميق. فها هو ذا الآن بعد خمس سنوات من العذاب الأليم ينال ما كانت تصبو إليه نفسه وما لم يكن ليأنف من بذل حياته في سبيله، ولكنه لم يوجه همه إلى الإبحَار حالًا؛ لأنّه كانت تشغله قضيّة أخرى تفوق في نظره قدر الحرية نفسها، وذلك أنّ المسمى بلانكو دي باث ذاك المارق الذي وشى به إلى حسان باشا عند محاولته الأخيرة للفرار كما أشرنا إلى الأمر سابقًا،

لم يكن عزمه ليهن في ملاحقة كاتبنا والقدح به والحطّ من كرامته. فما كاد يطّلع على خبر افتكاكه حتى أقبل على الأب خوان خيل ورفع إليه أن ميغيل سرفانتيس ارتكب أثناء المدة التي قضاها في الأسر عددًا غير يسير من الجرائم العمومية والخصوصية، وبلغت وشايته كاتبنا، فلم يصبر على هذا الضيم، وفضل على الإسراع في الإبحار مع ما كان في نفسه من شوق إلى الوطن أن يبقى في الجزائر الوقت الكافي. ليبدد مزاعم عدوه ويثبت للملأ بياض صفحته ونبل سيرته.

وفي فاتح شهر أكتوبر تشرين الأول من سنة 1580 التمس تقريرًا عن حياته خلال أسره في الجزائر من الأب خوان خيل نفسه الذي كان يمثل في الوقت نفسه ملك إسبانيا والبابا أي السلطتين الزمنية والروحية ففتح التحقيق بالقضية أمام الكاتب العدل الرسولي بيدرو دي ريبيرا وفرغ منه في الثاني والعشرين من الشهر نفسه وأسفر عن منح الأب خيل كاتبنا شهادة مشرفة ختمت بما يلي: وأثناء أسره قام بأعمال مجيدة تستحق من جلالتكم أن يكافأ عليها. وفي هذا التحقيق أدلى عدد كبير من نخبة الأسرى الإسبانيين بشهادتهم ونخص بالذكر منهم ذلك الرجل النزيه الفاضل مثال التضحية والصبر: الدكتور ضون أنطونيو دي سوسا مجمعين كلهم «على أنّ سرفانتيس كان مثالًا في نكران الذات والسعي، وقدوة صالحة بسيرته وأنّه بذل في سبيل رفاقه في الأسر مجهودًا كبيرًا مخاطرًا بحياته من أجلهم، وأنّه بمختصر القول كان لهم أبًا وأمًا. ويشير المؤرخ ضون نيقولاس دياث دي بن خوميه في كتابه الحقيقة في أمر الكيخوطي المنشور في مدريد سنة 1878 أن هذه الوثيقة اكتشفها ثيان برمودث في قصر اللونخة بـ إشبيلية.

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ هذه الشهادة لم تنفع صاحبها كما كان يؤمل، ولعلّه كان يعتقد أنه حسبه أن يبلغ مدريد ويعرض يده المعطوبة وشهادته المشرفة ويذكر باسم ضون خوان لينال جزاءه المنتظر، لكن الواقع جاء معاكسًا لكل ما كان يؤمله.

الفصل الثالث

سرفانتيس يطأ تراب الوطن

في يوم لا يعرف تاريخه بالضبط، وإنّما يرجح أنّه حوالي الرابع والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 1580 وطأت رِجْلا سرفانتيس تراب إسبانيا، فالمركب الذي كان يحمله أرسى في بلدة دانية من أعمال بلنسية، وقد خفّ جم غفير لاستقبال العائدين. ويقول سرفانتيس في وصف ساعة الوصول هذه أنّ الأسرى خرجوا إلى البر واحدًا واحدًا كأنهم في طواف وقبلوا ترابه مرة تلو مرة ودموع الفرح تغمر عيونهم.

وأقاموا أيامًا قليلة في دانية ريثما أعدّ استقبالهم رسميًا في بلنسية، ثم قصدوها مشاة على الأقدام كأنهم يسيرون إلى الاشتراك في أحد الأعياد الشعبية مارين بالقرى والمدن الساحلية إلى انتهى بهم السير إلى عاصمة الإقليم الشرقي نعني بها بلنسية، وهناك استقبلوا استقبالًا حافلًا، وتوجهوا توًا إلى الكاتدرائية ليؤدوا واجبات الشكر على وصولهم سالمين، وكانوا مكشوفي الرؤوس مرتدين جلبابًا أزرق هو لباس الأسارى، ووراءهم بعض الصبيان يقرأون بصوت عالٍ «لائحة الأسرى المفتدين» وهي لائحة كان الآباء الافتدائيون يطبعونها ثم تباع ويوزع ريعها بين الأسرى المفتدين.

***

على هذه الصورة دخل إسبانيا من كان يؤمل حين غادرها لعشر سنوات خلت أن يعود إليها عودة الأبطال المظفرين.

***

أقام ميغيل في بلنسية نحوًا من شهرين درس خلالها حالة إسبانيا السياسية، ومنها كتب إلى عائلته يعلمها بوصوله سالمًا ويطلب منها أن تفتح تحقيقًا جديدًا في قضيته ليضيفه إلى الشهادات التي جاء بها من الجزائر وأن تكون نتيجته مهيأة لوقت وصوله، وفي الرسالة نفسها يلتمس من والديه بعض المساعدة كاشفًا لهما بالتماسه هذا عن حالة الفقر المدقع التي بلغها.

في مدريد

في أواخر سنة 1580 وصل ميغيل إلى مدريد فاستقبلته عائلته بفرح عظيم وحنان كبير، وكانت حالتها المادية قد ازدادت سوءًا بما اضطرت إلى دفعه لافتداء الولدين ميغيل ورودريغو، وكان هذا قد انخرط برتبة ملازم ثان في لفيف ضون لوبي دي فيغيرو الذي انتقل بجنوده إلى البرتغال، وأما شقيقته أندريا فقد ترملت بوفاة زوجها الفلورنتيني أوفاندو وبقيت تقيم في دارها مع ابنتها كونسطانسا دي أوفاندو بينما كانت شقيقته الأخرى ماغدلينا تزداد يومًا بعد يوم ابتعادًا عن أمور الدنيا وانصرافًا إلى أعمال البرّ والتقوى، أمّا أبواه فقد أصبحا منهكي القوى ضعيفي العزم.

وجد ميغيل في هذا الجو العائلي ما كانت تصبو إليه نفسه من حنان. لكنه لم تمضِ عليه سوى مدة قصيرة حتى عاد يفكر بأمر مستقبله وما يحتاج إليه من إقدام وحزم. ولا بُدّ له للحصول على ما كان يؤمله وينتظره

أن يتّصل بالبلاط الملكي ولم يكن البلاط إذ ذاك في مدريد، وخبر ذلك هو أنّه بعد وفاة ملك البرتغال ضون سباستيان في وقعة وادي المخازن ولي العرش عمه الشيخ الكردينال هنريكي الذي لم يلبث أن لبّى داعي ربّه بعد قليل، وبقي العرش شاغرًا فتقدم عدة مطالبين من جملتهم رئيس دير أوكراتو، وكان من بين المطالبين أيضًا ملك إسبانيا فيليب الثاني الذي كانت أمه ابنة ملك البرتغال.

فاستدعى فيليب سفيره كريستوبال دي مورا وأمره أن يبلغ أشراف البرتغال بدعوى ملكه، ويظهر أن قسمًا منهم لم يكن راضيًا على الأمر، فلما رأى فيليب الثاني أنّ القضية لن تُحلّ بالسبل الدبلوماسية؛ أمر قائده الدوكي دي ألبا أن يزحف على تلك البلاد، وانتقل هو ببلاطه إلى مدينة بطليوس المجاورة لـ البرتغال ليتحول منها إلى لشبونة متى اقتضى الحال.

***

قضى ميغيل في مدريد مدة غير طويلة درس أثناءها الوضعية السياسية وبنوع خاص الوضعية النفسية في العاصمة. وأنى تردد وحلّ لم يجد إلا التشاؤم وأدرك بثاقب بصيرته الانحلال الأخلاقي المسيطر على أولي الأمر المحيطين بالملك كالسوار بالمعصم، وعلم مما سمعه وشاهده أنّ أصحاب المناصب الرفيعة إنّما يسعون معظمهم وراء إرضاء مطامعهم، وأنّ الاستشفاع بما أتاه من مآثر كجندي أولًا وأسير ثانيًا قد لا يؤدي إلى نتيجة تُذكر، وأنّ معركة ليبانطو قد انطوت في عالم النسيان انطواء قائدها ضون خوان في عالم الموت، فلا فائدة تُرجى من التلويح بيد معطوبة فيها وخمس سنوات في الأسر مليئة بأعمال التضحية والإقدام، لكن هذا كله لم يثنه عن عزمه وظلّ متفائلًا بمستقبله، ورأى شمسه الآن طالعة من سماء

البرتغال فصمم على الانتقال إلى ذلك البلد آملًا أن يجد فيه من المجد ما لم يجده في إيطاليا، وكان مما يقوى فيه هذا الأمل علمه بأنّ في البرتغال والبلاط صاحبه القديم ماتيو باسكيس سكرتير الملك وضون أنطونيو دي طوليدو شقيق الدوكي دي ألبا ورفيقه وصديقه في الأسر وأحد الذين اختبأوا في الكهف حين كان ميغيل يعد العدة للفرار وقد نجا سالمًا بفضل إقدام ميغيل وتضحيته وكان يؤمل أن يجد من كلا الصديقين عونًا كبيرًا ولم يكن قد علم أن السلطان ينسي الأصحاب لكنه بعد أن يمر بهذه الخيبة أيضًا سيقول يومًا في كتابه الخالد على لسان بطله: «تأمل يا سانتشو! أن الوظائف تبدل العادات ولعلك إن رأيت نفسك حاكمًا تنسى أمك التي ولدتك!».

وبينما كان يعد الوثائق اللازمة في مدريد أخذ يتردد إلى النوادي الأدبية مجددًا صلته القديمة بالأدباء ومتعرفًا إلى غيرهم من الأدباء الشباب الذين كانوا قد بدأ نجمهم يتألق. فتعرف إلى التيارات الأدبية الجديدة وقرأ المؤلفات الحديثة وأحسّ بنشاطه الأدبي يتجدد. وكان الفن الجديد الفاشي هو فن قصص الرعاة ولعلّ فكرة قصته لاغالاطيا نشأت في دماغه خلال هذه المدة.

***

وكان ميغيل يتردد على دار أخته أندريا. وقد تكون في إحدى زياراته أتت أمامه على ذكر ضونيا كاطالينا سالازار ابنة أحد الأشراف من بلدة اسكيفيا وكانت تربط عائلة سرفانتيس بعائلتها قرابة قديمة، لكن كاتبنا كان يسبح في عالم أحلامه، فلم يعر تعريض شقيقته أدنى اهتمام. وإنما همه الأوحد بلوغ البرتغال.

في البرتغال

إسناد مهمة سرية إلى سرفانتيس

وبعد ذلك بقليل وصل سرفانتيس إلى البرتغال مصحوبًا بصديقه رودريغو دي تشافيس، وكانت تلك البلاد قد خضعت كلها للسلطان فيليب الثاني، ما عدا جزر «ترسيراس» التي ظلّت موالية لرئيس دير أوكراتو الذي كان يتلقى مساعدة فرنسا وإنكلترا، وأصبح فيليب الثاني يستعد للانتقال إلى مدينة طومار إلى حيث استدعى مجلس الأعيان البرتغالي للانعقاد؛ لأنّ الوباء كان قد انتشر في لشبونة.

واتّصل ميغيل بالبلاط وبدلًا مما كان يؤمله من وظيفة إدارية أو رتبة يوزباشي أسندت إليه مؤقتًا مهمة سرية لدى حاكم قلعة مستغانم في الجزائر بالقرب من وهران، فقد كلف بحمل رسالة وتعليمات شفهية إلى الحاكم المذكور، والقيام بهذه المهمة معناه مغادرة الوطن من جديد والتعرض للأخطار التي تعرض لها سابقًا من قتل أو أسر بين أيدي القرصان، لكن نفسه الكبيرة لم تكن لتعير الأخطار عظيم اهتمام.

فحمل الرسالة وتوجه إلى قادس لينتقل منها إلى وهران، وفي قادس دفع إليه محاسب البحرية الملكية في 23 مايو أيار من سنة 1581 تنفيذًا لأمر ملكي مؤرخ في طومار خمسين اسكودو على حساب المائة الإسكودو التي عينت له كنفقة للسفر، أمّا الخمسون الأخرى فستدفع له عند عودته، ومن هنالك أبحر شطر وهران.

قضى ميغيل مهمته على أحسن وجه وعاد إلى إسبانيا حالًا وفي قرطاجنة في السادس والعشرين من شهر يونيو حزيران من السنة نفسها

أي بعد خروجه من قادس بأربعة وثلاثين يومًا قبض الخمسين اسكودو الأخرى وواصل السير إلى البرتغال على أن يلقى الآن المنصب الذي كان يعلل النفس به، وفي 31 من شهر يوليو تموز كان يشاهد دخول الملك فيليب الثاني مدينة لشبونة دخول الفاتحين. وكان يومًا مشهودًا ترك في نفس كاتبنا أثرًا عميقًا إذ تجلت له فيه عظمة أمته.

ورأى سرفانتيس في جيبه مائة اسكودو والحياة طافحة باللهو والسرور في العاصمة البرتغالية فاستسلم إليها مرحًا كأنّه نسي أمر مستقبله ورأى مصيره أمينًا، والحق يقال أنّه كان بحاجة إلى الراحة بعد ما قاساه من ألم وعذاب في السنوات الفائتة. وكان من حقه بعد ما قام به أن ينام مطمئنًا واثقًا من مصيره وأن يرجو مما أتى به نيل ما يؤمله.

لكن جزر السعادة آزورس كانت كما قلنا لا تزال ثائرة على فيليب الثاني مؤيدة لرئيس دير أوكراتو تساعدها كل من إنكلترا وفرنسا الأولى سرًا والثانية علانية. فقد رأي الملك أن يجهز حملة بحرية لإخضاعها فحشد أسطوله في لشبونة وأسند قيادته إلى أمير البحر الماركيس دي سانطا كروث. وفي 29 من شهر يونيو حزيران من سنة 1582 أقلع الأسطول قاصدًا جزر السعادة وكان من جملة المحاربين الذين حملهم رودريغو شقيق ميغيل الذي سجل في تلك الحملة صفحة مجيدة، أما ميغيل نفسه فمسألة اشتراكه في هذه الحملة موضوع خلاف بين المؤرخين، فمنهم من يجزم بأنه اشترك بها ومنهم من ينفي ذلك.

وعلى كل حال سواء اشترك بها أم لم يشترك فإنّ المدة التي قضاها في لشبونة كانت من أجمل أوقات حياته، وخلالها كتب قصته الأولى التي عنوانها لاغاليطا. أو قسمًا كبيرًا منها، ويرى المؤرخون أنّه استمد كثيرًا من

مشاهدها من الجو الذي كان يعيش فيه حينئذٍ وخاصة من نبل نفسه وطيبة قلبه.

وفي لشبونة أيضًا مثّل دورًا غراميًا جديدًا لا تعرف تفاصيله بالضبط، والثابت عند المؤرخين هو أنه أغرم بامرأة برتغالية يُقال إنّها كانت من عائلة رفيعة واسمها آنا دي فرانكا ورزق منها ابنة سُميت باسم إيزابيل، ويزعم أنّ آنا دي فرانكا ترهبت فيما بعد، أمّا البنت فسيأتي الكلام عنها في غير مكان من هذا الكتاب.

العودة إلى مدريد

مرّت الأيام تلو الأيام وفرّت الدنانير من جيب ميغيل واحدًا تلو الآخر والوعود تأتيه تترى دون أن يقبل اليوم الذي يراها فيه تنقلب حقيقة ثابتة، وفي نهاية الأمر استفاق من ذلك الحلم اللذيذ ولمس الحقيقة المرة بأصابعه والحقيقة هي أنّ وعود من كان يؤمل منهم المساعدة مستندًا على صداقتهم القديمة وعلى تضحيته في سبيلهم إنهما هي مواعيد عرقوب، فلم يرَ بدًا من العودة إلى بيت أبيه وعودته في هذه الحالة إنما كانت أشبه منها بالخذلان.

وهنا بدأ سرفانتيس يرى الواقع على علاته ويفهم الأمور على حقائقها والنفوس على أوضاعها، وأبصر أنَّ الصداقة كما تصورها ووصفها في قصته «لاغالاطيا» إنّما هي من جملة أحلامه، ورأى الحياة في وسط هذا الجو المسموم بالمطامع والأحقاد والشهوات حربًا عوانًا أشدّ وطأة على نفسه الأبية من ميادين القتال أو سجون الأسر، وفهم الآن أن خروجه من الجزائر لم يكن خاتمة جهاده بل فاتحته.

عاد إذًا إلى مدريد وشرع يتصل بكبار أدباء عهده وتوثقت عرى الصداقة خاصة بينه وبين ضون خوان روفو غوتييريث مؤلف قصة أوسترياداا ورفيق ميغيل في وقعة ليبانطو، وعرفه هذا بالشاعرين لويس دي غونغورا وبيدرو دي باديا، ولعلّه تعرف في ذلك العهد أيضًا على لوبي دي بيغا الذي بدأ نجمه يتألق حينئذٍ في سماء الشعر والمسرح ولما يتجاوز الحادية والعشرين من سنه، وفي هذا الوقت أتمّ ميغيل قصته لاغالاطيا وحملها برفقة صديقه باديا إلى الطباع بلاس دي روبليس، فعرض عليه هذا أن يطبع له القصة مقابل قيمة لا بأس بها، وتمّ الاتفاق بينهما على أن يدفع له ألفًا وثلاثمائة وستة وثلاثين بليونًا وهي كمية لا يستهان بها لو قوبُلت بما كان يدفع إذ ذاك للمؤلفين مقابل مؤلفاتهم، وفي 22 فبراير شباط من سنة 1584 ظهرت القصة مطبوعة.

وفي هذه المدة مثلت في مدريد بعض رواياته المسرحية منها معاملات الجزائر، ونومانسيا، والمعركة البحرية وغيرها ونالت استحسان الجمهور وإقباله.

زواج سرفانتيس

لم تكن حالة عائلة سرفانتيس المادية كما قدمنا حسنة؛ لأنّ ما أنفقته لافتداء ولديها من الأسر أجهز على البقية الباقية من ثروتها الصغيرة، فلمّا عاد ميغيل من البرتغال إلى حضن العائلة كانت هذه قد بلغت حالة يمكن وصفها بالفقر إلى حدّ أنّه اضطر أن يرهن في شهر سبتمبر أيلول من سنة 1583 ست قطع من المخمل الأحمر كانت لأخته أندريا مقابل ثلاثين دكة.

وكانت أخته هذه لا تفتر تتحدث عنه إلى ضونيا كاتالينا سلازار التي أشرنا إليها سابقًا، ففعل كلامها فعله في قلب الفتاة التي أغرمت بـ ميغيل، ووقع التعارف بينهما، وداخل الحب قلب ميغيل أيضًا، ولم يلبثا أن اتّفقا على الزواج، لكن عائلة كاتالينا عارضت في الأمر وبالرغم من المعارضة تمّ القران في 12 ديسمبر كانون الأول من سنة 1584 في كنيسة القديسة مريم في بلدة اسكيفيا، ولم يحضر من أقارب العروس أحد حفلة الزواج لما ذكرناه من معارضتهم في عقد القران.

ولم يلبث أن نشأ سوء التفاهم بين الزوجين؛ لأنّ ضونيا كاتالينا كانت ذا خلق على طرفي نقيض من خلق زوجها الذي تحبه حبًا شديدًا؛ فهي متمسكة بتراب بلدتها ودارها وأملاكها تحب الحياة المستقرة الهادئة بينما هو يعشق الحرية والتنقل كالطير لا يعرف هدوءًا ولا استقرارًا، هي تفكر بحياة القرية والعناية بأرضها وكرومها وغلاتها وهو يهوى حياة الخيال

والعناية بالشعر والقصص ونتاج الفكر، هي تؤثر العيش في بيت أهلها الهادئ وهو يود العيش في مدريد الصاخبة على اتصال بالحلقات الأدبية وأرباب المسارح وأجواق التمثيل فأنى لهما أن يتفقا؟ ولذا أخذ ميغيل يقسم وقته بين مدريد واسكيفيا، ثم أخذت زياراته إلى اسكيفيا تقل شيئًا فشيئًا حتى انقطعت في النهاية وأصبحت زوجته في حكم المهجورة.

سرفانتيس

ينصرف إلى المسرح

قلنا سابقًا أنّ سرفانتيس عاد من البرتغال خائبًا وأنّ أمله بالحصول على منصب في الجيش أو الإدارة تلاشى، فلم يبق أمامه إلا الأدب، وكان مغرمًا بالأدب المسرحي ورأى فيه باب الخلاص ماديًا وأدبيًا، وبنوع خاص بعد أن رأى في زواجه خيبة جديدة. فانصرف إلى المسرح بنشاط كبير ووضع في سنتي 1584 و1585 عدة روايات مثلت في مدريد ونالت استحسان الجمهور، وأخذ اسمه ينتشر في الأوساط الأدبية والمسرحية خاصة، لكن توفيقه هذا لم يطل؛ لأن مزاحمًا جديدًا في هذا الميدان لم يلبث أن كسفه بين جملة من كسفهم من أمراء المسرح حتى خلا له الجو فحلق فيه وحيدًا، وهذا المزاحم لم يكن سوى لوبي دي بيغا، فما إن بدأ يدفع رواياته إلى المسرح حتى تقلص ظلّ جميع المؤلفين المسرحيين وسرفانتيس في طليعتهم.

وكان لوبي في عنفوان الصبا لم يتجاوز الحادية والعشرين من سنه وقد أتاه الحظ من كل جهة؛ فهو ينتمي إلى عائلة رفيعة وعمه يحتل منصبًا من أرفع مناصب الدولة، وقد منحه الله طلعة بهية وذكاء مفرطًا وهو يحسن عزف العود والرقص وهزّ الحسام ونظم الشعر ومغازلة الحسان. وما كاد

يدفع رواياته إلى التمثيل حتى أخذت سيول الثروة تنصب عليه غزيرة، فينفق منها عن سعة ويتقلب في أحضان النعمة والرخاء.

ولعلّ سرفانتيس تعرف به في إحدى حلقات الممثلين لكن المنافسة لم تلبث أن نشبت بينهما ولعلّها كانت أقوى من جانب كاتبنا. فإن لوبي دي بيغا لم يكن له ما يحسد سرفانتيس عليه وقد ابتسمت له الحياة وفتحت له أبوابها على مصراعيها، ولعل ميغيل على طيبة قلبه ونبل نفسه وشهامته كان ينظر - وهو يهوي كل يوم من سوء إلى أسوأ - بشيء من المرارة والألم إلى منافسه الراتع في بحبوحة من العيش كان هو يحلم بها ويرى نفسه جديرًا بها، وأنّه وإن كان يعترف بتفوق لوبي في المسرح لا يمكنه أن يخنق في نفسه هذه الثورة على من قضى على آخره أمل من آماله.

وفي هذه الآونة فجع بوفاة والده ضون رودريغو الذي أسلم الروح في 13 يونيو حزيران من سنة 1585.

***

ابتعد ميغيل عن المسرح فأظلمت الدنيا أمام عينيه وبات حائرًا لا يدري صوب أي شاطئ يولي وجهه، فلم يرَ بُدًا من الاستعطاف والتذلل والوقوف على أبواب الكبراء وقضاء الساعات الطويلة في قاعات الانتظار سعيًا وراء وظيفة تضمن له النجاة من هوة الفقر التي وقع فيها.

سرفانتيس

يعود إلى إشبيلية

خابت مساعي ميغيل في الحصول على الوظيفة كما خابت آماله في التفوق كمؤلف مسرحي، وأخذت الدنيا تزداد في عينيه ظلامًا، ففي هذه الآونة في سنة 1586 نراه يعود إلى إشبيلية مدينة صباه وأحلامه، لكنّه لم يأتها هذه المرة كما أتاها لعقدين مضيا يوم كان الشباب يصبغ وجهه والأمل يملأ جوانبه والمستقبل لما يزل أمامه صفحة بيضاء يؤمل أن يسجل عليها سطورًا مجيدة! لا! بل جاءها الآن وبياض الكهولة قد صبغ مفرقيه وتوالي النكبات قد حطّ من عزمه والفشل قد قصّ جناحي خياله المتقد وسود من صفحة المستقبل أسطرًا شقية كتبت بماء البؤس والتعاسة، جاءها الآن كرجل عادي، كعميل لبعض المحلات التجارية المدريدية ليقبض لها ديونًا من تجار آخرين في إشبيلية وقد يكون للقيام ببعض عمليات تجارية صغيرة لحسابه الخاص، كل هذا ليضمن لنفسه بعض موارد الرزق الذي كادت تنسد في وجهه أبوابه كلها.

لكن إقامته في إشبيلية لم تطل هذه المرة، وما إن قضى المهام التي جاء فيها حتى عاد إلى مدريد. ومنها انتقل إلى اسكيفيا، إذ نراه في الخامس والعشرين من شهر أكتوبر تشرين الأول يتولى هو وزوجته صفقة عرابين

لفتاة تلقت ذلك النهار ماء العماد في كنيسة تلك البلدة. غير أن إقامته في إسكيفيا لم تطل، بل عاد إلى مدريد إلى تلك الحياة التي تكاد تكون تشردًا، وعاد إلى الكفاح في سبيل العيش.

سرفانتيس

يعين مفوضًا لتموين الجيش

استقام الأمر لـ فيليب الثاني في البرتغال، لكن إنكلترا ظلت تناوئه وتبالغ في أعمالها الاستفزازية، فآوت رئيس دير أوكراتو وواصلت مد الثوار في فلانديس بينما كان قراصنتها يتصدون للمراكب الإسبانية الراجعة من أميركا فيسلبونها ما تحمله من الذهب، وذهبت جميع احتجاجات إسبانيا أدراج الرياح، ولما طفح الكيل أمر فيليب الثاني ببناء أسطول ضخم في لشبونة، وبلغ الخبر إنكلترا فقلقت في بادئ الأمر لكنها ما لبثت أن تبدد قلقها واستحوذت عليها موجة من الحماس عمّت جميع سكانها على اختلاف مذاهبهم، وبدأت بدورها تعد العدة للصراع الذي لم يكن منه بد.

شرع فيليب الثاني ببناء الأسطول وفي الوقت نفسه شرع بتموينه وتجهيزه، وكانت العادة في ذلك العهد أن يفرض التموين من حبوب وزيت على المدن والقرى كل على قدر أهميتها، وتوضع بالمفروض لوائح ترسل إلى سلطات كل بلدة، وهذه تجمع الكمية المعينة حتى إذا أقبل مفوض التموين ـ وهو الموظف الحكومي ـ استلمها، وبعد مدة يدفع ثمنها من الذهب القادم من أمريكا على الغالب، وكانت الحكومة شأن كل الحكومات في ذلك الزمن تتأخر أشهرًا بدفع الثمن وذلك ما يثير ثائرة

المزارعين فيصبون جام غضبهم على مفوض التموين الذي كانت مهمته لهذا السبب غاية في الصعوبة.

وقد شاء حظ سرفانتيس الذي كان يكافح الفقر والعوز أن يعين مفوضًا للتموين في أحد أقاليم إسبانيا الجنوبية، واضطر إلى قبول هذه الوظيفة التي لم تكن بالمغرية، لضيق ذات يده وخيبته في الحصول على غيرها مما كان يصبو إليه.

وفي أواخر سنة 1586 أو أوائل السنة التالية انتقل إلى إشبيلية ليستلم وظيفته، وتوجه إلى فندق توماس غوتييريث الذي كان في أول أمره ممثلًا وصاحب جوق للتمثيل وكانت تربطه بكاتبنا صداقة قديمة من ذلك العهد، ثم تخلى عن حرفته السابقة وفتح له في إشبيلية فندقًا كان يعتبر من أرفع فنادقها وفيه ينزل كبار الضيوف والزائرين سواء قدموا من بقية أنحاء إسبانيا أم من الخارج، وقد مدَّ لـ سرفانتيس يدّ المساعدة في غير ما مرة لكن كاتبنا انتقل بعد مدة إلى فندق آخر أقل فخامة وأرخص ثمنًا.

***

ما كاد ميغيل يصل إلى إشبيلية حتى توجه إلى زيارة المأذون دييغو دي فالديفيا نائب مفوض التموين العام ضون أنطونيو دي غيبارا الذي كان إذ ذاك غائبًا عن المدينة، وبعد أيام قليلة خرج سرفانتيس من إشبيلية متوجهًا إلى بلدة استجة ليباشر القيام بمهام وظيفته الجديدة؛ لكنّه لم يلبث أن أخذ يصطدم بالعقبات والمصاعب؛ لأنّ المزارعين كثيرًا ما كانوا يمانعون بتسليم الغلة المفروضة عليهم لتأخر ميقات الدفع، وبدلًا من أنّ تجبرهم السلطات المحلية على تسليمها كانت تكتفي بما يدفع إليها عن طيب

خاطر ـ ولم يكن إلا القليل ـ تاركة أمر استعمال القوة إلى المفوض الذي يصبح والحالة هذه قبلة أحقاد الجمهور، أضف إلى هذا أنّ بعض رجال الكنيسة كانوا من جملة الذين يمتنعون عن تسليم التموين، ولذا ما كاد يمرّ على ميغيل سوى وقت قصير في الوظيفة حتى اصطدم بالممتنعين الصدمة الأولى وكان ذلك في بلدة استجة حيث اضطر لحجز كمية من الحبوب والزيت كان قسم منها ملك الكنيسة والقسم الآخر ملك رجالها فصدر حرم كنسي بحقه واضطر إلى الذهاب إلى إشبيلية وبعد أخذ وردّ رفع الحرم عنه وأرجع المحجوز إلى أصحابه. وقد وقع له حادث آخر مثله في بلدة كاسطرو دل ريو.

لكن تصرف ميغيل في وظيفته رغم شدته الخارجية اكتسب له إعجاب المزارعين وتقديرهم؛ لأنّهم رأوا فيه موظفًا نزيهًا وما أقلهم في ذلك العهد، ولذا حين وُجهت إليه التهمة مرتين بأنّه استبقى لنفسه بعض ما جباه للبحرية هب هؤلاء الذين كانوا أكبر معاندين لأوامره نفسهم ليدافعوا عن نزاهته ويشهدوا ببياض صحيفته وصدق تصرفاته.

وفي سنة 1588 ازدادت وظيفته اتساعًا إذ عهد إليه فضلًا عن مهمته السابقة أمر طحن الحبوب ونقلها وبعد مدة أضيف إليه أمر خبزها وشحنها، فكاد المسكين أن يغرق في هذا البحر الخضم من الأعباء التي لم يخلق لها.

وكان تردده على إشبيلية في هذه الآونة قليلًا، وإقامته فيها حين يزورها قصيرة، أما علاقته بالأدب فكادت أن تكون مقطوعة ولم يبق بينه وبين المسرح صلة كأنه لم يكن يومًا مؤلفًا ثلاثين مسرحية قوبلت بالاستحسان في نفس مدريد! لا! إن حياته الآن حياة عمل لا يمتّ إلى الأدب بصلة

وأشغاله العديدة تستغرق كل مجهوده الجسمي والعقلي والجو الذي يعيش فيه والمحيط الذي يحيط به لا يعرفان للأدب معنى.

***

في 22 يوليو تموز من سنة 1588 خرج الأسطول الإسباني من مرفأ لاكورونيا الواقع في الشمال الغربي موليًا وجهه شطر إنكلترا، لكن الحملة أسفرت عن اندحار كبير سببته العاصفة الهوجاء التي هبّت وسوء إدارة قائدها مدينة صدونيا، وفي 23 سبتمبر أيلول من السنة نفسها وصلت بقية الأسطول الإسباني المندحر إلى سانطندير، ومن الثلاثين ألفًا الذين خرجوا من لاكورونيا لم يرجع سوى عشرة آلاف، واعتبر هذا الانكسار أعظم انكسار أصيبت به إسبانيا؛ لأنه عجل تدهورها ودلّ العالم على ضعفها وانحلال قواها، واعتبر مبدأ عهد انحطاطها.

وكان سرفانتيس حينئذٍ في إشبيلية، فتألمت نفسه تألمًا شديدًا وهاجت عواطفه وسالت قريحته فتناول القلم ونظم قصيدة عامرة فيّاضة بالروح الوطنية والعاطفة القومية وختمها بنداء حارٍ موجه إلى الملك فيليب الثاني يدعوه إلى إعداد العدة لغسل العلم الإسباني من أدران هذه الهزيمة والثأر لهذا العار.

لكن الوضعية في إسبانيا كانت قد تبدلت والنفسية انقلبت واكتفى بإلقاء تبعة الانكسار على العاصفة وأسدل الستار على المأساة كأن شيئًا لم يجر، وذهبت صيحة سرفانتيس كمن ينفخ في واد، ولم يحرك فيليب الثاني ساكنًا واقتصر على ترديد الكلمة التي فاه بها والده الإمبراطور كارلوس الخامس شارلكين بعد هزيمته في وقعة ايتسبروك: إن اللّٰه لم يرده.

سرفانتيس

يحلم بأميركا

لم تزل النكبات تنصبّ على سرفانتيس، فها هو ذا الآن بعد أن أصيب الأسطول الإسباني بالانكسار يبقى بلا وظيفة صفر اليدين لا مال له ينفق منه ولا مورد يرده، فكاد يصبح عالة على أصدقائه، ولا عجب أن راودته في هذه الحالة فكرة الانتقال إلى أميركا؛ لأنّ هذه القارة كانت حينئذ قبلة الخائبين ومحطّ آمال المنكوبين البائسين، فأخذ ميغيل يُعدّ العُدة للسفر إليها.

وفي شهر فبراير شباط من سنة 1589 قدّم لائحة أرفقها بأيمان مغلظة بما أنفقه من طحنه الحبوب في استجة، وقد جاء في اللائحة: أقسم باللّٰه وبإشارة الصليب أنّ كل ما ذكر أنفقته على الطحن وفضلًا عن ذلك أنفقت كميات أخرى لم أقيدها، وإني أوقع هذا البيان باسمي الخاص في 6 فبراير شباط من سنة 1589.

وبعد هذا التاريخ بمدة قليلة نراه يستوفي من أحد أقاربه المسمى خوان دي سرفانتيس خمسين دكة قد يكون أسلفه إيّاها حين كانت حالته أكثر يسرًا.

وفي يونيو حزيران من السنة نفسها وقّع لصديقه القديم طوماس

غوتييريث صاحب الفندق الذي أشرنا إليه من قبل في إشبيلية سندًا ماليًا يستفاد منه أن ميغيل كان مدينًا له بكمية من المال، وقضى فصلي الصيف والخريف وهو يقدم لإدارة المالية بيانات عن حساباته، وكانت المالية مدينة له براتبه كله؛ لأنّها كما قال أحد المؤلفين لم تكن تدفع لموظفيها رواتبهم ومع هذا كانت تطلب منهم حسابات واضحة.

وفي هذه المدة علم بأن بعض المناصب شاغرة في أميركا فطمحت نفسه إلى شغل أحدها، ولذا بعد أن فرغ من تأدية حساباته إلى المالية وصفى قضاياه الخاصة تناول القلم في شهر مايو أيار من سنة 1590 وكتب إلى رئيس مجلس الهند ـ وهو المجلس القائم إذ ذاك بإدارة شؤون أميركا ـ العريضة التالية:

مولاي: يقول موقعه ميغيل دي سرفانتيس سافيدرا إنه خدم صاحب الجلالة في المعارك البرية والبحرية التي وقعت منذ اثنتين وعشرين سنة وبنوع خاص في المعركة البحرية ليبانطو حيث أصيب بعدة جراح وفقد يده بسبب طلق ناري، وفي السنة التالية شهد معركة نافارينو ثم معركتي تونس ولاغوليطا. ولما كان عائدًا إلى هذه العاصمة في المركب صول مرودا برسائل من مولاي ضون خوان والدوكي دي سيسا لينعم عليه صاحب الجلالة بما يستحقه وقع أسيرًا هو وأخ له خدم جلالته في المعارك نفسها ثم اقتيدا إلى الجزائر حيث أنفقا ما كان لهما من مال لافتداء أنفسهما من الأسر، وكذلك أنفقا كل ثروة والديهما ومهر اختيهما اللتين بقيتا فقيرتين لتفتديا أخويهما، وبعد افتكاكهما من الأسر خدما صاحب الجلالة في البرتغال وفي الجزر المثلثات مع الماركيس دي سانطا كروث، وما زالا الآن في خدمة جلالته الواحد في فلانديس برتبة ملازم أما الآخر ميغيل

دي سرفانتيس فهو الذي حمل الرسائل والتعليمات إلى حاكم مستغانم وذهب إلى وهران بأمر من صاحب الجلالة، وبعد ذلك أدى خدماته في إشبيلية في تموين الأسطول تحت أوامر أنطونيو دي غيبارة كما هو مذكور في الإفادات التي لديهما، وطول هذه المدة كلها لم ينعم عليه بأية وظيفة ولذا فإنّه يلتمس ويرجو بكل تواضع من جلالتكم أن تنعموا عليه بوظيفة في الهند أميركا من الثلاث أو الأربع الوظائف الشاغرة الآن وهي: محاسب مملكة غرناطة الجديدة أو حاكم سوكونوسكو في بلاد غواتيمالا أو محاسب المراكب الملكية في قرطاجنة أو صاحب المظالم في مدينة لاباث، فأية وظيفة منها أنعمت بها عليه جلالتكم قَبِلها؛ لأنه رجل حاذق وذو استحقاق كاف لتنعم عليه جلالتكم بوظيفة ولأن رغبته في البقاء أبدًا في خدمة جلالتكم وختم حياته كما ختمها سلفه من قبله، وفي إجابة طلبه يلقى خيرًا وافرًا.

***

قدم سرفانتيس العريضة وكله أمل بأن طلبه سيستجاب فيكون خاتمة أحزانه وفاتحة عهد السعادة والرخاء، وبينما كان ينتظر الجواب الذي لم يكن يتوهمه إلا محققًا لآماله شرع يتمم ما بقي له من معاملات ففي 31 من شهر يوليو تموز وقّع توكيلًا لكل من زوجته: ضونيا كاتالينا وأخته ضونيا ماغدلينا لتنوبا عنه في قبض ما يجب له سواء كان مالًا أم سلعة وللمرافعة في سائر فصول الخصام إن اقتضى الأمر.

وانقضى الصيف كلّه وتبعه الخريف وميغيل في انتظار الجواب على عريضته في إشبيلية وكاد يقبل الشتاء بزمهريره وحالته تنحط من سيِّئ إلى أسوأ، إلى أن عجز عن شراء كسوة شتوية يتقي بها البرد القارص فاضطر

إلى اللجوء إلى أصحابه وفي 8 نوفمبر تشرين الثاني اشترى خمسة أذرع ونصف من القماش الرديء من دكان ميغيل دي كافييديس وشركائه وأمضى بثمنها وقدره عشرة دكات سندًا ماليًا يستحق بعد مرور ثلاثة أشهر وكفله صديقه الفندقي طوماس غوتييريث. إلى هذه الدرجة من الفقر بلغت حالة كاتبنا في هذا العهد!

***

وبعد مدة بلغ ميغيل القرار الملكي في الجواب على عريضته وقد وقع على أسفلها أن يبحث عن وظيفة تسند إليه داخل البلاد الإسبانية.

وما إن بلغه الجواب حتى أظلمت الدنيا في وجهه من جديد وودع أمانيه المعسولة وآماله المذهبة ورأى نفسه في الهوة من جديد كأنه لم يكتب له سوى مرارة الخيبة وألم الشقاء.

عودته

إلى مفوضية التموين

في الأشهر الأولى من سنة 1591 قدم إشبيلية ضون بدزو دي إيسونتا وكانت تربطه بسرفانتيس صداقة قديمة ليشغل منصب إدارة التموين في إسبانيا الجنوبية بدل أنطونيو دي غيبارة الذي أُعفي من هذا المنصب. فكان وصوله بردًا وسلامًا على قلب ميغيل الذي رأى فيه باب أمل جديد فخف إليه مسلمًا مستعطفًا. فعرض عليه أنسونتا أن يعود إلى وظيفته كمفوض للتموين، ولم يجد ميغيل له بدًّا من القبول لاشتداد حاجته إلى مورد للرزق، فقبل على مضض وعاد إلى حياته السابقة، حياة التنقل بين المدن والقرى وجمع المؤونة والاصطدام بالمزارعين المعاندين.

وفي سنة 1592 أم إشبيلية مدير جوق تمثيلي شهير في مدريد اسمه رودريغو أوسوريو. وكان سرفانتيس يعرفه من عهده السابق أيام كانت تمثل مسرحياته في العاصمة، وليس من المستبعد أن يكون أسوريو نفسه قد مثل مسرحياته، فانشرح لهذه الملاقاة صدر كاتبنا وانتعشت نفسه وتنبهت أفكاره واستفاقت ميوله الأدبية من سباتها العميق وعادت إلى مخيلته ذكرى تلك الأيام البعيدة أيام كانت مسرحياته تمثّل في مسارح العاصمة وتقابل بالاستحسان الكبير والتصفيق الحاد. وكأن الذكرى جددت في

نفسه الرغبة التي كادت أن تكون ميتة. واسترجع الثقة بنفسه والإيمان بقيمته وعبقريته، فوقع مع رودريغو اسوريو عقدًا يتعهد بموجبه أن يقدم له ست روايات مقابل خمسين دكة عن كل واحدة يقدمها له عند طلبه، وتمثل ضمن العشرين يومًا التي تلي التسليم. ومن جملة ما جاء في العقد وهو دلالة على ثقة سرفانتيس بنفسه: وإذا ظهر بعد التمثيل أنها من أحسن المسرحيات التي مثلت في إسبانيا وجب عليه دفع الكمية المذكورة. وإذا ظهر أنها ليست من أحسنها كان في حلٍ من دفع أيّة كمية كانت.

سرفانتيس في السجن

لا ندري إن كان سرفانتيس قد وضع المسرحيات التي وعد بها أم لا، وعلى الأرجح أنه لم يضعها، وعلى كل حال من الثابت أن واحدة منها لم تمثل، وبدلًا مما كان يؤمله من مال ومجد؛ إذا به يُزج بغتة في السجن ليقاسي أشدّ الآلام وأشنع الولايات.

وخبر ذلك هو أن الاختلاس الفاحش الذي كان يرتكبه مفوضو التموين فيما يصل إلى أيديهم حدا بالحكومة بعد أن استنفدت الحيل عبثًا في تدارك الأمر إلى تعيين مفتشين على المفوضين، لكن الدواء جاء أقبح من الداء وما كان يفعله المفوضون صار يفعله المفتشون وعليه يزيدون، وهذا التدبير أوقع المفوضين في أحرج مأزق، فمن جهة معارضة الشعب وممانعته ومن جهة ثانية كيد الأعيان والكبار ومن جهة ثالثة كيد المفتشين الذين كانوا معظمهم يعملون لحسابهم الخاص أكثر مما يعملون لصالح الدولة.

ونكب سرفانتيس بمفتش من بلدة استجة اسمه فرنسيسكو موسكوسو، فكان هذا يضمر لمفوضنا المسكين حقدًا كبيرًا لعلّه يعود إلى العهد الذي كان فيه سرفانتيس يجمع المؤونة من تلك البلدة. فما إن كادت تبلغه وشاية بأن سرفانتيس أخرج ثلاثمائة فنيقة من القمح من هري استجة حتى وجه أمرًا دون سابق تحقيق في صحة الوشاية إلى بلدة كاسطرو دل ريو حيث

كان سرفانتيس يقوم بمهام وظيفته ليلقي عليه القبض فحاول أن يثبت براءته لكن محاولته ذهبت أدراج الرياح وعلى مرأى ومسمع من الجميع اقتيد إلى سجن البلدة وزجّ فيه.

وقد عمل السجن في نفسه ما لم تعمله النكبات ولا الأخطار ولا سنوات الأسر الخمس مع ما رافقهما من الأهوال؛ لأنّه رأى في حبسه على هذا الشكل تعديًا وظلمًا وتشفيًا، وأدرك هنا مدى الشرّ الإنساني ومدى ما يفعله الحقد في النفوس وإلى أيّ حدّ من الظلم والشر يدفعها، ولم ينهه عن الابتعاد عن جادة الخير سوى طيب نفسه ونبلها هذا النبل الذي لم يفارقه قط في أيام الشدة والشقاء.

فما خرج من السجن حتى وجد رئيسه وصديقه اسنوثا في ضيق بسبب وشاية رفعت به يزعم فيها أن معاون سرفانتيس واسمه نقولا بنيطو استولى على كمية كبيرة من الشعير الذي للجيش الملكي وأنه وإن كانت الوشاية موجهة ضد المفوضين فقد ترك هؤلاء جانبًا ووجهت الهجمات ضد رئيسهم اسنوثا بقصد إيقاعه في المصيدة ومحاكمته مع تعريض شخصه لخطر السجن وأملاكه لخطر الحجز، وعلم ميغيل بالوشاية فلم يتردد في التصدي للدفاع عن رئيسه وصديقه ووجه رسالة إلى الملك يلقي على عاتقه كل تبعة في هذه القضية مؤكدًا براءة اسنوثا التامة ومتعهدًا بتقديم ضمانة عن كل ما وجهت به التهمة وطالبًا ألا يزعج اسنوثا أدنى إزعاج بسبب هذا لا في شخصه ولا في ماله.

لكن مجلس المحاسبات لم يعر رسالته كبير اهتمام وظلت القضية قائمة، وما حلها سوى وفاة اسنوثا التي حدثت بعد ذلك بقليل، وما حلها

سوى وفاة اسنوثا التي حدثت بعد ذلك بقليل، فخلصته من المحاكمة وما قد يعقبها من حجز وسجن.

***

خلف اسنوثا في رئاسة إدارة المؤونة في إشبيلية المحاسب ميغيل دي اوبييدو ورغم الحادثة الأخيرة ظلّ سرفانتيس في وظيفة، وعهد إليه هذه المرة جباية المؤونة من القسم الغربي من إسبانيا الجنوبية، فطاف عددًا كبيرًا من المدن والقرى، وجمع المؤونة على حسب عادته، لكنه أصبح أقل نشاطًا وأقل مرحًا، وأصبحت نفسه التعبة تتوق إلى الراحة والهدوء.

وفي هذه المدة بينما كان يجتاز تلك المرحلة المؤلمة من حياته كانت والدته العجوز ضونيا ليونور دي كورتيناس تلفظ النفس الأخير في دار حقيرة من شارع ليغانيطوس في مدريد ولم يكن حولها ليغمض جفنيها سوى ابنتيها أندريا وماغدلينا، أما ابناها ميغيل ورودريغو فلم تنعم بمشاهدتهما قبل أن تسلم الروح، وكان ذلك في أوائل نوفمبر تشرين الثاني من سنة 1593.

وفي ربيع السنة التالية انتقل ميغيل إلى مدريد لتصفية بعض القضايا مع إدارة المالية. وفي هذه الرحلة اغتنم الفرصة لتصفية بعض قضاياه الخاصة ومن جملتها تدبير أمر ابنته غير الشرعية إيزابل دي سابيدرا التي كانت مسجلة رسميًا كابنة ألونصو رودريغث وآنا فرانكا فدبر ميغيل الأمر بحيث لا تبقى الفتاة مهملة وبعد ذلك بسنوات في 11 أغسطس آب من سنة 1599 تعهدت أخته ضونيا ماغدلينا بعقد كتابي بأن تتخذها لخدمتها وتتكفل بتربيتها. والقصد من هذه الصورة إخفاء الحقيقة عن زوجة سرفانتيس.

وبعدما صفى ميغيل كل القضايا وأعدّ العدة للرجوع إلى إشبيلية إذا به يفاجأ بنبأ إلغاء مفوضيات المؤونة وإعادة تنظيم تموين الأسطول على أسس جديدة فانقض النبأ عليه كالصاعقة ورأى نفسه من جديد دون مورد رزق يرده، فما كان منه إلا أن استأنف الالتماس والإلحاح حتى حصل أخيرًا على وظيفة جديدة بواسطة رجل اسمه أغوسطين دي سيتينا كان من ذي قبل محاسبًا في إشبيلية وهنالك تعرف به سرفانتيس وكانت الوظيفة الجديدة جباية القبالات المتأخرة في مملكة غرناطة، وكان لا بُدّ قبل استلامها من تقديم ضمانة مالية، فكيف العمل وميغيل لا يملك شروى نقير، ويعزّ عليه أن يتذلل لامرأته لتضمنه، وأخيرًا وجد ضامنًا في شخص رجل اسمه فرنسيسكو سواريث دي طارانكون لكن الضمانة التي قدمها هذا لم تكن كافية، وفي آخر الأمر لم يرَ ميغيل بدًا من اللجوء إلى زوجته فأقنعها لتساعده على أمنيته وفي 21 أغسطس آب من سنة 1594 وقعت أمام الكاتب العدل خيرونيمو فليكس تعهدًا بالضمانة المطلوبة، وبعد يومين صدر المرسوم الملكي بتعيينه في الوظيفة فودع زوجته وأختيه وخرج في مغامرته الجديدة.

وكانت الوظيفة صعبة التنفيذ أكثر خطرًا وتعقدًا من الوظيفة السابقة، ففي أوائل شهر سبتمبر أيلول بلغ مدينة وادي آش وفيها باشر القيام بمهام وظيفته، لكنّه سرعان ما وجد أن القسم الأكبر مما عهد إليه جبايته قد جبي سابقًا واتفق بين رواتب الجباة والكتاب والمحاسبين ونفقات تنقلاتهم والقسم الآخر جبي أيضا لكنه موقوف على تصفية الحساب، فلم يجب سوى قدر ضئيل، ومن ثمّ انتقل إلى بلدة باصا واصطدم فيها بعقبات جديدة أجبرته أن يطيل إقامته فيها أكثر مما كان يؤمل. ولهذا لما بلغ بلج -

مالقة كان الأجل الذي عُين له قد انصرم فكتب إلى مدريد يلتمس إطالته عشرين يومًا، واستجيب التماسه فانتقل إلى مالقة، ومنها إلى رندة في 9 ديسمبر كانون الأول ومن ثمَّ واصل السير إلى مطريل فسالوبرينيا، وعبر الجبال في قلب الشتاء حاملًا ما أمكنه أن يحصله ودخل إشبيلية مغمومًا مقهورًا تقض عليه مضجعه تلك الحسابات التي لا يعرف أولها من آخرها.

دخل إشبيلية ثم توجه إلى مصرف سيمون فرايري ودفع إليه قسمًا من المال الذي بيده وسلمه مقابله حوالة على عميله في مدريد كي لا يقوم بالرحلة من إشبيلية إلى مدريد حاملًا المال كله، لكن حظه العاثر أبى إلا أن يمنى بنكبة جديدة، وذلك أنه قبل أن يبلغ مدريد جاءه الخبر بإفلاس مصرف سيمون فرايري، فعاد على أعقابه إلى إشبيلية مسرعًا وحين وصلها وجد أن صاحب المصرف قد فرّ من إسبانيا بينما كان الحجز جاريًا على ما خلفه وراءه من أملاك، وبعد أيام قليلة تلقى ميغيل من مجلس المحاسبة رسالة تهديدية فيما إذا لم يوفق إلى استرجاع الكمية التي سلمها إلى المصرف، فعظم همه وزاد غمه والتجأ إلى ذوي النفوذ وجادل وتضرع وبعد اللتيا واللتي أمكنه أن يسترجع الكمية كلها ويبعد عن نفسه شبح السجن المصلت سيفه فوق رأسه.

***

لم يرجع سرفانتيس إلى مدريد للمثول أمام مجلس المحاسبة، بل فضل البقاء في إشبيلية ولم تعد نفسه ترغب في الوظائف، وانقضت سنوات عديدة لا نعلم عن حياته شيئًا البتة وأول خبر عنه يعود إلى اشتراكه بعد ذلك بمدة طويلة بمباراة شعرية أقيمت في سرقسطة بمناسبة تطويب سان خاسنطو قديسا، ونيله الجائزة الأولى فيها.

في إشبيلية

بقي سرفانتيس في إشبيلية ولا شاغل يستغرق وقته ومجهوده، فانصرف إلى التفكير والتأمل، وأخذ يستعيد في ليالي إشبيلية الهادئة ذكريات الماضي وأحلامه الخائبة وآماله الضائعة ويقابل بين ما كان يؤمله وما صار إليه فبدأت تتجسم في دماغه فكرة ساورته منذ بعيد فكرة تصوير القلب النبيل ساعيًا وراء المثل الأعلى فيصطدم في كل خطوة بعقبة أقامتها النفوس الشريرة، ولما نضجت هذه الفكرة في دماغه شرع يوضع مؤلفه الخالد ضون كيخوطي.

لكن الحياة حوله ظلت جارية في مجاريها العادية ضاربة بأحلامه عرض الحائط، ومن جملة حوادث هذه الحياة قضية القبالات التي لما تكن قد انتهت أضف إلى ذلك أن حساباته منذ أن كان مفوضًا للتموين لم تصف بعد، فكل هذا كان بمثابة خطر دائم يهدده، وما لبث مجلس المحاسبات أن أبلغ ممثله في إشبيلية أن يطلب من سرفانتيس تقديم ضمانة عن الكميات التي ما زالت في ذمته من القبالات وأن يستدعيه إلى العاصمة لتقديم الحساب بلا تأخير وإلا فليقبض عليه ويقده معتقلًا إلى مدريد، فاكتفى ممثل المجلس بحبسه في سجن إشبيلية، ومنه أرسل ميغيل طلبًا إلى مجلس المحاسبات يلتمس إطلاق سراحه نظرًا لقلة الكمية الباقية في ذمته ولاستحالة ترتيبه أوراقه ما دام في السجن، فاستجيب طلبه وأطلق سراحه بعد أن قضى سجينًا ثلاثة أشهر.

وفي السجن تعرف على الكاتب الشهير ماتيو اليمان مؤلف قصة قزمان بن الفرج من أمهات قصص الشطار الذي قضى في ذلك السجن وللسبب نفسه سنوات عديدة وتعرف أيضا على كتير من مشاهدة الحياة وأسرارها

باختلاطه بذلك العدد الكبير من المساجين الذي كان يتجاوز الألفين من مختلف الطبقات الاجتماعية.

خرج من السجن وعاد إلى حياة الشقاء والبؤس، وتنقضي السنون دون أن نعرف عنه شيئًا البتة، وجل ما نعلمه هو أنه في سنة 1597 نظم موشحًا في رثاء الشاعر هيريرا الذي كان موضع إعجاب سرفانتيس في أيام الصبا وفي سنة 1598 حين حلّ فصل الخريف وأقبل البرد اضطر إلى شراء كسوة شتوية، وكان شراؤها هذه المرة بالدين أيضًا، وكفله المأذون فرنسيسكو دي آغيلا، ويعرف أنه بعد ذلك بقليل أي في نوفمبر تشرين الثاني اشترى قنطارين من البسكويت العادي بست دكات وكان الشراء بالدين أيضا وكفله رجل يدعى خيرونيمو دي بينيغاس ويستنتج المؤرخون من سند هذا الدين الذي ما زال محفوظًا أن سرفانتيس كان يقوم خلال هذه المدة بعمليات تجارية يعيش من كسبها ومن جملتها بيع المؤونة للمراكب يساعده على ذلك ما أوجده لنفسه من علاقات أيام كان مفوضًا للتموين.

على أن المهم من هذه الحقبة كلها هو أنه خلالها وضع القسم الأول من مؤلفه الخالد ضون كيخوطي وسجل على صفحاته خلاصة ما قاساه وتعلمه من أسرار الحياة في هذه المدة وما قبلها.

***

في 12 سبتمبر أيلول من سنة 1598 فارق الحياة الملك فيليب الثاني فعمّت إسبانيا من أقصاها إلى أقصاها موجة من الحزن عميقة وأقيمت في البلاد بأسرها الجنائز والصلوات، وشاركت إشبيلية مشاركة فخمة بهذه الاحتفالات، وبمناسبتها وضع سرفانتيس موشحًا أبّن فيه الملك الراحل.

وما كادت تنتهي هذه الاحتفالات حتى قدم إشبيلية الشاعر الكبير لوبي دي بيغا الذي كان إذ ذاك في أوج الانتصار وقد قارب الأربعين من سنه، ولم يعرف منذ العشرين سوى الانتقال من نصر إلى نصر وأينما حلّ انفتحت أمامه أبواب المسارح وقوبلت رواياته بالإعجاب، وكانت العداوة بينه وبين سرفانتيس قد بلغت إذ ذاك أشدها، ولا سبب لها على الغال ـ والحق يقال ـ إلا هذا الحسد الخفي الذي كان يشعر به سرفانتيس حين يرى زميله مطوقًا بأساور النعمة متقلبًا في أحضان النعيم بينما حياته هو تنصرم في بؤرة من الشقاء والتعاسة مع علمه بكفاءته ونبوغه.

قلنا إن لوبي قدم إشبيلية فقوبل بما عهد أن يقابل به من الحماس في الأوساط المسرحية والأدبية، لكن زمرة الخائبين ومن جملتهم سرفانتيس، هؤلاء الذين لم يجدوا في الحياة سواء منها المادية أو الأدبية غير الخيبة والفشل تألبوا عليه ورشقوه بنبال أهاجيهم وكان سرفانتيس في الطليعة، فنظم بحقه قصيدة لاذعة الهجاء.

لكن ميغيل حين ابتسم له الحظ فيما بعد عرف أن يتجرد من حسده ويرجع على أعقابه فيقدر لوبي حق قدره وينوه بنبوغه وشاعريته.

أسطورة أرغاماسيا

قلنا سابقًا إنّ هذه الفترة من حياة سرفانتيس محاطة بالغموض، فلذا حامت حولها الأقاويل والافتراضات ومن جملتها ما سماه المؤرخون بأسطورة أرغاماسيا وأرغاماسيا هذه بلدة تقع في مقاطعة سيوداد ريال.

ومفاد الأسطورة أنه أسندت إلى سرفانتيس مهمة تحصيل العشور التي كانت مترتبة على سكان البلدة نحو رئاسة دير سان خوان؛ لكنهم ثاروا

بكاتبنا واعتقلوه وسجنوه، وتقول رواية أخرى أنّ سبب سجنه في هذه البلدة هو أنّه عهد إليه القيام بمهمة تتعلق بمعمل البارود الذي كان فيها، فاضطر لتسيير المعمل إلى الانتفاع من مياه وادي يانة مما أضر بالسكان الذين كانوا يستغلونها للري، وتقول رواية ثالثة أنه حبس في الطوبوسو بسبب تعريضه بإحدى نساء تلك البلدة.

هذا وإنّ المؤرخين العصريين قد نفوا صحة هذه الروايات لعدم استنادها على أساس صحيح، لكنه منذ مئة عام كان سكان أرغاماسيا يروون حديثًا بلغهم بالتواتر يؤكد فيه أن سرفانتيس سجن في تلك البلدة ويذكر ذلك الحديث مطلع رسالة يقال أن سرفانتيس وجهها من سجنه مستغيثًا إلى رجل من بلدة قصر سان خوان يدعى خوان برنابي سابيدرا لعله كان من أقاربه، وتقول الأسطورة أنه أشار إلى سجنه في أرغاماسيا حين قال في مقدمة كتابه أنه وضعه في السجن، وسواء صحت هذه الأسطورة أم لم تصح فالثابت ـ حسب قول أحد المؤرخين المعاصرين ـ هو أنه حين عاد هذه المرة إلى مدريد كان يحمل معه مخطوطة الكتاب.

* * *

ولا بُدّ لنا قبل أن ننتقل إلى هذه المرحلة الجديدة من حياة كاتبنا العظيم أن نتوقف هنيهة لنشير إلى براءة ساحته رغم سجنه مرارًا بسبب حساباته مع إدارة المالية فإنّ دخوله السجن إنّما كان من قبيل ما نسميه اليوم بالسجن الاحتياطي دون أن يكون على المسجون أيّ دليل يُثبت أنّه مذنب، وأن ما هي إلا من جملة المعاملات الإدارية المألوفة في ذلك العهد، فكل موظف يتأخر في تأدية الحساب كأن يصدر بحقه أمر بالسجن الاحتياطي ولا عجب أن يتأخر الموظفون عن تأدية الحسابات خصوصًا متى كانت

من نوع المعهود بها إلى سرفانتيس كثيرة التعقد، ولو لم يكن سرفانتيس بريء الساحة من كل تهمة لما عُين بعد خروجه من السجن بقليل لجباية القبالات الملكية من مملكة غرناطة، ويؤيد براءته كلامه في معرض كتاباته عن سجنه دون استحياء ولا خجل: فلو لم يكن بريئًا لما أمكنه وهو الأنوف العزيز النفس أن يشير إلى سجنه دون أن يورد لنفسه الأعذار الكثيرة.

الفصل الرابع

سرفانتيس في بلد الوليد

بعد أن تُوفي فيليب الثاني خلفه ابنه فيليب الثالث وكان ضعيف الإرادة قليل العزم؛ فسلم شؤون الملك إلى ضون فرنسيسكو غوميث دي ساندوبال المعروف بـ الدوكي دي ليرما، وكان هذا همّه الأكبر: استثمار منصبه الرفيع وإسناد المناصب العالية إلى أقاربه، وما بقي منها إسناده إلى من يحسن الرشوة، فنقل البلاط الملكي إلى مدينة بلد الوليد مقابل كمية كبير من المال تلقّاها من سكانها حسبما يُقال، كما أنّه فيما بعد تناول من سكان مدريد كمية أخرى أكبر منها لإرجاع البلاط إليها، وهذه الكلمة الموجزة كافية للدلالة على الفساد الأخلاقي الذي كان مسيطرًا في ذلك العهد على الدوائر الحكومية، ومن جرّاء هذا عم الفساد المجتمع بأسره وأخذت إسبانيا تتدحرج بسرعة نحو هاوية الخراب.

على هذه الحالة كانت بلد الوليد سنة 1603 خين قدمها سرفانتيس لكنه قبل ذلك بـ مدريد وكانت قد سبقته إليها شهرة كتابه الذي كانت بعض مقاطعه قد صارت تتداولها الأيدي وترددها الألسن في النوادي الأدبية وفي الفنادق وبين مختلف الطبقات، فما إن بلغ مدريد حتى تقابل مع الطباع فرانسيسكو دي روبنس ـ نجل الطباع الذي نشر له قصة لاغالاطيا

منذ عشرين سنة ـ واتّفق معه على طبع الكتاب ولا شك أنه أسلفه قسمًا مما تم الاتفاق عليه لكي يقدر على المثول أمام أهله بمظهر لائق.

وزار أخته ماغدلينا التي كانت تسكن الآن وحدها بمعية ابنته إيزابيل بصفة خادم كما قلنا سابقًا لتتمكن من تربيتها دون أن تثير شبهة في نفس زوجه ضونيا كاطالينا. وكانت العائلة قد فجعت منذ سنتين بوفاة شقيقها رودريغو في فلانديس في وقعة لاس دوناس، وأبلغ ميغيل شقيقته رغبته في أن تجتمع العائلة ويواجهون ما بقي من العمر منضمين تحت سقف واحد؛ لأنّ الشيخوخة قد بدأت تهدد وحدته وصار يشعر بالحاجة إلى العيش بين أهله. فهللت شقيقته للفكرة ورحبت بها.

ومن ثمّ انتقل إلى اسكيفيا حيث كانت زوجته التي لم يرها منذ سنوات ولعلها بدأت بدورها تشعر بعبء الوحدة في دار واسعة لا رفيق لها سوى أمها العجوز فانتعشت في نفسها جدوة الحب والشوق التي لم تنطفئ قط نحو هذا الرجل الذي تزوجت به عن حب وإخلاص بالرغم عن معارضة أهلها ومانعتهم. فما كان منها إلا أن لانت أمام وعود ميغيل واقتنعت بمغادرة اسكيفيا ومرافقته إلى بلد الوليد لتعيش معه ومع أختيه وابنته التي أصبح أمرها معروفًا لديها، وبلغ بها الحب والتضحية أن رضيت بتبني الفتاة ومعاملتها كما لو كانت ثمرة أحشائها.

وانتقل إلى بلد الوليد مصحوبًا بزوجته وأخته وابنته فاستقبلته شقيقته أندريا مفتوحة الذراعين. وكانت قد قدمت هذه المدينة مع ابنتها منذ مدة وفيها كانتا تعيشان من احتراف الخياطة لدور بعض الكبراء. وكانت أندريا تُكنُّ نحو أخيها عطفًا كبيرًا فرحّبت أيضًا أيّما ترحيب بفكرة العيش تحت سقفٍ واحدٍ، واستقرّ بهم المقام في دار جديدة البنيان مقسومة إلى طابقين

في الحيّ المسمى بالمجزر بالقرب من قنطرة فوق نهر اسكيفا على مقربة من باب البر.

بعد أن صفى سرفانتيس حساباته المتعلقة بالوظيفتين اللتين شغلهما سابقًا جعل يسعى من جديد للحصول على وظيفة إدارية هادئة تضمن له العيش في شيخوخته؛ لأنّ الأرباح التي درّها عليه مؤلفه الكيخوطي وإن كانت لا يُستهان بها لو قُوبلت بأرباح المؤلفين في ذلك العهد فإنّها لم تكن بكافية لإعالته هو وعائلته العديدة الآن ولرفع معيشتهم إلى ذلك المستوى الذي كانت تتوق إليه نفسه، فاستأنف ذلك العهد المطوي منذ نحو عشرين سنة أيام عاد من البرتغال إلى مدريد وكان يهبط درجًا ليصعد آخر ويغادر غرفة انتظار ليدخل أخرى متقربًا إلى الكبراء ملحًا في الالتماس وبعد أن أمضى شهرين في الانتظار ـ حسبما يروي المؤرخون ـ حظي بمقابلة الدوكي دي ليرما، لكن الدوكي ـ حسبما يقال أيضا ـ استقبله بازدراء ولم يعر مطالبه أدنى اهتمام فخرج من هذه المقابلة بخفي حنين وعاد إلى الاشتغال بالأدب والتجارة كعميل ولذا قيل عن حياته في بلد الوليد أنه كان يكتب ويتعاطى التجارة ولا عجب وقد سُدت أمامه أبواب الرزق وعلى عاتقه عبء عائلة كبيرة.

في طليطلة

في شهر يوليو تموز من سنة 1504 تُوفيت في بلدة اسكيفيا حماة سرفانتيس، فقدمها بمعية زوجته ضونيا كاطالينا، وصادق على قسمة تركة الفقيدة بين وارثيها ضونيا كاطالينا وأخيها فرنسيسكو دي بالاسيوس.

وفي شهر أغسطس آب من السنة نفسها انتقل مصحوبًا بنسيبه هذا لبيع

بعض العقارات، وفي هذه الرحلة والرحلات التي تلتها إلى تلك المدينة التقى سرفانتيس دون شكّ بالشاعر لوبي دي بيغا.

وكانت العداوة القديمة بين الأديبين قد خمدت نارها وتلتها فترة تقارب في علاقاتهما يشهد عليها ما جاء في مقدمة رواياته دراغونيطا التي طُبعت سنة 1602 في مدريد من أبيات تقريظية للمؤلف وضعها سرفانتيس، لكن هذه الفترة لم تطل وإذا بهما في سنة 1605 قد عادا إلى العداوة السابقة التي بلغت هذه المرة من الحدة ما لم تبلغه من ذي قبل. وقد أفرغ لوبي جعبة حقده في رسالة وجهها تلك السنة إلى صديق له في بلد الوليد وقد جاء فيها: أمّا عن الشعراء فحدّث ولا حرج! وناهيك عمّن في هذا الجيل! فكثيرون منهم ستنفتح أكمامهم في العام المقبل لكن ليس بينهم من يسفل إلى درجة سرفانتيس ولا من تبلغ به البلاهة إلى تقريظ ضون كيخوطي، وليس من الصعب أن تشتمّ من هذه الجملة الأخيرة رائحة الحسد. فإن لوبي الذي كان ينظر خلال عشرين سنة من علٍ إلى سرفانتيس لا بُدّ أن يكون قد أحسَّ بطعنة في كبريائه حين رأى شهرة ضون كيخوطي قد ضربت في الآفاق والمؤلف لم يكمل طبعه.

***

عاد سرفانتيس إلى بلد الوليد بعد أن أنهى القضايا التي قادته إلى طليطلة، وعاد إلى تلك الحياة الهادئة بين ذويه وأصحابه وكان في السنتين اللتين مرّتا على حلوله في هذه المدينة قد توطدت أواصر الصداقة بينه وبين جملة أشخاص نخص بالذكر منهم ضون بدرو دي طوليدو مولى قرية هيغارس الذي تعرف به ميغيل في إشبيلية والتاجر الجنوي أغسطين راخيو والبرتغالي سيمون منديس جابي «أعشار البحر في مملكة قشتالة» وكانت

له أيضا صلة بـالكوندي دي سالدانيا ابن الدوكي دي ليما وبالكوندي دي ليمونس وضون خوان دي اوربينا كاتب الدوكي دي سابويا، وكان الثلاثة الأولون كثيرًا ما يترددون إلى داره فيتسامرون ويدور الحديث حول شؤون شتى من تجارة وسياسة وأدب، ويتخلل السمر قراءة ميغيل بعض المقاطع من كتابه الخالد الذي كان تحت الطبع.

وكلّما تقدم الطبع ازداد كاتبنا فرحًا واطمئنانًا وثقة بنفسه وتحسنت حالة العائلة ماديًا ومعنويًا فأمكنهم أن يتّخذوا خادمًا للقيام بشؤون البيت وأخذ الجميع ينظرون بشيء من التفاؤل إلى المستقبل ومن التقدير والإعجاب إلى ميغيل.

ظهور الكيخوطي

في 26 سبتمبر أيلول من سنة 1604 صدر الإذن الملكي بنشر الكتاب لكنه لم يصدر إلا في أوائل سنة 1605 لما استغرقته من وقت معاملات التصحيح والتسعير، فقوبل برواج لم يُعرف له سابق نظير، وانتشرت نسخة في كلّ مكان وبين جميع الطبقات، والكلّ بين معجب ومكبر، وقد فاق الرواج الذي صادفه كل ما كان يصبو إليه سرفانتيس أو يحلم به من فوز، وتكررت الطبعات في مدة قصيرة، وفي 11 أبريل نيسان من السنة نفسها وسع سرفانتيس التفويض الممنوح للطباع فرنسيسكو دي روبلس فجعله شاملًا لـ لبرتغال، وأراغون، وبلنسية، وقطلونيا، وفي اليوم التالي في 12 نيسان أمضى له توكيلًا يفوضه به لملاحقة الطبعات السرية.

وأمام هذا النجاح الذي فاق كل حسبان والشهرة التي تعدت كل حدود وامتدت إلى سائر الأنحاء شعر كاتبنا باستقرار داخلي وطمأنينة باطنية

جاءت الآن في الشيخوخة لتعوض عما أفلت من يديه من أكاليل المجد التي كان يؤمل أن تزين جبينه في ريعان الصبا ونشوة الفتوة.

دعوى إسبيليطا

في ليلة 27 يونيو حزيران من سنة 1605 حوالي الساعة الحادية عشرة بينما كان سرفانتيس قد آوى إلى الفراش وزوجته وابنته وأختاه وابنة أخته قد ذهبن إلى الكنيسة إذا بتأوهات تمزق سكون ذلك الليل وصوت ضعيف متقطع يستنجد ويستغيث لكن الاستغاثة كادت تذهب أدراج الرياح في ذلك الليل البهيم، وسرعان ما خف من بلغت آذانهم إلى إغلاق نوافذ بيوتهم يسترقون الخبر دون أن يجرأ واحد منهم على مد يد الإغاثة للمستغيث لأنه طالما انقلبت الإعانة ويلا على المعين بسبب تصرفات العدالة في ذلك العهد.

لكن واحدًا من الناس في ذلك الجو الموبوء ما زال نبيل النفس عالي الهمة لا يبالي بالخطر إذا كان لا بد منه لمساعدة الغير. واحدًا لم يحجم في عهد الصبا ـ منذ ثلاثين سنة ـ عن المثول مرارًا بين يدي أمير ظالم حقود مستبد وإلقاء المسؤولية كلها على عاتقه ونفيها عن أصحابه ليبعد عنهم كل شر أو أذى. وها هو ذا الآن وقد قارب الستين يكرر تلك البادرة النبيلة التي جرّت عليه بين بني قومه من الويلات ما لم يجره عليه في الأسر بين الأعداء.

أجل! سمع سرفانتيس نداء المستغيث فهب من فراشه وهبط إلى الشارع مصحوبًا بفتى في الخامسة عشرة من عمره كان يسكن مع أمه في نفس البناية في البيت الواقع إزاء بيت كاتبنا. وما إن بلغا الباب حتى وجدا

رجلًا جريحًا يقارب الثلاثين من عمره يتقدم مترنحًا والدم يقطر غزيرًا من جراحه وما زال السيف بيده اليمنى والترس بيده اليسرى. فحملاه إلى دار ضونيا لويسا مونطويا أم الفتى الذي رافق سرفانتيس. وهنالك هيأوا له فراشًا على الأرض، واستدعوا جرّاحًا لمعالجته. فجاء الجراح ووجد فيه جرحين بليغين وشرع بتضميدها. ولكن ما عتم أن أقبل مأمورو العدالة وعلى رأسهم قاضي التحقيق كريسطوبال دي ببارويل وشرع بالتحقيق.

***

كان الجريح شابًا من نافارة اسمه غاسبار دي اسبيليطا يعيش في بلد الوليد تحت كنف الماركيس دي فالسيص رئيس رماة الملك، وكان اسبيليطا لا شغل له سوى مسامرة الماركيس والانصراف إلى حياة اللهو والمرح، فعلى مائدة الماركيس كان يتناول الغداء والعشاء ويقيم في غرفة في أحد المثاوي وإن كان لا يأوي إليها ليلًا إلا في القليل النادر حسبما شهدت بذلك فيما بعد ربّة الفندق، ويُستفاد من التحقيقات التي أجريت أنه كانت له علاقات غرامية بزوجة كاتب يسمى غاليان، ويظهر أن هذا اطلع على أمر تلك العلاقات فأضمر في نفسه الانتقام من اسبيليطا وفي ليلة 27 يونيو حزيران كمن له مقنعًا عند القنطرة القريبة من دار سرفانتيس لعلمه أنه سيمر بها، ولما بلغها اسبيليطا تصدى له وكلاهما بسلاحه وأسفرت المبارزة عن إصابة اسبليطا بجراح خطيرة فتحامل على نفسه وتابع سيره مستغيثًا ولا مغيث حتى قارب دار كاتبنا وطرقت أذنه استغاثته فهبط لإعانته على الوجه الذي ذكرناه سابقًا.

وقد أدلى عدد وافر من الشهود بإفادات تؤدي كلها إلى إيضاح القضية على الوجه المبين، ومن جملتهم ربة الفندق الذي كان يعيش فيه اسبيليطا

وفتاة التقت به قبيل اصطدامه بخصمه والتقت بهذا أيضا وهو مقنع وشهادة زوجة الكاتب غابيلان ـ التي احتفظ القاضي بمضمنها ـ وإقرار اسبيليطا نفسه الذي اعترف مرارًا أن خصمه لم يغدر به وإنما تبارزا مبارز الفرسان ولا داعي إلى التحقيق، وبالرغم عن وضوح القضية ساءت إرادة قاضي التحقيق الملتوية، لأمر في نفسه، سلك سبيل آخر والأعضاء عن الحقيقة والتمسك بحجج أوهى من خيط العنكبوت وإلقاء التبعة على سرفانتيس وعائلته.

وبعد يومين توفي اسبيليطا رغم ما أحيط به من عناية. وواصل القاضي تحقيقاته الملتوية إلى أن انتهى به الأمر إلى إصدار أمر بسجن سرفانتيس وزوجته وأختيه وابنته بتهمة مقتل اسبيليطا بعد أن حاكت مخيلته الخصبة حكاية مفادها أن قاتل اسبيليطا هو سرفانتيس وعزًا السبب إلى علاقات غرامية بين القتيل وابنة الكاتب، وهكذا أسفر البهتان في يد قاض لا يعرف للعدل وجهًا ولا للضمير صورة عن زج سرفانتيس وهو يقارب الستين مع كل أفراد عائلته في السجن الملكي حزاء له على مده يد الإعانة إلى جريح يستغيث في ظلام ليل معتم.

لم يطل سجن سرفانتيس هذه المرة؛ لكن الصدمة كانت عنيفة وأنه وإن كانت نفسه قد ألفت مرارة الجور وتعنت الزمان لم يكن لهذه المأساة الجديدة بد من أن تفتح في قلبه من جديد ذلك الجرح الذي كان قد أوشك أن يلتئم منذ قليل عند ظهور الكيخوطي. وأكثر ما زاده غُصة هذه المرة شمل عائلته كلها بالنكبة. ولم يكن من السهل عليه أن يُراهن جميعًا يتحملن ألم السجن بسبب بادرة نبل استفزه إلى الإتيان بها قلبه الكريم.

***

في هذه السنة عاد البلاط الملكي إلى مدريد، وفي خريف السنة نفسها انتقل إليها سرفانتيس بعائلته، ففي مدريد له أصحاب أقدمون وله علاقات بنوادي الأدب. وأمل بالحصول يومًا على وظيفة ما، هذه الوظيفة التي مرّ عليه ربع قرن وهو يسعى وراءها دون أن يدركها، وكانت هذه سفرته الأخيرة، ولن يغادر مدريد بعد اليوم إلا ليلاقي ربه.

سرفانتيس

يستقرّ في مدريد

عاد سرفانتيس بعائلته إلى مدريد ونزل في دار واقعة في شارع لاماغدالينا وراء قصر باسرانا وبالقرب من هذه الدار كانت تقع مطبعة كوسطا حيث يطبع طبعة جديدة من كتابه وبالقرب منها أيضًا يقع دير رهبان النعمة ودير الرهبان المثلثين. وفي الأول ترقد رفات والده وله في الثاني ذكريات حيّة تعود إلى عهد أسره في الجزائر؛ لأن افتداءه كان على يدهم كما قدمنا.

وها هي ذا حياته الآن في مدريد تنسال بهدوء وطمأنينة فطبعات كتابه قد تكررت حتى بلغت السبع ومدخوله وإن لم يصبح أهلًا لإحلاله بين الأغنياء فهو كاف ليبعد عن العائلة شبح البؤس وليوفر لها عيشة متوسطة وفي مدريد وصل سرفانتيس ما كان قد تصرم من الروابط بحلقات الأدب وأحيا الصداقات القديمة فضلًا عن الجديدة التي اكتسبها.

وبعد وصوله إلى مدريد بقليل زفت ابنته إيزابيل إلى ضون دييغو سانس دل آغيلا. وكان هذا من عائلة نبيلة ذا ثروة لا بأس بها، وأقام الزوجان في دار قريبة من شارع البساتين كان لـ ضون دييغو بعض الحقوق عليها، وفي أوائل سنة 1608 رزقا طفلة سميت باسم والدتها إيزابيل. لكن الحظ لم ينسأ إلا أن يعكر صفو هذا الاستقرار فما كادت تنقضي مدة قصيرة

على ولادة الفتاة حتى كان والدها ضون دييغو يفارق الحياة تاركًا ثروته بين يدي أرملته إيزابيل، وما إن ووري جثمانه حتى أطلّ شخص جديد بسعي وراء يدها، اسمه لويس مولينا وكان هذا لم يزل في شرخ الشباب مضطرب الحياة منصرفًا إلى التجارة فضلًا عن شغله أمانة سرّ المثربين الإيطاليين: كرلوس وأنطونيو طراطا صاحبي المصرف الشهير الذي كان يحمل اسمهما. وقد كان زار إيطاليا وأسر وهو عائد إلى إسبانيا وسيق إلى الجزائر حيث لا بد أن يكون قد سمع بالمآثر التي قام بها سرفانتيس ولم يزل ذكرها مترددًا على ألسنة الأسارى. وبعد افتدائه من الأسر حلّ ببلد الوليد وتعرف سرفانتيس وتوطدت بينهما عُرى الصداقة وشعر كاتبنا نحوه بعطف كبير وعامله معاملة أبوية.

لكن مولينا لم يُقابل الكاتب بنفس ما عامله به من إخلاص وصدق وولاء. وإنما رأى الآن بعد وفاة زوج إيزابيل فرصة سانحة للحصول على مهر كبير ووضع يده على الثروة التي خلفها لروحه وابنته ضون دييغو سانس فتقرب من الأرملة متوددًا وأخيرًا تم الاتفاق وعين يوم الزواج. وأحب سرفانتيس أن يعرب لابنته وصهره المقبل عن كرمه ولعلّه كان يؤمل بأن ريع كتابه سيرتفع إلى أن يسمح له بتحقيق ما نواه؛ لأنّه في هذه الآونة إنّما كان مدينا للطباع بأربعمائة وخمسين مليونًا. وخلاصة الأمر أنه في 28 أغسطس آب من سنة 1608 وقّع سرفانتيس. تعهدا أمام كاتب عدل يلتزم فيه بتأدية ألفي دكة إلى صهره، وكفله ضون خوان دي أورصنا كاتب الدوكي دي صابونا الذي أشرنا إليه فيما سبق.

وفي 8 سبتمبر أيلول احتفل في كنيسة القديس لويس بزواج لويس مولينا وإيزابيل دي سرفانتيس وكان كاتبنا يظن أن بهذا الزواج دارًا جديدة

سيفتح أمامه في شيخوخته، لكن آماله خابت هذه المرة أيضًا؛ لأن مولينا لم يسكت عن المهر الذي تعهد سرفانتيس بتأديته ولم تسعفه الحال على الوفاء. فلاحق خوان دي أورينيا وحصل منه تلك الكمية وأدى الأمر إلى توتر العلاقات بين الكاتب من جهة وابنته وصهره من جهة أخرى.

***

في 17 أبريل نيسان انخرط سرفانتيس في أخوية عيد القربان الأقدس التي أسسها في السنة السابقة أحد الرهبان المثلثين. وكانت هذه الأخوية بحيرة يلتجئ إليها مُتعبو القلب، طلبا للراحة النفسية والتقرب من الله. وقد انضم إليها بعد سرفانتيس كثير من كبار كتاب عهده نخص بالذكر منهم فيسنطي اسبييل وكيبيدو ولوبي دي بيغا، لكن سرفانتيس كان أكثرهم ممارسة لواجبات الأخوية وحضورًا لحفلاتها الدينية.

وبعد مدة قليلة فُجع كاتبنا بوفاة شقيقته أندريا فتألمت نفسه لهذا المصاب تألمًا عميقًا؛ لأنّ أندريا كانت المحور الذي يدور حوله الجميع وصلة الوصل بين أفراد تلك العائلة، ولم يمض إلا وقت قصير على وفاتها حتى أقبلت زوجته ضونيا كاطالينا في 16 يونيو حزيران من سنة 1610 إلى مكتب الموثق بلطاسار دي أوخينا وأصله من نفس بلدتها اسكيفيا وأملت عليه وصيتها دون أن تُطلع زوجها على الأمر، فأوصت لأخيها فرنسيسكو بكل أملاكها ولزوجها بحق التمتع ببعض الأراضي المذكورة في الوصية، وبعد وفاته تتمتع بها ابنة أخته كونسطانسا مدة سنتين ثم يعود تلك الأملاك إلى عائلة ضونيا كاطالينا، وأوصت لزوجها أيضًا بسريرهما وجميع أملاكها المتنقلة عربونًا ـ على حد قولها في الوصية ـ لما تبادلناه من حب ووئام وأوصت أيضا أن تدفن في كنيسة اسكيفيا إلى جانب والدها.

لكنها في 20 اكتوبر تشرين الأول من سنة 1626 أي بعد وفاة المؤلف بعشر سنوات جددت وصيتها فألغت من الوصية السابقة تلك الفقرة المتعلقة بدفنها في اسكيفيا وأوصت بأن تُدفن في نوفبت في دير الآباء المثلثين حيث كانت ترقد رفات زوجها. وتعليقًا على هذا التعديل في الوصية بقول أحد المؤرخين المعاصرين: أجل! إن العاطفة التي كانت تجرها نحو أهلها المؤثرة في النفس، لكن هذه العاطفة الجديدة متى اعتبرنا تربيتها وأخلاقها تظهر لنا أكثر تأثيرًا، وتدلنا دلالة حاسمة على تلك القوة الجذابة التي كان يحسن بها سرفانتيس امتلاك قلوب من يعيشون إلى جانبه.

سرفانتيس

يتشوق لزيارة نابولي

في سنة 1610 عين الكوندي دي ليموس نائبًا عن الملك في مملكة نابولي. وكانت تربط سرفانتيس به بعض روابط الصداقة وكان الكوندي فضلًا عن ذلك مغرمًا بالشعر والأدب وله بعض المؤلفات المسرحية. وقد عرف بعطفه على الأدباء، فما إن انتشر خبر تعيينه لهذا المنصب الرفيع حتى هلل له الأدباء وقل من لم يحلم منهم بالرحيل إلى نابولي مع حاشية الكوندي لشغل وظيفة فيها. وكان سرفانتيس في طليعة من علّلوا النفس بهذه الرحلة، لكن ما عتم أن خاب أمله وتركت هذه الخيبة الجديدة في نفسه مرارة شديدة، ويعزو معظم المؤرخين هذه الرغبة القوية بالرغم من شيخوخته في الذهاب إلى نابولي وما تلا عدم تحقق هذه الرغبة من ألم عميق إلى ما خلّفه من ذكريات في تلك المدينة أيام شبابه حين كان جنديًا، ويرون كما ذكرنا في غير مكان من هذا الكتاب في تلك الجملة التي جاءت في كتابه رحلة البارناس الذي وضعه تعزية لنفسه عن فوات هذه الرحلة من يده إذ قال: وبكلّ حنو عانقني صاحبي... وناداني أبت وناديته بني وهكذا أحق الحق. يرون في هذه الجملة التي يفسرونها على ظاهرها سبب هذا الشوق وهذه المرارة التي أعقبت الخيبة.

في سنة 1611 توفيت شقيقته اضونيا ماغدلينا، وكانت حالة كاتبنا المادية قد عادت في هذا العهد إلى أسوأ مما كانت عليه، فلم يتمكن من دفع نفقات المأتم التي كانت تبلغ اثني عشر مليونًا، فقام بدفنها راهبات سان فرنسيسكو في ديرهن مجانًا لوجه اللّٰه.

***

لم يبق الآن في الدار سوى سرفانتيس وزوجته وابنة أخته، فشقيقتاه توفيتا وابنته وزوجها قطعا كل علاقة تربطهما به بعد أن لاحق صهره مولينا كفيله وصديقه خوان دي أوربينا لقبض المهر الذي تعهَّد له به سرفانتيس بكفالة أوربينا. فكادت الدار تقفر بعد أن كانت عامرة. وحالة كاتبنا المالية رغم كل ما در عليه كتابه عادت كما قلنا إلى أسوأ حال وعادت الديون تتراكم عليه وتثقل كاهله، فلا عجب أن تخيم على نفسه سحابة من الكآبة تتجلى فيما ألفه في هذا الطور.

وفي سنة 1612 تأسس في مدريد ناد أدبي دعي باسم أكاديمية سلباخي وكانت الجلسات تنعقد في دار ضون فرانسيسكو سلبا، وضم النادي كبار أدباء العصر وعلى رأسهم لوبي دي بيغا، وهذه المرة نرى سرفانتيس عضوًا في النادي الجديد وإن كان في الجلسات لا يحتل مكانًا بارزًا، ونرى العداوة بينه وبين لوبي دي بيغا قد خمد سعيرها في هذا الطور.

***

لم تحط النكبات الجديدة من عزم كاتبنا بل بالعكس وُلدت في نفسه نشاطًا أدبيًا منتجًا لم يعرفه أيام الفتوة، فأنهى مجموعة قصصه المسماة القصص المثلى. ووضع مؤلفه «رحلة البارناس» وأعاد النظر في مسرحياته

ليجدد طبعها ولعلّه شرع بكتابة بعض فصول من «برسيليس» وفي الوقت نفسه كان يواصل الكتابة في القسم الثاني من مؤلفه العظيم ضون كيخوطي، ففي هذه السنوات العشر كتب أكثر مما كتبه فيما مضى من عمره وسيكتب في السنوات الست الباقية له أكثر مما كتبه في تلك العشر.

سرفانتيس

يشترك بمباراة شعرية

كانت مدريد تستعد للاحتفال في 12 أكتوبر تشرين الأول من سنة 1614 بتطويب القديسة تريسة وأعلنت اللجنة المشرفة على الاحتفالات عن مباراة شعرية يمكن الاشتراك فيها لجميع شعراء إسبانيا، وتألفت اللجنة التحكيمية من ثلاثة شبان من كبار العائلات الإسبانية، وعين لوبي دي بيغا مستشارًا فنيًا لهم.

وكان سرفانتيس من جملة الذين تقدموا لهذه المباراة، وهنا يقف بعض المؤرخين حيارى أمام هذه البادرة ويعجبون كيف أن سرفانتيس رغم شيخوخته ـ إذ كان في السابعة والستين من عمره ـ وما بلغه من مكانة أدبية تقدم إلى مباراة لا يشترك فيها عادة إلا من كان حديث العهد بالشعر، لكن معظمهم يعللون تصرفه هذا باحتياجه إلى المال. ويرون في أمله بالحصول على الجائزة المالية الدافع الأقوى إلى ذلك، وليس ذلك حقًا بالأمر العجيب.

واجتمعت اللجنة وفصلت في المباراة ومنح سرفانتيس جائزة، وفي وسط الاحتفال أعلنت النتيجة ووقف لوبي دي بيغا وقرأ بنفسه على الجمهور قصيدة سرفانتيس.

صدمة جديدة

إنهاء القسم الثاني من «ضون كيخوطي»

لم يمضِ على ظهور ضون كيخوطي سوى سنوات قليلة حتى انتشر في إسبانيا كلها وتجاوز حدودها إلى بلدان أخرى وترجم إلى عدة لغات، وبينما كان سرفانتيس يشتغل بإعداد القسم الثاني إذا به يُفاجأ في هذه السنة نفسها 1614 بظهور كتاب عنوانه: القسم الثاني من ضون كيخوتي بقلم فرنانديس دي ابيانيدا فأثار الأمر ثائرة سرفانتيس ولا سيّما أنّ فرنانديس دي ابيانيدا اسم مستعار لشخص تحركه عاطفة الحسد الممقوتة. أمّا الكلام عن قيمة هذا الكتاب بالنسبة إلى مؤلف سرفانتيس فنتركه للقسم الثاني حيث نتكلم مطولًا عن مؤلفات كاتبنا، وإنما هنا نكتفي بالقول إنّ ظهوره أقضّ على سرفانتيس مضجعه وحرّك همّته للإسراع في إنجاز القسم الثاني من كتابه، فأكبّ بحماس لم يُعهد له مثيل سابق ولم يهدأ له بال ويسكن له روع حتى أتى على آخره.

وفي أوائل فبراير شباط* من سنة 1615 قدمه للرقابة في مدريد. وكان إذ ذاك في الثامنة والستين من عمره.

المرحلة الأخيرة

مرضه ووفاته

كان سرفانتيس مصابًا منذ مدة بمرض عُضال لم يُعرف نوعه بالتحقيق، فالبعض يقولون إنّه داء الاستسقاء ويزعم آخرون أنه مرض في القلب وحاصل الأمر أنه ما كادت تقبل سنة 1616 حتى كان الداء قد استفحل وضعفت قواه فأشار عليه الأطباء بتبديل المناخ، فانتقل إلى بلدة اسكيفيا لكنه لم يشعر بالتحسن المؤمل فعاد إلى مدريد ليقضي فيها آخر أيامه.

ولمّا حلّ شهر أبريل نيسان من تلك السنة كان سرفانتيس قد بلغ أقصى درجات الضعف والهزال بحيث لم تبق له قدرة على مبارحة الفراش، لكنه ظلّ محتفظًا حتى الساعة الأخيرة برباطة جأشه وصفاء ذهنه، وقد أدرك أن ساعة الموت قريبة فانصرف إلى الاستعداد لها وتصفية ما بقي في النفس من رغبات.

ففي الثاني من الشهر المذكور انخرط في سلك جمعية القديس فرنسيس الثالثة وقد انخرطت فيها من ذي قبل زوجته وابنة أخته.

وفي هذه الأيام القليلة الباقية له من العمر كتب إهداء كتابه برسيليس إلى الكوندي دي ليموس وقد جاء ذلك الإهداء بمثابة وداع حار يوجهه كاتبنا إلى البشرية فيه ما يلي: تلك الأبيات القديمة التي طالما تغنى بها

الناس والتي مطلعها الآن وقد وضعت رجلي في الركاب كنت أود ألا تأتي في محلها في هذه الرسالة لأني أكاد أقدر أن أبدأها بالكلمات نفسها قائلًا:

الآن وقد وضعت رحلي في الركاب

تساورني آلامُ الموت

أكتب إليك أيّها السيد المعظم رسالتي هذه

أمس مشحت واليوم أكتب هذه الرسالة، إن الوقت قصير والنزاع يقرب والآمال تنقص...

وهذا الإهداء مؤرخ في 19 أبريل نيسان...

ونراه قبل أن يغادر هذا العالم يتناول القلم من جديد ليكتب وداعه الأخير، فيقول: إلى اللّه أيتها اللطافة، إلى اللّه أيتها الظرافة، إلى اللّه أيها الأصدقاء المرحون أراني ألفظ أنفاسي الأخيرة وأرغب أن ألتقي بكم فرحين في الحياة الأخرى. وهي آخر كلماته التي وصلتنا.

***

وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه لفظ النفس الأخير محاطًا بزوجته وابنته وابنة أخته والكاهن ضون فرنسيسكو مرتينس مرسيا. ونقل جثمانه إلى كنيسة دير الأمهات المثلثات وهنالك ووري الثرى، دون أن توضع على قبره بلاطة أو علامة تذكارية ولم يحضر جنازته إلا عدد قليل من أصدقائه وأديبان خاملان الذكر اسم أحدهما: لويس فرنسيسكو كالديرون والآخر فرنسيسكو دي اوربينا. ويقول المؤرخون أن لوبي بيغا لما علم بوفاته جاء فصلى على نفسه أمام جثمانه.

***

وهكذا بين الإهمال والخمول دفن مؤلف ضون كيخوطي وضاع لحده بين بقية اللحود إذ طغت يد الزمان العاتية فساوت بينه وبين بقية من كانوا هنالك يدفنون.

لكن سرفانتيس وإن ضاع لحده حي لا يموت، وما دام للأدب في الإنسانية مقامًا وللفكر مرتبة وللمروءة قدرًا فإنّ سرفانتيس سيبقى قدوة الكرام ومثال المفكرين وأمير الأدب العالمي بلا نزاع.

القسم الثاني

الفصل الأوّل

ظهور سرفانتيس في «عكاظ»

لقد اطلعنا بإسهاب على نواحي سيرة هذا النابغة، وتعرفنا إلى ما قاساه من أهوال في عنفوان صباه، والآن فلنقتفِ أثر حياته الأدبية التي يرتكز عليها مدار بحثنا هذا، منذ أن ظهر في «عكاظ» العصر الذهبي الإسباني حتّى النهاية. ولذا رأينا أن نوزع إنتاجه، ونقسم بضاعته إلى مراحل، نستهلها بدراسة كتابه الأوّل المسمى «لاغالاطيه» وهو الذي مهد لمن سيحمل فيما بعد لقب «أمير الأدب الإسباني» ويحتلّ مركزًا عالميًا فيجلس عن يمين صاحب الإلياذة، السبيل لدخوله معركة «عكاظ» ذلك الحين، وتتميمًا للفائدة آثرنا أن نثبت هنا ملخصًا لهذا المؤلف، قبل أن نشرع في تحليل قيمته وذكر أقوال النقّاد فيه.

«لاغالاطية»

الموضوع: «أليثيو وأرستو، راعيان يعيشان على ضفة نهر تاجه، وقعا في حبائل غالاطيه وهاما بها هيامًا مبرحًا، وهي مثلهما راعية رأت نور الحياة على تلك الضفاف. يوقفها عن متابعة الأناشيد الغرامية وصول راعٍ آخر اسمه: ليسندرو يقصّ عليهما خيانة كارينو ووفاة ليونيدا حبيبته الأوّل. وكانت غالاطيه وفلوريسا جادتين في التقاط الأزهار لتجدلا منها شرائط

زينة لشعريهما عند وصول تيولندا التي تروي وقائع حبها مع أرتيدورو التي زاد في تعقيدها تشابهها لشقيقتها ليونردا وكذلك تشابه أرتيدورو وشقيقه غالرسيو. ينضم إلى حلقة هؤلاء الرعيان، ترسي وادامون الشهيران، وبعد العزف والغناء يذهب الجميع لزيارة الناسك سيليريو الذي يعيد على مسامعهم حوادث حبه لـ نيسيدا في نابولي، وحب صديقه تمبريو لها كذلك، وفرار هذا الأخير إلى إسبانيا ظنًّا منه أنّ حبيبته قد ماتت، وما كان من الأوّل، إذا ما تعذّر عليه اكتشاف مقرّ صديقه، إلّا أن ذهب فتنسك.

يحتفل بزفاف دارانيو وسلفيريا. يحتدم الجدال بين لينيو الذي لم يعرف الحبّ وبين تيرسي حول رأفة الحب أو شرّه. يصل تمبريو ونيسيدا إلى صومعة سيليريو. ويزور الرعيان عن بكرة أبيهم ضريح مليو. ثمّ تعزف قيثارة كاليوبي ثناءً شعريًا عاطرًا موجهًا لجمهرة من الشعراء الذين ما زالوا على قيد الحياة ومعاصرين لـ سرفانتيس».

يقع الجزء الأوّل من هذه الرواية التي يدور موضوعها حول حياة الراعيان في ستة كتب، وقد اختلف الأدباء في تعيين تاريخ نشرها بالضبط، فمنهم من قال إنها خرجت سنة 1584 ومنهم من أكد أنّ ذلك كان سنة 1585 ويوجد فريق ثالث يقول إنها ألفت ما بين سنتي 1581 و1583، ونشرت سنة 1584 إلّا أنهم رغم تباين آرائهم فيما يتعلق بنشرها قد اتفقوا على أنها وضعت بعد رجوع سرفانتيس إلى مدريد من الأسر، الأمر الذي ألمع إليه في الكتاب الخامس. وفي الكتاب السادس نشيد «كاليوبي» الذي قد يكون أفضل ما يوجد في متن الرواية كلها. ويرى بعض الكتاب أنّه فضلًا عن كون المؤلف في مجموعه قدّم قربانًا على مذبح الذوق الأدبي الرائج، كان وضعه لهذه القصة بدافع العوامل النفسانية التي أيقظتها في

صاحبه من ستصبح فيما بعد زوجًا له ولو أنّه على ما يظهر لم يتعمد تمثيلها في «لاغالاطيه» ولا أن يمثل نفسه في شخصية «إليسيو» حسبما زعم إلّا أنّه مثل فيها أشخاصًا كثيرين من معاصريه، لا نأتي على ذكر أسمائهم لعدم فائدة القارئ العربي من ذلك.

«لاغالاطيه» إن هي إلّا نفث الشيطان أو رواية عن حياة الرعيان من طراز «لاديانا» لصاحبها «متنميور» وطراز مؤلفات مقلديه، إلّا أنّها قد تكون حسب رأي «منيندث إي بلايو» النقاد الإسباني الذائع الصيت، قد نالت قصب السبق في هذا المضمار، إذ «لا تتجلى في رعيان ورواعي سرفانتيس تلك السذاجة التي إنما هي وقف على من كانوا من طينتهم، على أنّه في بعض الأحيان تنبجس منهم السذاجة الإنسانية أي هذه البساطة الساحرة التي تأخذ بمجامع القلوب وتستولي على الألباب، والتي ما كانت قط من صفات عصر دون آخر حتّى ولا من مميزات العصر الذهبي ذاته، بل هي من كافة العصور لأنّها تتفجر حقًا من أعماق القلب».

وقال «سان ـ ماك جيراردان»: جاء مؤلف سرفانتيس وشمس هذا النوع الأدبي تجنح إلى الغروب. وكما قال «سيخادور»: «ظهر ومعين هذا الموضوع كاد ينضب ومهما بالغ صاحب «لاغالاطيه» في شحذ قريحته وإذكاء نار عبقريته المبدعة وسعى ليودع فيها نثرًا رشيقًا وشعرًا أصبح دون شعر من تقدموا رقة وهلهلة، فما كان ليكتب له الفلاح لأن الذوب الأدبي كان قد شرع يسلك سبيلًا آخر».

أمّا ذوق سرفانتيس فكان في غاية الجودة نظرًا لولعه بالانبعاث الذي كان قد كلف به كلفًا شديدًا أثناء إقامته في إيطاليا، ولما كان يجد وراء الراحة من حياة المجازفات لم يلق آنئذٍ من أدب سوقه رائجة سوى هذا

الشيء دشن به حياته الأدبية، أدب الرعيان الذي ما كان قط غير ظاهرة من ظواهر الانبعاث التي محصها الذوق وصقلها، ولذا شرع يجرب فيه ميزاته الدفينة ككاتب، وعندي إنّ هذه الأسباب التي دفعته إلى هذه المحاولة هي نفسها كانت العامل الوحيد الذي جعله أن يلقى نجاحًا متوسطًا من كتابته «لاغالاطيه» ولم يعرف أحد مثله عيوب هذا الطراز وعيوب مؤلفه ذاته، إذ قال: «أحلام سكبت سكبًا حسنًا». فقد خلق ليكون كاتبًا انبعاثيًا أنيقًا وهكذا ظهر في كتابه الذي ما دبجه إلّا لأمر أعمق وأبعد غورًا، خلق ليكون كاتبًا إسبانيا قحا، وروائيًا يفرغ أشياء حسنة الديباجة لا صلة لها بالأحلام لقد أخذ ينبلج صبح الشخصية الإسبانية والأدب الوضعي عند سرفانتيس في عدة حوادث من متن «لاغالاطيه». وهما الصفتان اللتان ستكونان سدرة المنتهى التي سيتربع فيها عندما يضمحل طيف الأشياء الوهمية إلّا أنّه ترك تيار الزي يجرفه لما كان منشئًا ففي هذه التجربة برز الإبداع وبدا الأسلوب والتعبير بحلة خاصة من حيث الرقة والوضوح والأناقة. وضع سرفانتيس نصب عينيه «لا أركاديا» لصاحبها «ساناثارو» و«لاس ديانس» لمؤلفيهما «منتميور» و«خيل بولو»، إلّا أنه أنجل كتابًا فريدًا داخل نطاق هذا الحقل الفسيح ودمج روايات قصيرة تنذر «بالمثلى» وبالتالي ذكريات حياته الخاصة».

أمّا فيما يتعلق ببعض الأفكار الأفلاطونية التي عرضها سرفانتيس في «لاغالاطية» وهي نفس تلك الأفكار التي تقوم عليها دعائم الزهد العامة ويتكون منها محور الشعر الأجنبي النزعة في زمانه فقد قال عنها منيندث إي بلايو في تاريخه عن الأفكار الجميلة: «إنّه لمن الزيغ التمسك بما تمسك به أحد السرفانطنيين المعاصرين من أنّ سرفانتيس في «لاغالاطيه» لم يرم إلّا

لتجديد وتعريف نظرية أفلاطون، غير أنّه من الأكيد أنّ في الكتاب الرابع من هذه الرواية التي تبحث في حياة الرعيان، باكورة العبقرية الفتية لسلطان كتابنا أدخلت في ثناياها مشادة حب وجمال ـ ذات منعة المعية حتّى في الشكل ـ بين ترسي الرزين و«لرسيو» الرجل الذي لم يعرف الحب، وإنّ فحواها أفلاطوني محض ينتمي إلى «ليون العبراني» حتّى في استعمال الألفاظ...».

وسرفانتيس نفسه ـ كما قدمنا ـ التفت إلى عيوب مؤلفه وفي سياق الحديث عنه في «الكيخوطي» كتابه الخالد يقول: «أمّا كتابه ففيه شيء من الابتداع، يعد بشيء إلّا أنّه لا يستدل شيئًا، فينبغي انتظار الجزء الثاني الموعود به، عله في التصحيح يتوصل نهائيًا لإحراز الرحمة التي تنكر عليه الآن».

وطُبعت هذه الرواية التي ما ظهر قط جزؤها الثاني الموعود به، مرتين في حياة المؤلف لشبونة 1590 وباريس 1611 ويذكر رويس ست عشرة طبعة، إلّا أنّ الطبعة الوحيدة الصالحة هي طبعة مدريد من سنة 1863 لأنها نسخة عن الأولى لسنة 1581.

وقد ترجمت «لاغالاطيه» ثلاث مرات إلى الألمانية، ومرتين إلى الإنكليزية واقتبسها إلى الفرنسية فلوريان سنة 1783، وقد ترجم إلى الإسبانية كتاب فلوريان: هذا فيثنتي رودريغث أريانو سنة 1797، وأما كتاب «كنديدو ماريا تريغاروس» عشاق لاغالاطيه وأعراسهم المطبوع في مدريج سنة 1798 تتميمًا «للاغالاطيه» سرفانتيس، فهو تقليد لـ فلوريان أكثر منه لمؤلف الكيخوطي.

الفصل الثاني

شاعرية سرفانتيس

يتأسف سرفانتيس في مؤلفه «رحلة البرناس» المطبوع سنة 1614 بـ مدريد بمرارة وانكسار لعدم تحليقه في الشعر، فينشد:

«وأنا الذي دومًا أجدّ وأسهر

كيما أطل كشاعر أو أظهر

في نعمة أبت السما أن تعطيني...»

وأثناء عملية تطهير مكتبة ضون كيخوطي الجزء الأوّل الفصل السادس يقول سرفانتيس عن نفسه أنّه كان أكثر توفيقًا في التعاسة منه في الشعر.

ولم يحجم الكتّاب المعاصرون لـ سرفانتيس أو ممن تأخروا عنه قليلًا مثل «سوارث دي فيغيروا وضون استيبان م. دي فياغس» وسواهما عن مسّ شعور سرفانتيس كشاعر ومهاجمته.

ويكتب لوبي دي بيغا في رسالة له لاذعة فكاهية: أمّا عن الشعراء فحدّث ولا حرج، إنها لسنة جيدة هذه! وقد بدأ جلّهم ينضج للسنة المقبلة، إلّا أنّه ليس بينهم من يسفل إلى درجة سرفانتيس ولا من تبلغ به البلاهة إلى مدح الكيخوطي». وبرغم تباين وجهات النظر واتساع شقة الخلاف بينه وبين

بطل «ليبانطو» عاد لوبي بعد وفاة خصمه، في كتابه «غار أبولو» سنة 1641 إلى إنصافه كشاعر.

وأما الانتقادات الواهية التي وجهها إليه بعضهم وإنكارهم عليه شاعريته إنكارًا مغرضًا فسرعان ما تضمحل أمام إطراء لوبي، وأحرى بذلك نظرًا لقيمة بعض قصائده بالذات. ولا ريب في أنّ أشعاره دون نثره مرتبة وهي لا تسمح له أن يتبوأ المقام الأوّل بين الشعراء، ولكن لا يصح بحال من الأحوال أن يستند إلى مثل هذا لتجريده من شخصيته كشاعر كما حاول ذلك البعض، وكثيرًا ما تتجلى شاعريته في نثره، وكثيرًا ما أظهر ولعه بالأشعار فراح يدرج من أبياته أو أبيات غيره في متن رواياته.

وأما فيما يتعلق بشعر الغير فقد بدا دون ما شك أنّ سرفانتيس كان يفضل «الرومنسارو» و«غرسيلاسو» وتقرأ بتكرار الشواهد أو ما أثر فيه من «الرومنسي» الموشح في الكيخوطي وتقتضي الإشارة إلى أنّه أكسبها قالبًا في غاية الروعة والجمال كما يستدل على ذلك من كتاب «لوس ثيلوس» الغيرة حيث أتى بها على سبيل المدح أو كالأبيات التي في مسرحيته الهزلية في بلاط الموريسك المسماة «الكايردو اسبنيول» المقدام الإسباني وغيرها. ولا تُحصى الأبيات الرائعة التي أوردها سرفانتيس في الكيخوطي، مثل التي نقرؤها في حادثة «التيسدورا»:

«عادة تأخذ قوى الغرام — لإخراج النفوس عن مدارها
البطالة المهملة، آلة، — وعادة تكون الخياطة والفلاحة
وبقاء المرء دائمًا مشغولا — دافعًا لسم اللواعج الغرامية»

وفي رواية «لاخيتانيا» تغني برثيوسا هذا الموشح الجزل ومن الابتكارات الموفقة من حيث الصبغة والرشاقة:

«يـــا جـمـيـلـة يــا جـمـيـلـة بـك يــزداد زوجــك هـيـامًـا
يـا ذات الأيـــدي الـفـضـيـة لـــدى مـلـك الـبـشـرة...[1]»

وهذا الموشح المقتضب الذي يشرح فيه حالة الفتيات الخادمات لا يقل من حيث الرشاقة والظرافة والتعريض اقتضابًا عن أمثاله «لغونغرا»[2].

«يـــا لـتـعـاسـة الـفـتـيـات الـلائـي جـاءت بـهـن الـسـمـاء
مـــن أجـــل أدوار غـريـبـة لـيـخـدمـن أربـــابـــهـــا...»

وأما تأثير «غرسيلاسو» في الكيخوطي فجلي واضح لا غبار عليه إذ بينما يتحدث مع ابنة أخيه أو أخته يردد مقاطع لهذا الشاعر الإسباني الكبير:

«من أجل الخلود تقتفي
هذه السبل الوعرة
لبلوغ المقعد الأسمى
إلى حيث لا يرتقي قط
من، من هناك يتدحرج...»

وفي «نشيد الكرسوستمو» يتعقبه تعقبًا حثيثًا حتّى ليكاد يطأ عرقوبيه، وفي بعض الأحيان ينسج على منواله حتّى في القافية الوسطى، ونشيد «ميرينو» المغنى في «لاغالاطيه» لعدم إخلاص «سلفيريا» يعيد إلى الذهن «ذلك التأوه العذب المتفجر من صدر راعيين».

وأمّا في السونيت والمداعبات الشعرية أو الهزليات فيحلّق تحليقًا

(1) اسم جبل واقع بالقرب من غرناطة.
(2) شاعر إسباني امتاز بالشعر الرمزي.

منقطع النظير وأشهر ما صاغه منظومة فيليبي الثاني في إشبيلية، وليوم دخول الدوكي دي مدينة سيدونيا إلى قادس في يولية سنة 1596 ومنظومة أخرى تُنسب أحيانًا إلى كيبيدو عنوانها: «صلف دومسوط وسروال...».

ومن قصائد النقد الأدبي: نشيد كليوبي في «لاغالاطيه» و«سفرة البرناس» ولهذه صبغة خاصة تتعلق بسيرة حياته مثل «رسالة إلى ماتيو فاثكث» وبعض قطع شعرية من «سفرة البرناس» تتبع في صيغتها أسلوب «ثيسري كوبرالي».

ولئن استثنينا الآن مسرحياته فتجدر بنا الإشارة إلى أنّ كثيرًا من القصائد التي لم تمتد إليها يد الحدثان تخلد ذكره كشاعر على مدى الأزمان، وأما هذه القصائد فهي: أربع لدى وفاة زوجة فيليبي الثاني نشرت في مجموعة مراثي ضونيا إيزابيل دي فالوا للمعلم لوبي دي هويوس سنة 1589، منها مرثاة باسم الجامعة عدّد فيها سرفانتيس مآثر الكردينال اسبينوسا وعدة قصائد أخرى موجهة إلى جمهرة من الكتّاب بمناسبة نشر مؤلفاتهم الراهب بدرو دي باديا، لوبي ملدونادو، ألونسو دي برو، خوان روفو صاحب «لاوسترايدا»، لوبي دي فيغا في دراغوتا، خوان يكوي دي سالص في محبي ترويل» ملحمة ذات مآسي سنة 1616، فرنثيسكو دياث في مبحث... كلّ أمراض الكلي... سنة 1588 وثلاث سونيت أخرى إلى ثلاثة رجال ذائعي الصيت ضون دييغو دي مندوثا، ومرثاة لهرنندو دي هرارا، ومديح للمركيس دي سنتا كروث، ومخمسات مرفوعة إلى سان خاسينتو شطر فيها مربعات قدمت إلى مسابقة شعرية في سرقسطة، وأغنية إلى تأله الأم تريسا دي خسوس بمناسبة تطويبها قديسة، ومنظومة ذات موضوعات شتى موجهة إلى الكوندي دي سلدانيا، وقصائد أخرى منها

ما اكتشف حديثًا مثل السونيت المرفوعة لـ برتولوميو روفينو واثنتا عشرة منظومة من ثمانية أبيات إلى الشاعر الصقلي أنطونيو فثيانو وكلاهما رفيق لـ سرفانتيس في الأسر بالجزائر.

الفصل الثالث

مسرحيات سرفانتيس

أظهر سرفانتيس دائمًا ولعًا بعيد المدى بالمسرحيات ويقول في ملحق البرنس أنّه ألّف عددًا وافرًا منها وأخصها بالذكر إذ قال: «لو لم تكن لي لبدا لي أنها تستحق الثناء العاطر» ولما كان في إشبيلية سنة 1592 أمضى عقدًا مجحفًا بحقه مع متعهد المسرحيات رودريغو أوسوريو تكفل بتأليف ست مسرحيات على حسابه، وقد جاء في ذلك العقد: لئن برزت تلك المسرحيات على أخواتها الممثلة في إسبانيا، يدفع المتعهد للمؤلف خمسين دوكا عن كلّ واحدة وإن كان الأمر خلاف ذلك فلا يدفع له المتعهد شيئًا. والأرجح ـ سواء نفذ العقد أم لا ـ أنّ من العشر المسرحيات المعروفة اليوم لـ سرفانتيس لم تؤلف واحدة لـ أوسوريو.

وكتب سرفانتيس سنة 1615 في مقدمة مسرحياته الثمان ومقدمة مسرحياته الثمان القصيرة[1] الصادرة عن مدريد في تلك السنة، معلنًا ارتياحه عن نفسه كمؤلف مسرحي كما يلي: «شهد الجمهور المدريدي تمثيل «معاملات الجزائر» من تأليفي «وتحطيم نومانثيا» «والمعركة

(1) مسرحيات تمثل بين فصلين من مسرحية عادية. وهذا النوع من المسرحيات القصيرة مما يسمى بالإسبانية Entremeses.

البحرية» حيث تجرأت وحولت المسرحيات إلى ثلاثة فصول بدلًا من الخمسة التي كانت تتألف منها» ويمدح نفسه لكونه أوّل من أخرج إلى خشبة المسرح أشخاصًا رمزيين ويفتخر بل يعتز لكونها مثلث: «دون أن ينهال على ممثليها الخيار أو ما شاكل ذلك من الأمور التي يرشق بها. «مثلوا أدوارهم من غير صفير وصراخ وجلبة» وتابع حديثه فقال: «تركت القلم والمسرحيات فدخل الميدان من بعد، غول الطبيعة، لوبي دي بيغا العظيم فحلّق بملكية المسرحيات وأعلى»... ثمّ أردف قوله هذا بعد أن أهمل عدة روايات له مدة من الزمن بما يلي: «لقد قال لي أحد الوراقين أنّه كان مستعدًا لشرائها لو أنّ أحد المتعهدين لم يقل له أنّ من نثري يمكن أن ينتظر شيئًا أما من شعري فلا شيء... فضجرت وبعتها للوراق المشار إليه، الذي تولى أمر طبعها وإظهارها بالحلة التي أقدمها لك..».

وكان سرفانتيس من مناصري الجمال المدرسي إلّا أنّ منيندث بلايو يقول: إنه في بعض المسرحيات التي ألّفها وهو في دور الشيخوخة كالمسماة «دار الغيرة» حاول ولوج أسلوب لوبي دي بيغا واعتقد أنّ في تراكم حوادث الغيرة يتوصل إلى المفعول الذي كان يحرز عليه هذا الأخير بفضل شاعريته الفذة وابتكاره ومعرفته للفن المسرحي معرفة بعيدة الغور.

طرق سرفانتيس الموضوعات المسرحية كلها وولجها من كلّ الأبواب فإذا به في مسرحياته القصيرة يخلق مشاهد رائعة كلها حياة ونشاط؛ لأنّها من صميم الحياة وحلتها الزاهية هي الوضعية، وقد اقتفى السبيل الذي اختطه لوبي دي رويدا ففي «السافل السعيد» ظهر إثر المسرحية الورعة أو القديسة، وفي «السلطانة العظيمة، وحمامات الجزائر، والإسباني المقدام» إثر مسرحية «المسلمين والنصارى» وفي «التسلية» إثر الماكرة، وفي «بدرو

دي أوردمالاس» إثر قصة الشطار، وفي «لانومانسيا» إثر المقالة المسرحية وفي «دار الغيرة» إثر قصة الفرسان.

وجريًا للخطة التي آثرنا اتباعها نورد هنا ملخصًا لموضوع كلّ من مسرحيات سرفانتيس مع ما قاله النقاد فيه وفيها:

معاملات الجزائر:

مسرحية ذات أربعة فصول، لغتها شعرية وموضوعها بسيط للغاية: «حسناء نصرانية تقع أسيرة في قبضة سيد من أكابر المسلمين فيعلق بحبها ويكلف بها كلفًا شديدًا بينما خطيب الأسيرة ـ وهو بدوره أسير ـ يلقى الأمرّين من هيام سيدته به وهي مسلمة غنية وذات ميول شهوانية وللتغلب على إرادة هذين العاشقين يقرر سيداهما اتخاذ كلّ منهما وسيطًا لدى الآخر، فبهذه الوسيلة يتم للعاشقين اللقاء بعيدين عن أعين الرقباء فيجددان عهدهما ويتوصلان إلى حريتهما المنشودة».

إنّ هذه المسرحية لتمثل حياة الأسرى بما فيها من شقاء وتعاسة والخطط التي رسمت للتخلص من ذلك الجحيم وتتحدث عن الخيانات وعن سفالة أخلاق المارقين من دينهم وعن المؤامرات الداخلية وأما عيوبها من الوجهة الأدبية فتتلاشى أمام أهميتها كوثيقة تاريخية.

ولقد قال كوثيرلو إي فيدور في كتابه القيم «مسرحيات سرفانتيس» إنّ تلك الحياة المحفوفة بالأخطار والمصائب لتظهر بألوانها في شكل مريع وتبدو لعين القارئ صورها ومشاهدها المختلفة وقد اكتست من الحقيقة أبرزًا دون أن تمس الحقيقة التاريخية، وينجم عن هذا صحة المشهد والأمانة فيما يعود إلى معاملة الأسرى ويمكن التأكيد بأن الشقاء كان

يرافقهم منذ كانت تطأ أقدامهم تلك السواحل المرعبة إلى أن ترد إليهم الحرية المسلوبة، وتصف زيادة على ما تقدم بيعهم في الأسواق العمومية الخ.

وأما الغاية التي كان ينشدها المؤلف من مسرحيته فتظهر من النظرة الأولى إليها: إثارة عواطف فيليبي الثاني لكي يتمم العمل الذي كان شرع فيه والده العظيم ويضع حدًّا لأعمال القرصان بهدم وكرهم، وإهاجة أريحية الجمهور لمساعدة الرهبان اللذين كانوا يسعون سعيًا حثيثًا لإنقاذ الأسرى وافتدائهم فلهذا يلح في تأسفه لوفاة ضون خوان دي أوستريا وفي وصفه وصفًا مسهبًا للمعاملة القاسية والعذاب والآلام التي كان يعانيها الأسارى، ثمّ شيوع المرق من الدين ويعيد على مسامع الجمهور نص الرسالة البليغة التي بعث بها إلى الكاتب ماتيو فاثكث ولئن لم يفلح في مقصده الأوّل فقد جاء الثاني بما كان يرمي إليه وأصاب الوتر الحساس من قلوب الناس فكم من دموع جرت أثناء تمثيل هذه المسرحية التي تركت في نفوس سامعيها أثرًا لا يُمحى!؟».

ولما كانت هذه المسرحية مؤلفة من أربعة فصول يتضح أنها من ثمار العهد الأوّل لـ سرفانتيس وقد استنتج كوتليرو من عدة نواح، أنها كتبت سنة 1580 وسرفانتيس لا يزال في الأسر. ونظرًا لوفرة الصحة التي تتجلى فيها وفي الطبائع الموصوفة، يسوغ دون ما شك أن يقال عن أشخاصها بأنهم أشخاص تاريخيون وهذا مما ينطبق على أكثريتهم ومن بينهم المؤلف إذ إنّ منهم من يحمل اسم سافيدرا، وبقطع النظر عن هذا، ففي المسرحية بعض أشخاص رمزيين مثل «الفرصة والحاجة» اللتين تتحالفان وهما غير منظورتين للتغلب على حزم الأسير النصراني في إحدى المشاهد التي

تشهد بالعبقرية والبراعة، ولقد أطرى على هذا المشهد الناقد الألماني كلين الذي يعتبر أنّ سرفانتيس إنما هو المبشر بالإبداع الرمزي الفائق الذي اتّصف به كلديرون وحتى لهو المبشر بطيفيات ومروعات شكسبير.

حمامات الجزائر:

وكذلك هذه الرواية تمثل عدة مشاهد من حياة الأسارى، وتتحدث عن الألعاب والرقص والتمثيلات التي كان يتسلى بها الأسرى النصارى في أعياد معينة وأما بعض حوادثها فقد أخذت عن «لاسيلفا» مؤلف «ليدروماشيا»، وفقًا لما لاحظه داماسو ألونصو. وتشير رواية «الضابط الأسير» المدرجة في الكيخوطي إلى حوادث من هذا الطراز، ويصح الإلماع إلى أنّ روايات سرفانتيس الثلاث: معاملات الجزائر وحمامات الجزائر والضابط الأسير متماسكة تماسكًا متبادلًا وثيقًا، مرتبطة بعضها ببعض.

السلطانة العظيمة:

مسرحية تدور عقدتها حول حسناء مالقية بيعت رقيقًا بعد أن أسرها القرصان في سفرها إلى وهران، وتوصلت إلى استهواء قلب سلطان استنبول وبفضل علو همتها وفلاحها وإيمانها الراسخ وحنوها وعطفها لاقى الأسرى خيرًا جزيلًا.

إنّ النقاد الذين حاولوا البحث عن أسس الحادث التي ترتكز عليها المسرحية لم يتحفونا بما يزيد على ما جاء في الموشح الذي أدرجه سرفانتيس في الفصل الثالث من مسرحيته. والحادث على ما يظهر تاريخي الأمر الذي يؤكده سرفانتيس في عدة مقاطع من المسرحية كما

أشار إليه المؤرخون بوضوح وجلاء لا يقبلان الرد. «ومن جهة أخرى يقول كوتليرلو إي فيادور أنّ قضية زواج الأوربيات من عرب وأتراك تتضح في كلّ حين وأن أزواجهن يلزمونهن على المروق من دينهن، واعتناق الديانة المحمدية ولذا يشير سرفانتيس بإلحاح إلى تساهل السلطان التركي بمسألة دين زوجته».

ويظهر من تركيب المسرحية أنها من المسرحيات التي تنتمي إلى المرحلة الأخيرة من نشاط المؤلف المسرحي وفي الموشح المذكور يقع التلميح إلى سنة 1600 كشيء قد مضى وعلاوة على هذا لدى الكلام عن سفير العجم يقول في إحدى المقطوعات: «يدخل سفير بلباس الذين يمرون من هنا...» وفي الواقع سنة 1601 دخل رسميًا إلى بلد الوليد مبعوثو شاه العجم. وتدل تلك المقطوعة على أنّ سرفانتيس كان في ذلك الحين في بلد الوليد حيث ألف المسرحية التي هي موضوع حديثنا.

أمّا من الوجهة الفنية فالسلطانة العظيمة تعد من أفضل مسرحيات سرفانتيس من حيث الشاعرية ووصف الطبائع، ويراعي المؤلف وحدتي العقدة والمكان إلّا أنّه لا يراعي وحدة الزمان ويقول الناقد المذكور «إنّ الفصول موزعة توزيعًا حسنًا وكلها تنتهي في نقاط تثير الاهتمام والتشوق، وكلها ذات مادة جوهرية تتحلى وتتقيد بالوحدات الصغيرة داخل نطاق الوحدة الكبرى التي تسيرها إليها وتجعل العقد تدور حولها».

«ومن أكبر عيوب الرواية غياب سرعة المحاورة التي كثيرًا ما تجعل من المحاورين منشدي أشعار وصفية غنائية وينجم عن هذا أنّ الأشخاص يستنزفون بإفراط الأفكار ويعرضونها عرضًا لا يبقي على شيء من أشكالها وألوانها».

بدرو دي أوردمالس:

لهذه المسرحية من حيث العقدة علاقة بإحدى المسرحيات القصيرة: «انتخاب رؤساء بلدية داغنثا» وبالقصة المثلى «لاخيتانيا». وبطل المسرحية رجل خبيث متهتك ورغمًا من أنّه لم يكن مجرمًا كان يعايش عشيرة من الغجر حبًا بمعشوقته ويتدرب في حيلهم وخداعهم.

السافل السعيد:

مسرحية عن حياة القديسين ذات فصول ثلاثة يرجح أنّ سرفانتيس ألّفها في إشبيلية بعد سنة 1596 وقت ظهور التاريخ الذي كان له معينًا، وقد يكون تم تأليفها في السنوات الأخيرة من حياة الكاتب، عندما كانت الفكرة الدينية تقلق راحته وتقضّ عليه مضجعه، ويتضح ذلك من خلو شكلها من أيّ عيب كان، ومن الروح الدينية وصبغتها المسيحية المحضة، ولا ريب في أنّ سرفانتيس استلهم هذه المسرحية من العبرة المثلى المستقاة من وفاة الدومنيكي الإشبيلي، الراهب كريستوبل دي لاكروث، بطل ألف عمل طائش في حياته من ميزات السفلة، وأما حياة كريستوبل دي لوغو - وهذا هو الاسم الذي كان يُعرف به في حداثته - فكانت تروى في مسقط رأسه كما لو كانت خرافة من الخرافات. ولو كان من المحتمل أن يكون سرفانتيس قد سمع بتهتكاته وأعماله القدسية فيحتمل كذلك أن يكون قد اطّلع على هذه وتلك في تاريخ تأسيس ونمو مقاطعة القديس يعقوب في المكسيك للراهب أغوسطين دافيلا إي باديا، المطبوع سنة 1596. ولا ريب في أنّ سرفانتيس نُقل إلى المسرح ببراعة فريدة ومهارة فنية حميدة سيرة هذا الدومنيكي الإشبيلي الكثيرة المنعرجات، ولكن لما لم يكن من

السهل حصر حوادث شتى لحياة معقدة وعرة في ثلاثة فصول، اضطر إلى تحوير مجرى التاريخ نوعًا فأضاف حوادث جرت في طليطلة إلى حوادث وقعت في إشبيلية وإذا به يفتح أبواب دير المكسيك لحوادث تمرّ في وقت قصير في حال كون وقوعها يستلزم وقتًا طويلًا. ولاحظ كوتليرو إي فيادور أنّه: «بدافع الموضوع رأى سرفانتيس نفسه مقيّدًا فاضطر في هذه المسرحية إلى مخالفة المبادئ المسرحية التي يبشر بها في الكيخوطي، أكثر من مخالفته لها في غيرها من المسرحيات وخصوصًا فيما يتعلق بالوحدة المكانية ولكي يبرر موقفه كتب في بداية الفصل الثاني تلك المحاورة بين المسرحية والفضولية حيث حاول أن يتجنب مثل هذه الملاحظات على قدر استطاعته».

ويواصل الناقد ملاحظاته فيقول: «في بداية الأمر يظهر كريستوبل متهورًا على طريقته ودرجة تهتكه وإجرامه أدنى بكثير مما يعتقد هو نفسه ويلتف حوله أشخاص من كلّ فج ومن كلّ طراز وضرب صورتهم يد ماهرة في جميع حالاتهم ونفذت إليهم عين حاذقة لترقب ميزاتهم الفنية الأمر الذي ما برع فيه أحد مثل سرفانتيس. أمّا الفصل الأوّل فأقل ما يقال فيه أنّه شريط سينمائي فائق يستعرض مجتمع إشبيلية استعراضًا تختلج فيه الحياة، وتسير في ركابه إشبيلية العصر السادس عشر بما فيها من أناس وعادات ولهجات ونقائص وجرائم. لوحة اتخذت من يد الطبيعة ولا شأن للخبث السنوري فيها. وقد قال أحدهم في دراسته لـ ضون خوان تنوريو أنّ سرفانتيس هو مبتدع هذه الشخصية المسرحية الخالدة ولاح له أنه انتزعها قبل تيرسو دي مولينا من قلب البيئة الإشبيلية، ورغم وجود وجهة شبه كبيرة بين الشخصيتين في الفصل الأوّل فسرعان ما يبدو الفرق جليًا إذ إنّ

كريستوبل ما شعر قط بميل نحو النساء ولم يكن للحب في مجرى حياته أدنى تأثير.

وقد حمله في أحد الأيام يأسه وضيق ذات يده إلى المراهنة على كتاب ديني وقطع على نفسه عهدًا أنّه إن خسر يلتحق بعصابة قطّاع الطرق إلّا أنّ الفتى لما ربح فكر في هول النذر وللتكفير عن ذنبه قرر أن يترهب. وفي الفصل الثاني يشهد التبديل العميق الذي طرأ على نفس كريستوبل دي لوغو الذي أصبح يُعرف باسم الراهب كريستوبل دي لاكروث وبصحبته رفيقه الوفي لاغرتيخا الذي يترهب أيضًا باسم أنطونيو، وتتجلى القداسة وروح التضحية في الدومنيكي عندما كانت تنازع سكرات الموت ضونيا آنه دي ثريفانيو التي نظرًا لفداحة خطاياها قطعت الأمل من خلاص نفسها ورفضت الإسعافات الروحية التي اعتبرتها غير كافية، فهرع أقاربها إلى الدومنيكيين في طلب النجدة فأرسل رئيس الدير الراهب كريستوبل لإقناع الخاطئة ومن أجل ذلك تضرع إلى اللّٰه أن يحمله تضحية تعجز عن مثلها القوى البشرية، أن يُلقي على نفسه تبعة خطايا المحتضرة على شريطة أن تعترف وتتوب. وفي الفصل الثالث يسقط هذا القديس ضحية لأفظع مرض، فيصاب بالبرص، وأما حياته التي امتدت ثماني سنوات في حالة المرض المريع فقد اقتصرت على المعركة الهائلة التي أوقدت نيرانها على المسرح القوات الجهنمية ضد الثبات والإيمان اللذين ما كان ليتزعزعا في خدمة اللّٰه إذ إنه كان قد خلع عليه نعمته السماوية.

وقال ثيخادرو: «إنّ السافل السعيد هي في الأساس مأساة دراما تاريخية ومن أحسن المسرحيات التي ألفت في اللغة الإسبانية إذ إنّها تخوض في ناحيتين من الحياة الإسبانية التهتك والزهد ولم يتوفق أحد ـ

وحتى سرفانتيس نفسه ـ إلى خلق مشهد سامٍ من هذا الطراز الخلاعي مثل الذي تقدمه لنا المرحلة الأولى لحياة لوبي، أو مثل الأنموذج الورعي الطاهر الذي اختمر فتجمد في الحياة الدينية التقوية فإذا به كأحد القديسين المشهود لهم بالفضل، وقد امتزج في حياته الإقدام وهو صفة للبطل بالفكاهة التي إنما كانت تتطاير من الرفيق، فطلع علينا بصفاء الخاطر وانتقاد الذكاء والمرح، وهذه الصفة الأخيرة إنّما هي من ميزات زهادنا وقديسينا كما يجهلها اللذين يحاولون التحدث عنها دون سابق اطلاع».

وقد أكد كوتاريلو: «إنّ في المسرح اللاهوتي الرحب الذي يمتد من السماء حتّى الجحيم خاض المؤلف وتعرض لدرس ثلاثة أسرار كبرى عميقة الغور من أسرار العقيدة الكاثوليكية: النعمة والكمال النفساني والمحبة وهي التي كانت تهم المؤمن في القرن السادس عشر وتشغل الضمائر إلى أبعد حد، وما ضرّ كون هذه المسرحية قد قدت من صميم الحياة ولو كانت معقدة فهذا لا يُعدّ عقبة كأداء في وجه عبقرية سرفانتيس الذي نثر من درر فنّه على حادثة تاريخية جافة ما أكسبها روحًا أدبية وبلاغة عذبة المنهل».

ومن ميزات هذه المسرحية البارزة، الرشاقة والمهارة ثمّ براعة سرفانتيس في قرض الشعر إذ تظهر البحور التي نظم عليها مصقولة الأبيات صقلًا، منحوتة القوافي نحتًا.

نومانسيا:

مسرحية ذات أربعة فصول وأهم مسرحيات سرفانتيس على الإطلاق، نقدها كوتاريلو بقوله: ينبغي أن تحطم قوالب الجمال المسرحي لكي

تقرأ بلذة هذه المنتوجة التي ليست بمسرحية هزلية ولا بمأساة دراما بالمعنى المتعارف وقيوده، ولعلها شيء يفوق ذلك شيء يقوم بين النوع الفروسي والمأساة، فلقد حلّق سرفانتيس بأجنحة عبقريته إلى سماء الرمزية وساعدته مساعدة جبارة على الوصول إليها أطياف إسبانيا المظلمة فنهر دويرو، فالحرب، فالمجاعة، فالمرض ثمّ السمعة. وتمثل شيئًا يفوق مغزى ومعنى بطولة شعب أبيّ، تمثل اضطهادات وشقاء الوطن وقد سطع عليها شعاع ابتسامة الأمل في طيات قرون المجد الغابرة التي ما نضب معينها وما وقف عرقها عن النبض كما هو حال مرارة ذلك الحين، موضوع المسرحية موضوع حر طليق: الاستقلال الوطني، البطل الحقيقي.

نومانسيا؛ البلدة الشجاعة تمثل إسبانيا ونفس أشخاص المسرحية ليسوا غير مجردات وضعوا هنالك لدعم المفعولية.. ويلوح أنّ هذه المسرحية الجبارة تثير العجب من حيث الفكرة لا من حيث الإخراج رغم الجودة؛ لأنّها تبشر بانبلاج صبح جديد للمسرح مفعم بروح الانطلاق فسيح الأرجاء غزير المادة التي لم تعد تقتصر على التمسك بعصب تقليد حقيقة الحياة العارية للتحليق بها إلى أجواء الشعر، بل هي ظاهرة مباشرة لعوالي الأفكار سخرت لها كلّ الفنون عن طريق الإفصاح المحللّ».

ولم يكن النقاد الأجانب أقل مبالاة في المديح لدى التحدث عن مسرح سرفانتيس وعلى رأسهم اتباع مدرسة استلجل الرومنتية.

ونظرًا لفخامة هذا الموضوع الخليق بأن يكون موضوع ملحمة، تعد مجازفة خطيرة محاولة تطبيق شروط «الدراما» عليه ولهذا يقول اسثاك: «ينبغي ألّا ننتقد المؤلف لكونه تعرض تعرضًا عامًا للصفات؛ ولأنه

أضعف من قوة العقدة في غير ما موقف دون وجود رابطة ما خلا العلاقة التي تربط مباشرة أو غير مباشرة تلك المواقف بمصير نومانسيا».

ولا يقل وجاهة رأي شلي في مسرحية سرفانتيس هذه إذ قال: «لقد قرأتها وبعد أن خامرني الشكّ نظرًا لبساطة وسذاجة الفصل الأوّل، أخذت أشعر بالراحة والاطمئنان يدبّان إلى قلبي بشكل غريب وأخيرًا أصبحت ذا شغف قويّ إذ إنّ براعة الكاتب الذي قلّما يجاريه أحد في طرق أبواب إثارة العواطف وإنماء الإعجاب خلقت في ذلك الاهتمام البعيد الغور، واعترف أنّ في هذه المسرحية شيئًا نزيرًا مما يمكن أن يوصف بالشعر، غير أنّ التسلط على مقدرات اللغة وحسن انسجام القريض يحلقان إلى درجة تحمل بسهولة أيًا كان على الاعتقاد أنّه إزاء مؤلف شعري».

وليست آراء غوت وسيسموندي وتريكنور دون آراء الأولين مقامًا بل إنّ الأخير من هؤلاء الثلاثة قد أكد: «أن نومانسيا مسرحية سرفانتيس تحتل مركزًا أعلى بكثير من الذي يتربع فيه «فوستو» لصاحبه مارلو».

وفي سنة 1809 عندما ضربت القوات الفرنسية الحصار على مدينة سرقسطة أمر الجنرال بلافوكس حاميها بأصالة رأي أن تمثل مسرحية نومانسيا داخل الأسوار فتمكن إسبان القرن التاسع عشر من التطلع إلى تفاني أسلافهم اللذين عرفوا أن يتجرعوا كؤوس الحمام من أجل الحرية، فساد الحماس خلال التمثيل ودبت الحمية الوطنية في رؤوس المدافعية فخرجوا لمنازلة قواد أكبر رجل حربي عرفته تلك الأيام فهزموهم، وكان الفضل في انتصارهم يعود إلى أشعار سرفانتيس.

نُقلت هذه المسرحية إلى الإنكليزية ثمّ نفس المترجم تولى أمر نقلها إلى الألمانية.

وتقع هذه المسرحية في أربعة فصول على غرار سائر المسرحيات التي أنجلها سرفانتيس في المرحلة الأولى من نشاطه المسرحي.

المسرحيات القصيرة

أضعف هذه المسرحيات «قاضي الطلاق» وأمّا التي تحمل اسم «انتخاب رؤساء بلدية داغنثا» فهي سخرية ماهرة موجهة إلى الراغبين في حمل عصا السلطة، ومسرحية «السافل الأرمل المسمى طرمباغوس» تضع حلًا لمشكلة خطيرة هي أن يختار البطل صديقة من بين الكثيرات المرشحات إلى مثل هذا المنصب ووجه الشبه بينها وبين «الرنكونتي إي كورتديو» قريبة. وأما «قصص الأعاجيب» فلا ريب أنّه أوحتها له قصة لـ الكوندي لوكانور وهي تدور حول أناس رعاع كانوا يصنعون أقمشة سحرية بواسطتها يرون أشياء عجيبة ويقتصر هذا فقط على الأبناء الشرعيين للزوجين دون غيرهم. ومن أبرز الصفات التي لا تجاري وصف أخلاق شخصين: شنفايا وتشيرينو، و«الشيخ الغيور» تذكرنا بشخصية كريثالس في المسرحية المسماة «الاسترامني الغيور» والتي يمكن أن يكون منبعها قصة شعبية قديمة وأما «الفسكايينو المموه» فقيمتها ضئزى، و«الحارس الأمين» تدور حول منافسة غرامية بين وافه وجندي، وكثيرًا ما يعرض على المسرح الإسباني مثل هذا النزاع، وقد نسبت إلى سرفانتيس المسرحية الصغيرة المسماة «المتشدقون» التي ظهرت لأول مرة في الجزء السابع لمسرحيات لوبي دي بيغا سنة 1617 إلّا أنّ هذا صرّح بأنّها ليست من مؤلفاته ولهذا منذ ذلك الحين ما برحت تعتبر من مؤلفات سرفانتيس،

ويقوم موضوعها على أنّ أحدهم أراد أن يهذب زوجته الثرثارة فجاءها برجل يفوقها ثرثرة علها تنتبه إلى نقصها فتصلح نفسها.

إنّ في مسرحيات سرفانتيس لروحًا قوية وجرأة على العموم في السكب، تحليها مشاهد نوعية كلها حياة يكثر فيها المغزى وتسود نفسية البيئة التهتكية وعالم النور اللذان نقلا إلى المسرح في مؤلفات قصيرة ميزاتها العجيبة الصدق والمعنى العميق، ففيها يظهر السبر النفساني في أوسع أدواره كظهوره في خيرة روايات سرفانتيس الموفقة، ويجري فيها العصير الشعبي الساذج دون ما تكلف أو إضافات غريبة واللهجة طبيعية وسهلة دون أن تفقد شيئًا من مرارتها فتبدو كأنها جاءت من تلقاء نفسها. ف سرفانتيس في مسرحياته القصيرة يشكل الرابطة الوثيقة بين «الخطوات» لـ الوبي دي رويدا والمؤلفات الخالدة لـ كنيونس دي فنافنتي التي إنما تعد كنذير لمرنمات ضون رامون دي لاكروث.

المؤلفات المنسوبة إلى سرفانتيس

لقد فكّر كثير من فطاحل الكتاب مثل هرنندث غيرا وأسنسيو وضون أدولفو دي كسترو في أن ينسبوا طائفة من المؤلفات ـ جلّها مسرحية ـ إلى سرفانتيس ومن جملتها: رسالة نثرية إلى ضون دييغو دي استوديو كريو تتحدث عن عيد القديس خوان الفرتشي، ومسرحية هزلية اسمها: ملك كوادلوبي العذرا، أعاد طبعها الطباعون الأندلسيون والمسرحية القصيرة المسماة «سجن إشبيلية» يحتمل أن تكون للمخرج تشافس، ومستشفى المعلولين والسفال والمتطلعون والموشحات وضونيا خوستينا وكلاهورا.

وجلّ ما يمكن أن يُقال في هذه النسبة: إنّها غير ثابتة إذ إنّ الكتاب المذكورين آنفًا استندوا في احتمالاتهم هذه إلى عبارات لـ سرفانتيس جاء فيها أنّ بعض مؤلفاته القصيرة يتداولها الجمهور خالية من اسم صاحبها. وقد جاء في الرسالة التي وجهها إلى الكوندي دي لوموس مقدمًا له مؤلفه المسمى «البرسيلس» على ذكر ثلاثة من مؤلفاته: أسابيع الحديقة، وبرنردو الشهير، والجزء الثاني من «لاغالاطيه» التي لم تعرف بل لم تكتب.

الفصل الرابع

ضون كيخوطي

خَتَمَ أحدُ مشاهيرِ النُّقَّادِ ـ الذي ذَوَىَ غُصنه في حين كان ينتظر الشيء الجليل من أعماله واقتطاف الأثمار اليانعة من أشغاله ـ بحثه عن أكبر ممثل فرنسي كوكلان الخالد بهذه العبارات لنفس الممثل المذكور: «لنتصور يومًا كيوم الحشر دعيت فيه كلّ من السلالات البشرية لتقديم المؤلف الذي تتجلى فيه دون ما شائبة أخلاقها لتنال مركزًا في السماء حسب استحقاقاتها ومؤهلاتها فعلى ما أعتقد تقدم ألمانيا فاوستو، وإنكلترا هملت، وإسبانيا ضون كيخوطي، وإيطاليا لاديفينا كوميديا، وأخيرًا تتقدم فرنسا بتواضع وعلى شفتيها قد ارتسمت ابتسامتها الوضاءة السليمة لتلقي بدورها أيضًا مؤلفها ـ فيسأل العلي، ما هذا؟ ـ يا سيد الأسياد هذا طرطيف ـ حسن أجلس عن يميني».

لكن رغم وفرة الإطراء الذي وُجِّه إلى المسرحي الفرنسي الشهير، فالتقريظات التي استحقها مؤلف الكيخوطي تفوقها بمراحل، وعلينا أن نؤكد بأن سرفانتيس يعدّ بفضل كتابه الخالد، أحد العظام الثلاثة الذين عرفهم العالم، وجلهم وعجب بنبوغهم وهو أحد الثلاثة الذين لم تمسهم يد الحدثان بسوء بل زادتهم رفعة وسناء وكلما مرت الأيام علت قيمتهم

وجلّ مقامهم وأنه انتزع مع هوميرو وشكسبير كلّ ما دفن في صدر الفن الرحب: من نثر وشعر مسرح.

إنّ ضرير أزمير الذي تبدو وجهة الشبه بينه وبين سرفانتيس وثيقة العرى من حيث آلام الفاقة والإهمال والعيش في الظلمات والموت في الظلمات اكتسح سبيل الخلود؛ لأنّه كتب وصوّر أعمالًا خارقة العادة لآلهة وأبطال، والمسرحي الإنكليزي الذائع الصيت لأنه حدثنا عن لواعج أمير وعن غيرة قائد أسطول البندقية وعن شقاء صبين، إلّا أنّه في مؤلفاته قد طرق أمورًا من أبعد ما يتصوره العقل؛ كان يعمد البطل في الفصل الأوّل ويموت وهو شيخ في الأخير حيث يظهر الحفارون وقد جدوا في نبش الحفرة وهم ينشدون ويشربون، وغير ذلك من المشاهد التي تنم عن وضعية مجردة تقشعر لها الأبدان، مما يظن أنّها لزعماء المدرسة العصرية ورغم كلّ هذه العيوب فقد كُتب لأدبه البقاء شامخ الجذع كأرزة سنخها متأصل في أعماق التربة تتحدى عوادي الأيام بصلابتها ومناعتها وقوتها.

وأما سرفانتيس فهو الوحيد الذي جاءنا بأشخاص عاديين، لقد حدثنا عن مغامرات مجنون وعن كياسة رجل مسكين قليل ملح الجمجمة ـ على حد التعبير الإسباني ـ فعلى هذا يقوم المؤلف الذي شبهه أرفين بالتوراة من حيث الأمور الدنيوية، وقال هولند إنّ لهذا الكتاب المركز الأوّل بين روايات العالم، وقال بيدرمان بأنه يجل من أن يناله النقد بطائلة، وقال اللورد بيرون: لدى لذة قراءة الكيخوطي في لغته تضمحل باقي اللذات، ويرى فان إيفن أنّ في هذه المنتوجة أفضل درس لصقل الخيال وتربية القوى العقلية، ويعتبرها إمباري أعظم صورة شكلية تمكنت من خلقها العبقرية البشرية، ويشير فياردوت إلى الكفاح بين المثلية والوضعية، ويؤكد ريوس

أنّ المؤلف إنما هو تقليد الإلياذة، ويرجح بسطوس أنّه عير فيه على درس لتاريخ القرون الوسطى، ويرى «هرنندث مورخون إي بي إي موليست» أنّه درس الأمراض العقلية، وبوتش بلانك أنّه تقريع بالاضطهاد الديني، وديث دي بنخوميا أنّه يكاد يكون بحثًا عن الفلسفة الألمانية، وهو مؤلف يسجله الجغرافي ويعلق عليه البحري ويتبحر فيه العالم بالخفايا ويدرسه الأديب.

ولما كان يتسع متنه لحظة رحبة ويفتح دفتيه لكلّ ما يتعلق به، أصبح من الضروري للتوصل إلى معرفته معرفة حقة أن نقسم دراسته إلى موضوعات شبه مستقلة بل مستقلة تمام الاستقلال ولهذا سنتحدث: أوّلًا عن ظهور الكيخوطي في الوقت الذي كانت قد جنحت إلى الغروب شمس رواية الفروسية. ثانيًا: نجاح كتاب سرفانتيس، شيوعه في إسبانيا وفي الخارج، قضية جس النبض، بعض النظريات التي زعم اكتشافها في الكيخوطي. ثالثًا: أهم الشروح، المترجمون، صور الكيخوطي الفنية. رابعًا: موضوع الكيخوطي. خامسًا: أشخاصه. سادسًا: روايتا الكيخوطي: الفضولي الممل والأسير. سابعًا: تقليدات الكيخوطي. ثامنًا: ضون كيخوطي في المسرح. تاسعًا: الصحافة وضون كيخوطي. عاشرًا: الكيخوطي والنقد الوطني والأجنبي.

-I-

ظهور الكيخوطي

وقت جنوح شمس رواية الفروسية إلى الغروب

أكّد أحد مشاهير الكتاب أنّ إسبانيا، في غضون العصر السادس عشر، كانت تجري في أثر ما هو خارق: «كان قصّاصوها يروون ما هو بعيد كلّ البعد عن الحقيقة بل المستحيل بعينه، إلّا أنّ الفوران الوطني والكبرياء وليدة الأعمال الخارقة، كانا يخلعا عليها ثوب الأمر الطبيعي الممكن أن يأتيه الفارس المغوار، وما كانت لتقدر الاستحقاقات الأدبية فلذا كان يجتهد الكاتب في سرد الحوادث الخارقة للعادة، وكانت الحياة الاجتماعية الإسبانية تسير في سبل لا تقل وعورة، وما كانت سياستها أقلّ طموحًا ولا النظام الاجتماعي والاقتصادي أبعد عن ميادين الوهم وكان هذا الاتصال الوثيق العرى القائم بين الأدب والنظام الاجتماعي يقاوم بنجاح نفوذ المنددين والوعاظ إلى أن أقبلت أيام فيلبي الثاني والثالث المؤلمة، فشعر حينئذٍ الكل بالخداع وأتيحت لـ سرفانتيس الفرصة لنشر الكيخوطي» هذا ما قاله فرنسيسكو كناليخس فإذا بهذا الأستاذ الكبير لا ينطق بغير الصواب. إنّ الأدب الفروسي الذي يزعم أحدهم أنّه جاء من الشرق الأقصى وبزعم الآخرين هو وليد أوربا كان ضروريًا لإذكاء

نار الحمية في النفوس في الوقت الذي اندلعت فيه نيران الحروب بين الديانتين المسيحية والمحمدية.

كانت الحوادث الخارقة للطبيعة تثير عواطف الشعب الذي كان يميل ميلًا جنونيًا نحو إبطاله فلذا كان من الواجب خلق أمر عجيب يجعل من البطل رجلًا من طينة فوق طينة سائر الرجال فلم يكن هذا سوى تتمة أو بالأصح نسخة عن حروب أبطال اليونان وتروادة التي تغنى بها الشاعر الخالد.

ففي أواسط القرن السادس عشر استحوذت الإنتاجات الفروسية على التراب الإسباني غير أنّها في نفس الوقت أحطت من الهدف السامي الخالص الذي كانت تتجلى به قصة الفروسية الإسبانية الأولى عن أماديس دي غولا الشهير، ولا شك أنّه كان في الحرب المقدسة للاستيلاء على القدس للشعراء المتجولين وجود وكان هؤلاء يطوفون على المعسكرات فيقصون أعمال أبطال وهميين حملتهم شجاعتهم العديمة النظير على الإتيان بأكبر ما يتصور العقل من الخوارق.

ومما لا ريب فيه أنّه في نفس القرن الخامس عشر أثناء الحرب التي مرَّ على هبوبها في إسبانيا ثمانية قرون كان أولئك الذين يضربون الحصار على غرناطة ليحملوا أبا عبد اللّه على تسليم آخر معقل باقٍ تحت سيطرة أحفاد طارق وموسى، لا يجهلون روايات أماديس وفلوريس وبرطينوبلس وغيرهم من أبطال الفروسية.

وعندما انتهت الحرب الضروس التي أُضرمت نارها في استوريا، قيض لروح الفروسية أحد الكتاب فارتفع به إلى الدرجة المثلى وسكب في

قالب جديد أعمال الدونثل دلمار وحينئذ ظهر الحاكم غرسي رودريغث دي مونطلفو بمؤلفه «أماديس» محورًا إذ جعل منه رمزًا لروح الفروسية وهكذا جاء أماديس دي غولا رمزًا للفرسان العاشقين وللمدافعين عن الإيمان العيسوي.

وكان على المرء في ذلك العهد أن يختار بين الطرق الثلاث: الكنيسة، أو البحر، أو القصر الملكي. ففي الدير حياة هادئة مريحة إلّا أنّه تقوم إلى جانبها التضحيات: الصيام المتواتر والحمية. والبحر يوازي ما يسمى حياة الكفاح في أميركا أو خوض غمار الحروب الدائرة رحاها مع تركيا، والقصر الملكي، وإن كان هو العيش في الحاشية فقد تكتنفه البطالة القتالة، فما هي الأهداف المُثلى التي كان يحلم بها الشعب الإسباني؟ الفروسية وهي الشرف، هدف علوي وهو الحب، وهدف ديني عاطفي وهو الإيمان. ونزال الأبطال كان للدفاع عن الشرف والحبّ والحروب مع المسلمين لرفع كلمة الإيمان والعزة في سبيل الملك والدين والسيادة. وكان المتأنقون يتجشمون المركب الخشن ويخوضون أقسى المعارك، وكان الفرسان يطيعون أوامر أسيادهم طاعة عمياء مهما انطوت عليه من إجحاف واستبداد، يتركون أشغالهم الخاصة ويهجرون متاعهم في سبيل الدفاع عن أراضي ملوكهم. والمطّلع على حروب الاسترداد يقف على الكثير من مجازفاتهم ويقدر روح الفروسية الوثابة التي كانت تسيطر عليهم.

ولقد قال إشوارتز إنّ هذا العصر لشهير من وجوه عديدة، وهو عصر فيه تمّت وعمّت أهمّ الاختراعات والاكتشافات: الورق، البارود، الإبرة المغنطيسية، والمطبعة. وفيه يكتشف الجنوي العظيم عالمًا جديدًا وتتبدل

مبادئ سياسة الملوك والشعوب، في هذا العصر يثور العقل على الإيمان وتحدث حركات أدبية وفنية من أبهى الحركات وكل هذا ليس ليقوى على تغيير وجهة الأفكار فحسب بل - بالعكس - أذكى النفوس وزاد في تعطشها إلى المجازفات وحب الثروات والرغبة الجامحة في القيادة والأمر والنهي وهو الشيء الذي يمتاز به رجال هذا الزمن». وكان محقًا هذا المؤرخ الشهير في قوله؛ فقصص أعمال أرتوس الذائعة الصيت وأفعال فرسان المائدة المستديرة وحب لانثاروتي وخينبرا وتريسطان وإيسولدا كانت كلها أمورًا معروفة حق المعرفة وأمّا أفعال أماديس وبلمارين الخارقة العادة فكان يعلق عليها وتروى بشكل لا يصح معه أن يُقال إنّها غير واقعية وكان يعتقد بها كما لو كانت كذلك وأما الكتب التي كانت تحمل في بطونها هذه الأقوال فكادت تكون الغذاء الأدبي الوحيد للشعب الإسباني في غضون القرن السادس عشر.

ولما رأى الكتاب تهافت الجمهور على حوانيت الوراقين واختطاف روايات المشائين الذائعي الصيت، فكروا في أن يواصلوا القص والنسج على غرارها واستخدام سير أولاد أولئك وأحفادهم وكلما كانت تظهر الطبعات من جديد كانت تطلع معها أعمال جديدة، وفتحت الخوارق مجالًا واسعًا وحقلًا خصبًا أمام المؤلفين المحمومي الأفكار الوهمية للكتاب ووصف أعمال لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، وقد أحرز على قصب السبق في هذا المضمار فليسيانو دي سلفا. وأحدث هذ الطراز من الأدب في إسبانيا افتتانًا أكثر منه في فرنسا وإيطاليا، واجتازت المشاهد الوهمية التي تتحدث عن الأسد الطائر والجنيات والمردة والأقزام والأوانس المغبونات والفرسان الكرام أعتاب القصور والأكواخ على حد سواء

وفرضت إرادتها على كلّ من الطبقتين المثقفة والجاهلة، واعتقد الشعب المتكاسل الذي ما شعر قط بميل نحو الفلاحة والزراعة معين الثروة، اعتقادًا راسخ البنيان، بكل ما رواه عليه أولئك الكتّاب المنجلين لمثل تلك الخرافات التي رأى فيها ـ وفيها وحدها ـ مستقبلًا زاهرًا يغنيه عن سواها، ولمّا كان يظهر من حين لآخر في تلك الكتب أنّ الأوانس كن يرتمين في أحضان العاشقين، حدا هذا بمسيري دفة أمور ذلك الزمن وأرباب الشرع والفلاسفة لأن يرفعوا أصواتهم ضد طغيان تلك المنتوجات المملوءة بالترهات ولكن كيف يكتب لدعواهم النجاح وإمبراطور كـ كرلوس الخامس يتسلى ويروّح عن نفسه بقراءة «البليانيس دي غراثيا» وولده الوقور الزاهد فليبي الثاني يمثل دور الفارس المشاء في الأعياد والمنازلات؟ وكيف للشعب أن يمل هذا النوع من الكتب وقد قيل إنّ تريسا دي خيسوس كانت جد مولعة بهذا الطراز الأدبي وأن ولعها بلغ من الشدة درجة حملتها على التأليف فيه؟

حكم الفلاسفة والأخلاقيون والشارعون بفساد هذا النوع من الإنتاج ولهذا نرى دييغو غراثيان في المقدمة التي كتبها لمؤلفات خنوفنتي: «بالأمثولة التي يلقيها هذا الكتاب أنفث في القراء الإسبان ذوق الفهم وأحملهم على عدم الالتفات إلى كتب الأحاجي والأكاذيب التي يسمونها كتب الفروسية التي يفوق وجودها في إسبانيا ما هي عليه في أية مملكة أخرى وهي لا تصلح إلّا لقتل الوقت سدى، والحط من قيمة الكتب الحقيقية التي تنطوي على النظريات الصائبة وهي فوق ذلك عديمة الفائدة، ولأن مثل هذه الخزعبلات والخرائف التي تُقرأ في تلك الكتب تخلل وتشوش حقيقة الأخرى وتفقد من صدقها لسرد الوقائع التاريخية» هكذا تكلم

واحد من أكبر الأدمغة التي عرفت في ذلك الوقت وتلاه غرانادا الوقور فأصدر الحكم الآتي: «والآن أود أن أسأل الذين يقرأون كتب الفروسية الملفقة والمحشوة إفكًا، ما هو الدافع الذي يحدو بهم إلى ذلك؟ فها هم يردون عليّ بقولهم: إنّ بين الأعمال التي تبصرها عيونهم الجسمانية اثنين هما أبدعها وأعجبها: الجدّ والقوة لأنه لما كان الموت ـ على حدّ تعبير أرسطاطليس ـ آخر الأمور الهائلة وأبغض شيء عند سائر الحيوانات فإنّ رؤية رجل يتحلى بصبغة المزدري والمتغلب على هذا الخوف الطبيعي، يثير إعجابهم. فمن هنا يتولد تهافت الناس لرؤية المبارزة ومصارعة الثيران وما شاكلها من الأمور، وشبيه هذا الإعجاب ـ كما يقول الفيلسوف ـ يسير بصفة مستمرة جنبًا إلى جنب وممزوجًا بالحبور واللذة اللطيفة، ومن هنا أيضًا يتولد اتخاذ أوصاف الدروع وشارات الشرف للأسلحة دون غيرها من الميزات. فلذا إذن شمل هذا الإعجاب الجميع ولذا لم يقتصر على انتقاء مكانته وتصور الأمور الحقيقية بل إنه تعداها إلى الخزعبلات والأوهام. ومن هنا تولدت رغبة الكثيرين وولعهم بقراءة كتب الفروسية الكاذبة» وكما لو كان هذا ليس بكافٍ، فها هو الراهب بدرو مالون دي شايدي يقول في كتابه المسمى «كتاب محادثة المجدلية»: «ما هي كتب الحب، وديانس، وبوسكانس وغرسيلاسو وكتب الخرافات والخزعبلات عن أماديس وفلورياسيس وضون بليانيس وغيرها من أساطيل الأكاذيب المماثلة سوى خنجر بيد رجل في حالة الهيجان؟... وما عسى أن تصنع الآنسة التي لا تكاد تدب على قدميها فتجيء بديانه في جيبها؟ ولئن كان الكأس الجديد ـ كما قال أحد الشعراء ـ يتشرّب ويحتفظ لمدة طويلة بطعم الشراب الذي يهرق فيه وكان الطفل والطفلة من الأقداح الجديدة

وقد هرقنا فيهما خمرًا سامًا من هذا العيار أليس من الواضح الجلي أن يحتفظ بذلك الطعم وقتًا طويلًا؟» ويتخلص من بعد إلى التحدث عن كتب الفروسية بالذات فيقول: «ويقرأ الآخرون تلك الأحلام الواهية الكاذبة التي لا يعرف لها أوّل من آخر، والتي قد شحنت بها كتب الفروسية التي شاءوا أنْ يخلعوا عليها هذا الاسم والتي لو عرفوا أن يقدروا شرف التعبير ويحلوه المكان اللائق لأسموها، وكانت التسمية أفضل «كتب اللصوص» ولو سألت الذين يقرأونها ما استفدتم من مطالعتها لأجابوك: «قد تعلمنا الإقدام والجرأة اللازمة لنقل السلاح، وحسن الأدب لمعاشرة النساء والوفاء والإخلاص لهن، والشرف وعلو الهمة وكبر النفس إزاء الأعداء الخ». إلّا أنّ كلّ ما بشّر به أصحاب الفكر وحملة الأقلام الزنيقة كان يذهب أدراج الرياح وكانت أصواتهم يرون صداها في قعر الوهاد المقفرة، إذ إنّ كتب الفروسية كانت تشق سبيلها دون ما عناء بل كانت تنتقل في شبه الجزيرة الإيبرية تنقل الفاتح وقد ظللتها أكاليل النصر. وكانت مطابع إشبيلية وبلد الوليد ومدينة تخرج الطبعات تلو الأخرى لقصص الأبطال المختلقين الوهميين وكلما خرجت طبعة جديدة إلى الوجود تبدلت معها شخصية البطل الذي تحدثت عنه الطبعة السالفة وخصوصًا شخصية أمير المشائين أماديس دي غولا.

ورفع سنة 1553 طلب إلى مجلس الأعيان في بلد الوليد التمس فيه عدم السماح بطبع كتب الفروسية من جديد إلّا أنّ الإمبراطور اعتصم بالسكوت عن الجواب ولم يصدر قانونًا في هذا الخصوص إلّا بعد سنوات، أي سنة 1558 تاريخ إرسال رد الأميرة ضونيا خوانا على مجلس الأعيان وبعد انقضاء أجل ليس بقصير عمّم على نواب الملك والمحاكم والولاة الأمر

بعدم ترخيص طبع وإدخال كتب الأحاجي والأكاذيب والتواريخ الملفقة إلى مناطق نفوذهم لأي إسباني أو هندي ولئن كان قد حذّر إرسالها إلى الهند أميركا ففي إسبانيا كانت تظهر طبعات لا تُعد ولا تُحصى من هذه الكتب، ولما بلغت وفرتها درجة لا يتصورها إنسان وتفاقم شأنها وشأن أكاذيبها أخذت في الانحدار شيئًا فشيئًا وقلّ التهافت والإقبال عليها، وما كادت تخف الغلواء وتهبط حرارة الولع والحماسة لمؤلفات الفروسية حتّى ظهر أعظم تقريع جاء ليرفس هذا النوع الأدبي ويجهز عليه، وفي أوائل القرن السابع عشر ليس إلّا غابت شمس رواية القرون الوسطى، إلّا أنّه تصح الإشارة إلى أنّه في بعض الأحيان أعيد طبع كثير من مثل هذه التي نغفلها لعدم أهميتها ونكتفي بالإلماع إلى ما يعنينا من حيث محاولة انبعاث هذا الطراز الأدبي بعد أن كان قد دُفن نهائيًا وإلى الأبد.

فرواية الفروسية إذن شرعت في الاضمحلال في الهزيع الأخير من القرن السادس عشر ورأينا كيف ظلت تكافح من حينٍ لآخر وتصدر عنها طبعات لم يُكتب لها البقاء في غضون القرن السابع عشر نفسه وكيف أنّ في طلائع هذا صدرت بعض القصص، إلّا أنّ الحماس لم يعد قويًا مما ساعد على عدم تعدد الطبعات مثلها في القرن السابق، وهذا لا يعني أنّ روح الفروسية قد قضي عليها تمام القضاء بل لها صفة الطابع الذي يميز تلك المرحلة، نعم وإن توارى الفرسان والأبطال من متن الروايات فليتخذوا مقعدًا رفيعًا في حديقة الأدب الإسباني الجديد: وهو المسرح.

وبمجرد اطلاعنا على هذا يزول العجب من رؤية لوبي دي بيغا يعمل على إحياء مغامرات المركيس دي منتوا، وفيا مديانا ينادي بمجد نيكيا، ومونطلبان يحيي أعمال بلمرين دي أوليفا، وكسترو ينتزع هتاف الجمهور

في الكوندي دي إيرلوس ومولد منتينوس، ومن تهافت نفس هذا الجمهور على المسارح الشعبية وتصفيقه تصفيقًا محمومًا لأبطاله المحاطين آنذاك بهالة من العاطفية وهم جادون في استعمال الرماح والأوضام هذا وإن نقل مثل هذه الأعمال إلى خشبة المسرح حمل الجمهور على الاعتقاد بأنها لأناس كانوا من لحم ودم، وعادت إلى ذكرياتهم أعمال غونثالو دي غوثمان وخوان دي مرلو والفران دي فيغيروا وغوثيري كيخادا وديغو دي فليرا.

أمّا مؤلفات الفروسية فبعد أن اجتازت رتاج كلّ قصور ملوك أوروبا اتّخذت لنفسها في إسبانيا صبغة أصلية وعندما كانت تهرول نحو المغيب ظهر ذلك المؤلف الخالد الذي قضى على ذلك الأدب الملفق العليل. وهذه المنتوجة هي كتاب سرفانتيس المسمى: ضون كيخوطي.

ولكن ما هو الغرض الأسمى الذي سعى وراءه سرفانتيس لدى تأليفه كتابه هذا؟ وماذا قصد من طبع مغامرات «نبيل المانتشا» التي لم ترها عين؟ لقد تضاربت الآراء وتباينت في هذا الصدد ورأى المعلقون والنقاد غايات جد مختلفة بل إنهم انقسموا على أنفسهم إلى مجموعتين.

ولقد كتب المركيس طوريس في تأييد الجزء الثاني من الكيخوطي أنّه رأى «غزارة في المادة وسعة في الاطلاع والاستفادة وهذا ما ينطبق على موضوعه المتبع بمهارة لاستئصال كتب الفروسية الكاذبة على وفرتها والتي فشت عددًا وتجاوزت كلّ حد يقبله العقل وترضاه العدالة». ويرى ديث بنخوميه: «إنّ سرفانتيس لم يسع في زمانه للقضاء لا على الفروسية المثلى ولا على بقايا الفروسية الحقيقية ولو فعل هذا لكان برهن على جهل الماضي والحاضر والمستقبل» ويرى كليماسين أنّ: «في ضون كيخوطي

صور الأوجه المضحكة والنواحي الهزلية للفرسان المشائين وفي سنتشو حامل درعه ما هو مضحك في اللذين يقدّرون ويجلّون خوارق الفروسية» ويرى مينث أنّه: «ما صخر بل ما حاول قط النيل في أدنى شيء من أفكار الفروسية» ثمّ يواصل اجتهاده في هذا الموضوع ليقول مؤكدًا: «لم يصب الذين حاولوا التمسك بأن مؤلف سرفانتيس إنما هو هجاء قارس لكتب الفروسية». ولم يقتنع بهذا القدر بل إنّه توسع في دراسته وبحثه إلى أن أردف آراءه برأي آخر فقال: «إنه ليس فقط لم ير في الكيخوطي ذلك الهجاء اللاذع وذلك القدح الموجع ضد كتب الفروسية المنسوبة إلى نفس الكتاب بل يعتقد أنّ غاية سرفانتيس الحقيقية كانت ترمي إلى رفع شأن أفكار الفروسية القديمة الشريفة».

ويشاطره هذا الرأي ميكال س. أوليفر في قوله: «إنّ ضون كيخوطي ليس بهجاء بل تقريظ لروح الفروسية والقرون الوسطى تلك الروح التي احتضرت على يد الانبعاث الوثني، الشهواني، الفاقد لمعنى الاحترام المفعم شهوةً وطموحًا ونزقًا وسباتًا» وتصح الإشارة في هذا المقام إلى أنّ أغوسطين دوران كان قد كتب من قبل: «إنّ المؤلف لم يجرد قلمه من غمده ضد الفروسية القديمة التي لها الفضل وحدها في استرداد الوطن وتحريره وإنما جرده ضد ذلك التصنع والزي المستخدمين فيما بعد للتشويش أو للدفاع عن قضايا لا تمت إلى تلك بصلة». وكتب العالم خيل إي ثاراطي: «إنّ الغاية من كتاب سرفانتيس إحياء ذكرى الفروسية وتطهيرها من الشوائب الكثيرة التي ألصقتها بها الجماعات المحمومة فشوهتها». غير أنّ أحد كبار الدارسين لمؤلفات سرفانتيس وهو مريانو امنتريا الذي أصدر في مدريد سنة 1843 نشرة تحت عنوان: «تبجيلات

مرفوعة لذكرى سرفانتيس» لم يوافقه على ذلك إذ قال: «إنّ مؤلف هذا الكتاب الذائع الصيت قد سدد ضربة قاضية إلى فساد ذوق زمانه وإلى العيوب التي جاءت كنتيجة محتمة لتلك القراءة الشاذة، قراءة كتب الفروسية التي نشرت ظلها فوق ربوع أوربا فأفسدت الأخلاق ونالت من المروءة والكرامة وأغرقت العادات وسعت بواسطة الرومنتي الذي لا يقبله العقل إلى إشادة جدار لا تنفذ منه الأنوار التي كانت أضواؤها تتلألأ في روحه المتحفزة وبصيرته الثاقبة».

وفي غضون هذا القرن في حفل رهيب أقيم تمجيدًا لذكرى هذا العبقري الخالد سمع صوت حجة زمانه مننديث إي بلايو يقول: «إنّ سرفانتيس لم يقصد قتل فكرة مثالية بل قصد تحريرها ورفع شأنها إذ إنه أضاف إلى متن كتابه كلّ ما هو شعري ونبيل وجميل في الفروسية ولم يأتِ كما زعم بعضهم بمؤلف منافٍ ولا برفض جاف قاحل بل جاء بمؤلف مطهر ومكمل».

ونكتفي الآن بهذا القدر من آراء النقاد والمعلقين حيث إنّ تعددها يوازي تعدد الأذواق ولنتساءل: مَن مِن هؤلاء يقترب إلى حقيقة الغاية التي أنشدها سرفانتيس لدى تفكيره في موضوع كتابه؟ فلنقف إذن على ما قاله المؤلف نفسه.

كتب سرفانتيس في مقدمة الجزء الأوّل من ضون كيخوطي أنّ مؤلفه «إنما هو ابتداع ضد كتب الفروسية» وأنه «لا يرمي إلّا إلى تحطيم السلطان والمكانة التي اكتسحتها تلك الكتب في العالم وفي نفوس العامة» وأنه كذلك «فإنْ يقرأه المصاب بالسويداء يضحك والطروب يزداد طربًا والساذج لا يتبرطم، والزنيق يعجب من الابتداع والوقور الخطير لا يزدريه

ولا الحكيم ينكر عليه الثناء والتقريظ» ويتابع فيقول: «القصد منه دك صروح كتب الفروسية هذه التي ملّها الكثيرون ومدحها السواد الأعظم».

وفي الفصل 47 من الجزء الأوّل يدلي برأيه في هذه الكتب عند قوله: «اعتبر اعتبارًا قطعيًا أنها مضرة بالجمهور... وما حمَّلت نفسي قط مشقة قراءة أحدها من أوّله إلى آخره... فهذا النوع من الأدب يقع ضمن دائرة الخرافات التي ترمي إلى التلذذ فقط دون أن تهذب... وما دام هدفها الرئيسي إيجاد اللذة فيتعذر عليّ كشف النقاب عن كيفية بلوغها الهدف المُرمى إليه وهي محشوة بهذا القدر من الخزعبلات... وأيّ جمال يمكن أن يوجد، بل أي مدلول عقلي في كتاب أو خرافة تقول أنّ فتى عمره ست عشرة سنة يطعن ماردًا كالبرج بالسكين فيقسمه إلى شطرين كما لو كان هشيشًا؟ وأنه متى وصف لنا موقعة يصفها بعد أن يقول أنّ العدو جُرد لساحة القتال مليون مقاتل؟ ثمّ يدعونا صاحب الكتاب قسرًا كي نصدق أنّ الفارس انتصر على هذا العدد الجرار من المقاتلين بقوة ساعده المفتول ليس إلّا... وأيّة عقلية إن لم تكن همجية ترتاح إلى قراءة أمور تحدثنا عن برج عظيم غص بالفرسان، يمخر عباب اليمّ كسفينة تجري الرياح وفقًا لما تشتهي وتمسي اليوم في لمبرديا وتصبح غدًا في أراضي النجاشي خوان دي لاس أنديس أو في أمصار أخرى ما وصفها بطليموس ولا رأتها عين ماركو بولو؟».

لقد انتقد سرفانتيس بهذا الشكل المحكم كتب الفروسية وهذا لا يعني أنّه لم يسد النصائح في كيفية تأليف مثل هذه القصص ما دام فيما بعد قد كتب أنّ فكرًا صائبًا يمكن أن يطلق العنان لقلمه فيصف الغرق والآلام والحروب والمبارزات والقواد الحكماء الرزناء والأعداء الماكرين

والفياشين إلّا أنّ كلّ هذا ينبغي أن يكون: «بأسلوب طلي هادئ وابتداع حاذق يميل على قدر الإمكان إلى الحقيقة نفسها» فهكذا يعلم المؤلف ويفرح وهي الغاية القصوى التي ينشدها كلّ من صاغ مثل هذه الكتب.

يتضح لنا من هذا كيف أنّ سرفانتيس غربل خرافات هذه الكتب ونادى بتجريدها من كلّ ما لا صلة له بالحقيقة من غير أن يمسّ شرف الفروسية ومثالها الأعلى وحب المرأة الأمر الذي وصف وصفًا رائعًا عند أماديس دي غولا ولفق تلفيقًا مخزيًا عند أحفاده.

***

لا يسوغ بوجه من الوجوه لـ سرفانتيس أن يسخر من مثال الفروسية ومن المجهود البشري لبلوغ غايته نظرًا لما في حياته وفي كثير من مواقفه من دلائل على أنّ في صدره روح ذلك المغامر القح، فالأعمال التي جرت في الأسر عندما حاول الفرار لا لخلاص نفسه فقط بل لخلاص رفاقه ثمّ إلقائه التبعة على نفسه وتحمله مسؤولية هذا الذنب الخطير دون سواه مدّعيًا أنّه هو الذي دبّر خطة الفرار معرّضًا نفسه للإعدام، لهي من الأمور التي تتناسب مع أعمال الفرسان الأبطال، ولما كان سرفانتيس ذلك الرجل المتحمس لسلالة هذه الكتب ورأى مثال الفروسية الأعلى قد هتكت حرمته وبات على الحضيض انتضى قلمه من غمده دفاعًا عنها ساخرًا متهكمًا على الملفق والكذب منها. ولذا يهزأ من بليانيس دي غراسيا لدى تحدثه عن فتى عمره ست عشرة سنة يقتل ماردًا كالبرج قدًا، ويسخر من الأمور التي تقرأ في البوليشسني دي بويسيا ولاس سرغس دي اسبلنديان ولا يمكن أن يصدقها بشر، ويضحك من البرج المسحور لصاحبته: ضونيا دلفوندو فالي المذكورة في فلورنبال دي لوكا. وفي وسعنا أن نأتي بأمثال

عديدة من كتب الفروسية التي تعرض إليها سرفانتيس فرشقها بسهامه المرة اللاذعة، إلى كلّ هذا استند سرفانتيس ليصور في مخيلة «النبيل المانتشاوي» المحمومة أمورًا وهمية لا يقع عليها بصره وإنما هي وليدة تلك المخيلة الميالة للفروسية المشبعة بروحها فلذا عندما يصطدم بالحقيقة تستحيل القصور إلى خانات والمردة إلى مطاحن هوائية.

فما ضون كيخوطي، إذن، سوى كتاب أضيف إلى كتب الفروسية نظرًا لكون مؤلفه كان يتصف بميزات عرف منها أنّه رجل خيالي، مثالي، يتيه في دنيا الأحلام على غرار بعض أبطال تلك الكتب وكلّ ما هنالك أنّ سرفانتيس أحسّ بالألم يحزّ قلبه عندما رأى كيف كانت تشوه صورة أماديس دي غاولا وأقضّ عليه مضجعه أن يحور كتاب قصص المشائين الحقائق وأن يخفضوا إلى الحضيض زورًا وبهتانًا بمثال الفروسية الأعلى فعزم على الاستهزاء من الشطط الذي ضمته بين دفتيها تلك المؤلفات فلهذا قابل بين خطط المشاء والحقيقة أي الرؤية الثنائية للأشياء إذ قد يستحيل خنق روح الفروسية التي يرمز إليها الشرف والحب والسيادة وإنما يمكن تطهيرها وغربلتها من كلّ ما علق بها لينال من كرامتها على مر الزمن، ومن العوائد التي أخذت تتسرب إليها فانتقى كلّ ما احتوت عليه كتب الفرسان المشائين من شريف ونبيل وشعري وعلوي وغيرها من الميزات المشتة فجمعها وحلّق بها. وفي وسعنا أن نؤكد مع العبقري الخالد مننذث إي بلايو أنّ سرفانتيس لم يقتل فكرة سامية بل إنه حورها ورفعها.

- II -

نجاح كتاب سرفانتيس

شيوعية في إسبانيا وفي الخارج، قضية جس النبض، بعض النظريات التي زعم اكتشافها في الكيخوطي

يمكن أن ينعت ظهور الكيخوطي كنجاح مطبعي باهر إذ قبل أن يعرض في واجهة ورفوف مكتبة الوراق خوان دي لاكوسطا كان موضوع حديث الحلقات الأدبية والمجتمعات التي انقسم أعضاؤها إلى محبذين ومنتقدين.

وأخيرًا سنة 1605 ظهر الكتاب وعرض للبيع المؤلف الذي إنما جاء ليرفس رواية القرون الوسطى المنحطة نظرًا لما فيها من القصص والخرافات عن الفروسية التي ساد منتوجها في إسبانيا طيلة قرن وطمس على سائر العوامل الأدبية الإسبانية، وأما عرض ضون كيخوطي فكان سنة 1605 لا سنة 1604 كما حاول أن يثبت ذلك بعض الكتاب، وليس من الصعب إثبات هذا الأمر حيث إنّه في سجل أخوية الطباعين في مدريد قد اتضح أنّه سلمت بتاريخ 26 مايو سنة 1604 نسختان من الكيخوطي تحتويان على 83 دفترًا وأن الامتياز الممنوح من الملك لطبع كتاب سرفانتيس مؤرخ في بلد الوليد 26 سبتمبر سنة 1604 ولئن كان الأمر كذلك

فينبغي الإلماع إلى أنّ المصحح سلم بدوره بعد صدور الامتياز الملكي النسخ إلى الطابع في شهر ديسمبر وفي نفس هذا الشهر أعيد الكتاب إلى بلد الوليد ليقوم السادة أعضاء المجلس بتعيين ثمن النسخ ثمّ أعاده هؤلاء السادة في أواخر الشهر المشار إليه حيث إنّهم عينوا ثمن النسخ في 20 منه وفقًا لما في التعريف الذي يشهد بأنهم جعلوا ثمن كلّ دفتر ثلاثة مرافيدس ونصف الخ. فيمكننا استنادًا إلى هذا أن نؤكد أنّ الكتاب عرض للبيع في أوائل شهر يناير سنة 1605.

وزيادة على ما تقدم لم يقع العثور على النسخة المدريدية التي يزعم صدورها سنة 1604 والتي أثارت اهتمام المصنفين في السيرة السرفانطية.

ونعيد هنا كما قدمنا أنّ ظهور الكيخوطي عُدّ نجاحًا مطبعيًا باهرًا واعتمادنا في القول على عدد الطبعات التي ظهرت سنة 1605 ولئن شاطرنا بعض المصنفين في السيرة السرفانطية آرائهم لعلمنا أنّها تسع: ثلاث منها في مدريد وثلاث في لشبونة وثلاث في بلنسية.

وقد أشار أحد المولعين بالأدب الإسباني وهو فولشه دلبوسك في مقال نشره في المجلة الإسبانية إلى التناقض الواقع في الطبعات البلنسية الثلاث التي ظهرت سنة 1605 وهذا التناقض هو نفس الذي حصل في الطبعات التي ظهرت في لشبونة وإنما اقتصر على الصورة التي تحلي دفة الكتاب.

ويعتقد كوتاريلو إي موري أنّ هناك طبعة أخرى ظهرت في برشلونة ولا يمكن الجحد من أنّ كثيرًا من الكتب التي كانت تطبع في مدريد كانت تصدر معادًا طبعها في برشلونة في نفس السنة. أمّا كتب سرفانتيس فهي

بعيدة كلّ البعد من هذا القياس حيث إنّ رواية «لاغالاطيه» لم تُطبع في برشلونة حتّى سنة 1618 والقصص المثلى سنة 1613 ولم تعرف طبعة برشلونية «لسفرة البرناس» والمسرحيات القصيرة في القرن السابع عشر إنما ظهر فقط في مدريد وبرشلونة في نفس السنة المؤلفان المسميان: «برسليس وساخيسموندا» وما قيل في هذين المؤلفين ينطبق على الكيخوطي من حيث ظهوره في هذه المدينة.

وهناك من يؤكد أنّ طبعة من الكيخوطي ظهرت سنة 1605 في برشلونة استنادًا إلى ما جاء في مقدمة الجزء الثاني من الكتاب نفسه: «وعندي أنّ ما يربو على 12000 نسخة قد ظهرت من هذا التاريخ وإلّا فلتتكم البرتغال، وبرشلونة وبلنسية حيث وقع طبع النسخ المشار إليها وعلاوة على هذا فقد شاع وذاع أنهم يطبعون منها في إمبارس...» وقد يكون المؤلف كتب: «برتغال وبروسالس، وبلنسية» وصف الصفاف «برشلونة» عوضًا عن «بروسالس» ومن مجرد مقارنة صورة الدفة للطبعتين المدريديتين يظهر أنّه حيث قيل في الأولى «الكوندي دي بنلكثر» وضع الصفاف «الكوندي دي برشلونة» ونجزم أيضًا أنّ الذين يعتقدون أنّ زوريتا الطباع البرشلوني الذي نشر الكيخوطي سنة 1617 كان قد ابتدأ الصف وأتمه سنة 1605 ما زالوا في ضلال.

وتتعلق بنشر الكيخوطي مسألة خطيرة جدًا ألا وهي: قضية ظهور النشرة الشهيرة المعروفة «بقضية جس النبض» وما دار في خلدنا قط أنّ مؤلفًا مثل الكيخوطي أحرز على نجاح منقطع النظير كان في حاجة إلى إعلان ليسترعي انتباه الناس.

والنشرة المشار إليها مع ما فيها من رشاقة وبراعة لا تجاري إنشاء

الروائي الذي لا يقلد بل تدل في حدّ ذاتها على أنّ أدولفو دي كسترو كان واقفًا على عدد وفير من التعابير والخفايا اللغوية التي كان يستعملها المؤلف المذكور، إلّا أنّه كان في الإمكان أن تلقى ارتياحًا عظيمًا لو لم يقصد منها جعل مزيج الزنك والنحاس في مقام التبر الخالص الأمر الذي قلبها رأسًا على عقب وحمل الأنفس على الاشمئزاز منها وأحدثت جدالًا حامي الوطيس بين الذين كانوا يعتقدون أنها لـ سرفانتيس والذين ينادون ويؤكدون بأنها خديعة.

أمّا حكاية هذه النشرة فهي كما يأتي: «يعللون أنّ الكيخوطي قابله الجمهور ببرودة وأنّ مؤلفه حبًا في حثّ الفضولية واسترعاء الانتباه دفع إلى المطبعة نشرة مغفلة إلّا إنها تتوقد براعة ورزانة انتقد فيها صوريًا الكيخوطي انتقادًا يوضح أنّه هجاء مفعم بالإرشادات والظرافة سعيًا وراء استئصال قراءة كتب الفروسية المستفحلة وأنّ الأشخاص وإن كانوا صنيع الخيال ليسوا من الخيال في حدّ ذاته، الخيال الذي يجرّدهم من الأوصاف، ففي الكتاب تصوير بعض أعمال كرلوس الخامس الفروسية وأعمال الفرسان الذين قلدوه وغيرهم من الشخصيات التي كانت تسير دفة الحكم السياسي والاقتصادي للمملكة. وقد قرأ الكيخوطي الذين دفعوا إلى ذلك بروح الفضولية فاعترفوا بفضله وأعجبوا به وأحسوا بسحر مهارته وتركيبه وبهذه الوسيلة بلغت فكرة سرفانتيس المأرب الذي سعى إليه المؤلف».

ويقول لنا كاسترو نفسه لدى نشره قضية جس النبض سنة 1848 أنّ المخطوطة من مخطوطات القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر وأنها نسخة لمخطوطة أخرى أمليت على أغوسطين دي أرغوتي ابن غونثالو

ثاتيكو دي مولينا وأنها فيما بعد انتقلت إلى حوزة بسكوال دي غندارا ويكتب أخيرًا: «إنّ المؤلف هو لـ سرفانتيس ويشهد بذلك الأسلوب والبراعة في الإنشاء. وإنه حافل بالنكات وأنه من المؤلفات التي تشرف الظرافة الإسبانية وأنه من أفضل الكتب التي دبجتها يراع سرفانتيس» وينجم عن ذلك أنّ القصة مشوشة لدرجة ما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ غونثالو دي مولينا توفى قبل سنة 1597 بقليل دون أن يترك أولادًا، وبخصوص الأسلوب نشاطر رودريكث مارين رأيه القائل: «إنّ في وسع أيّ كان من علمائنا اليوم أن يحدد ـ بلا ريب ـ في «نشرة قضية جس النبض» كما يسهل عليهم أن يفعلوه في «العمة المتظاهرة» بعض الحالات الظرفية والتعابير التي لم يستعملها سرفانتيس قط دون أن يخشوا من الوقوع في زلل. ولا حاجة لـ كيخوطي سرفانتيس لما يسمى «بقضية جس النبض» لاسترعاء انتباه الجمهور إذ إنه طبع ست مرات سنة 1605 ونشر سنة 1607 في بروسالس وأعيد طبعه سنة 1608 في مدريد وسنة 1610 طبع في ميلان وسنحت الظروف لمؤلفه برؤيته مترجمًا إلى الإنكليزية والفرنسية حيث إنّه سنة 1612 ظهر في لندن وسنة 1614 في باريس.

وفي بحر القرن العشرين ظهرت نشرة جديدة لقضية جس النبض فطبل لها وزمر على حدّ التعبير العامي من على أعمدة «الامبرسيال» المدريدية. والغاية منها البرهان على أنّ تقليد كيخوطي سرفانتيس لـ ألونصو فرنندث دي أفياندا هو من تأليف غبريال ليونردو البيون وأنطونيو دي ميرا دي مسكووا. وفي حديثنا عن تقليدات الكيخوطي سنلمع إلى التي رسمها أنسطاسيو ريبارو صاحب «سر سرفانتيس» وهو عنوان نشرة قضية جس النبض الجديدة. وتحسن بنا الإشارة هنا إلى أنّ جمهرة من مشاهير الأدباء

قد أوضحوا أنّه يتعذر قبول الموضوع والاستدلالات التي جاء بها مؤلف «سر سرفانتيس».

وعلينا أن نبحث في احتمالات نجمت عن طابع الناشر خوان دي لاكويسطا الذي ظهر على صورة دفة طبعات الكيخوطي التي صدرت عن مدريد سنة 1605 و1608 و1615. وكم شغلت أفكار أشياع الفلسفة السرية الحكاية التي نصها: «بعد الظلمات انتظر النور» وكم أثارت من مماحكات وتبارى الكتّاب في تفسيرها وأما تعليق دياث بنخومية القائل أنّ الشارة ترمز إلى الكتاب فلا تستند على شيء من الصحة ولا نرى من نسبة بين شارة كويسطا وشعار يهود ليون وجنيف وإن صحّ استعمال يهود البلدين فيما مضى لهذا الشعار الذي يدل على أنّهم كأسد نائم ينتظرون مجيء النور أو المسيح. أمّا في إسبانيا فالشارة أو الطابع الذي نحن في صدده ما كان له قط هذه الصفة أو هذا المغزى وإنّما هو مجرد تناقل من ناشر إلى آخر لهذه الخرافة.

ومن الأمور الأخرى التي تنبغي الإشارة إليها أيضًا الاحتمالات العديدة التي مهّد لها السبيل كتاب سرفانتيس فمنهم من توهم أنّه انتقاد لحكومة الدوكي دي ليرما وعند البعض إنما هو هزء من الإمبراطور كرلوص الخامس، وقد قال قائل أنّه هجاء مر لمجلس التفتيش الديني وهكذا راح كلّ من المؤولين يرى فيه ما يشتهيه ذوقه غير أنّ كلّ هذا لم ينل من مجد الكتاب على قدر قلامة. وقد تأكد أنّ في الكيخوطي وصفًا للأعمال الحقيقية والخيالية على حدٍّ سواء وأن فيه صفحات عن سيرة المؤلف إلّا أنّ هذا لا يحط من فكرة المؤلف المثلى ولا من درس شخصيتي ضون كيخوطي وسانتشو درسًا تامًا. أمّا هذه الاحتمالات كلها والرمزيات فتستحيل هباء أمام الاعتبارات القيّمة

التي يدّعي اكتشافها في هذا المؤلف الشهير كلّ من بولينوس وفياغس فعند الأوّل إنّ القصد من تعيين سرفانتيس مكانًا لـ ضون كيخوطي في لامانتشا ـ ومعناها اللطخة ـ هو لأننا جئنا إلى العالم ملطخين بالخطيئة الأولى وهي الجهالة ولا يسعنا التخلص منها إلّا بالعمل. والمبارزة والإفلاس يمثلان: التعاسة والعوز اللذين يقاسي مرارتهما أرباب العبقرية. وسانتشو هو ذلك الرجل الذي تنعكس فيه صورة الشعب وفي المديرة وابنة أخيه: المجتمع والعائلة في ذلك الوقت. ويقول لنا كذلك أنّ المفكر هو ذو شخصية قوية وروحانية وأنه رجل واعي الذاكرة، نبيه للغاية فلذا يجعل سرفانتيس من ضون كيخوطي رجلًا مبكرًا أمّا مرسالا فتمثل الشهرة أو الحكمة. ويرمز إلى الرومنتية كون ضون كيخوطي بعد دفن كريسوستمو يذهب في أثر الراعية، وخوان هلدودو هو الممثل الرمزي للملكية المستعبدة، وطست الحلاق الذي اتخذه ضون كيخوطي على أنّه خوذة هو التاج الملكي، «ويقول البطل أنّه خوذة مسحورة وهو سلاح عجيب ملمعًا إلى حقيقة معناه، غير أنّ الخوذة التي ترمز إلى السلطة العالمية ما هي سوى طست حلاق على رؤوس الملوك الفارغة» ويواصل المؤلف تعداد كثير من مقاطع الرواية البديعة مع ذكر تأويلات لها.

وعند فياغس إنه في بطل «لامانتشا» يتجسد التفكير الحر الاصلاحي وفي سانتشو بنصا الشعب الأناني العامي وفي الكاهن والحلاق الأغراض المخلوقة في النظام الروحي والمادي، وفي دولسينيا الكمال، وفي مرسالا استقلال الكنيسة وما طست الحلاق سوى وسيلة للتحدث عن الملكية، وفي مريطورنيس صورة الكنيسة وفي ضون فرنندو الملك وعلى هذا النمط يقتفي أثر كافة الأشخاص الذين يلعبون دورًا في الرواية.

ولدى مقارنة مؤلف بولينوس عن الكيخوطي بمؤلف فياغس في نفس الموضوع يتضح أنّ هذا الأخير هو ابن الأوّل إلّا أنّ فياغس يحلل مغزى الكثير من مقاطع كتاب سرفانتيس.

والآن أيجوز لنا أن نتساءل بعد درس مؤلفي الكاتبين المذكورين ما يلي: هل للمعنى التأويلي وجود في الكيخوطي؟ أعندما صمم سرفانتيس على وضع مؤلفه أوّلًا ثمّ عندما شرع في كتابته من بعد، فكّر في المعنى الرمزي الذي عثر عليه الكاتبان المشار إليهما؟ أيمكن قبول ما قاله بولينوس من أنّ سرفانتيس عندما كتب يقول أنّ لفيثنتي دي لاروزا ثلاثة أثواب لمح إلى سر الثالوث الأقدس؟ وهل يصح أن نقبل رأي فياغس في أنّ أسواق الحرير في بلد الوليد إنْ هي إلّا هيئات تمثيلية لمركز رئاسة إسبانيا الروحية؟ لا يسعنا أن نقبل من أنّ سرفانتيس رسم خطوط هذه الاحتمالات كلها؛ لأنّه في قبولنا هذا الأمر أمكننا أن نواصل التفسير فنقول إنّ الثلاثة أو الأربعة أضراس التي فقدها ضون كيخوطي من جراء قرع الرعاة له بالحجارة تمثل الثالوث الأقدس أو الإنجيل، ومن بعد أن نرى في قوله أنّ له في جهة خمسة أضراس يعني الحواس أو قواعد الكنيسة الرئيسية أو أسرار الغبطة والألم. ويمكننا بهذه الوسيلة أن نستنتج احتمالات تلائم كلّ الأذواق، في حين إنه لا يصح سوى القول أنّ الكيخوطي لو كان كتابًا غايته الوحيدة السخرية من كتب الفروسية لانتهت مهمته على أثر انتصاره على الكتب الآنفة الذكر إلّا أنّ سرفانتيس لدى تأليف الرواية طفق يكسب أشخاصها شيئًا من مشاهداته العديدة في الحياة ويصف أعمالًا وحوادث حقيقية وقعت قبل ذلك الوقت بقليل وكان يضيف في كلّ آونة مخطوطة إلى مخطوطاته فيها ما فيها من الحقيقة والتاريخ وما اختبره وعاشه وبات هكذا

شيئًا فشيئًا إلى أن أخرج رواية ذات وقائع حقيقية وخلع على أشخاصها الذين هم من صنعته شيئًا مما يسمى بالعبقرية الخاصة التي لا يقوى على منحها غير الفنانين العباقرة المبدعين وفي عبارة أخرى إنه نفخ فيهم حياة. فلذا يثير اليوم الكيخوطي الإعجاب أكثر منه في أيام ظهوره إذ إنهم في ذلك الحين كانوا يرون فيه مؤلفًا يستهزئ بسائر أنواع الأدب وأنه يشير إلى عيوب تلك المقالات الخرافية وأنه يسخر من تلك الورطة التي تخلقها الأعمال الخارقة للطبيعة والتي يمجدها الذوق السليم. وأما الآن وقد تقلص ظل تلك القراءات غير المقبولة فلا مندوحة من أن يبقى المؤلف الإنساني الاجتماعي الفكري والفلسفي وأن يدرس ضون كيخوطي الذي يظهر أنّ مؤلفه تعلم كلّ ما كان يعرفه لا لأنه قرأه في بطون الكتب بل لأنه رآه بعيني رأسه ولمسه لمس اليدين وذاق طعمه.

- III -

أبرز شرّاحه - مترجموه

صوره الفنية

لا ريب في أنّ كتابًا منزلته كمنزلة الكيخوطي لا يحتاج إلى شروح بالمعنى الحقيقي، إلّا أنّه لما كان يهجو مقاطع الخيال المحموم التي تقرأ في كتب الفروسية ويذكر أعمالًا وقعت في زمانه ارتأى النقاد ضرورة إيضاح بعض النقاط تسهيلًا لفهم القارئ وتوجيهه لكي يكون على بصيرة من ناحية سرفانتيس الهزلية.

ففي سنة 1733 ظهر مؤلف عنوانه «سيرة سرفانتيس» للعالم في الأدب غريغوريوماينس إي سيكار فيه بعض التعليقات حول الكيخوطي وهي على قلّتها، جد مصيبة.

وفي سنة 1780 نشر المجمع اللغوي الإسباني طبعة فخمة لـ الكيخوطي ظهرت في مقدمة الجزء الأوّل منها توطئة إضافية على نصّ سرفانتيس بقلم فيثنطي دي لوس ريوس تبحث في حياة ميكال دي سرفانتيس سابيدرا وتحلل الكيخوطي وتتعلق بصورة مباشرة بالمؤلف وبكتابه البديع وفيما يعود إلى هذه النقطة الأخيرة ينبغي إظهار الأسف لكون صاحب هذه الدراسة القيمة أراد أن يُري تشابهًا بين سرفانتيس وهوميرو وأصرّ على أنّ ضون كيخوطي مستوحى من الإلياذة.

وفي السنة التالية 1781 أخرجت مطبعة إدواردو إيسطون في ساليسبوري طبعة لـ الكيخوطي حافلة بالتعليقات التاريخية الانتقادية التي وضعت أنموذجًا للدراسات المقبلة لكتاب من طراز كتاب سرفانتيس. وأما الناقد واسمه بوولي فقد احتفظ لنفسه بكافة العيوب التي يمكن أن تحصى في هذا المضمار، الأمر الذي لم يحل دون اكتسابه شهرة عظيمة إذ كان قد شرع قبلًا في دراسة اللغة الإسبانية وبعد أن طالع عددًا وافرًا من كتب الفروسية وقرأ الكثير من الكتاب المعاصرين لـ سرفانتيس، تصدى للعمل فشرح مقاطع من كتاب الكيخوطي، كما شرح غيره من المؤلفات ويتضح أنّه عرف بأماكن عديدة من كتاب سرفانتيس كان قد سبق ذكرها في كثير من الكتب التي لا شك لم تكن غريبة عن صاحب الكيخوطي.

وبعد انصرام ست سنوات على نشر شروح بوولي الشهيرة، ظهرت طبعة جديدة لمؤلف سرفانتيس الذائع الصيت مصحوبة بتعليق أكثر إسهابًا من شروح بوولي غير أنّه تنبغي الإشارة إلى كون التعليق الجديد مستقى من الأوّل وإلى كون صاحبه خ. ا. بليتر تمكن من الاطلاع على محفوظات المكتبة الوطنية تسهيلًا لعمله ومع هذا فالمواد الأولية هي من تمهيد الناقد الباحث الإنكليزي ولا خلاف في أنّه زاد شروحًا تتعلق باللغة الإفصاحية، الشيء الذي لم يأته بوولي وأنه حوّر بعض الأفكار التي أبداها الأخير ولكن يصحّ الاعتراف بأنّ الإسبان لم يشعروا بضرورة البحث العلمي في بحر هذه الرواية الخالدة الخضم وسبر لججه إلّا بعد أن قام إنكليزي وتصدى لهذا العمل الجبار الوعر، ألا وهو التعليق على مؤلف سرفانتيس سيد وأمير الكتاب الأكبر، فعمل بليثر يعد خطوة موفقة لإحراز تعليق لائق على الكيخوطي.

وسنة 1819 نشرت في مدريد طبعة جديدة لـ الكيخوطي أصدرها المجمع اللغوي الإسباني وأصدر كتابًا آخر عن سيرة ميغيل دي سرفانتيس سابيدرا لفرنندث دي نفريتي فيه كما لا يخفى شيء عن ضون كيخوطي.

ونشر سنة 1826 أغوسطين دي أريتيا عضو المجمع اللغوي الإسباني تعليقات جديدة على كتاب سرفانتيس إلّا إنّ شروحه نسخة عن شروح بليثر أو عن شروح المجمع نفسه بيد أنّه من حينٍ إلى آخر تظهر بعض تعليقات من بنات أفكار الشارح ومع هذا فيمكن الجزم بأنها عديمة الفائدة.

وبرغم الشوائب التي تظهر في شروح كيلمنثين يمكن التوكيد بجرأة أنها حتّى يومنا هذا من خيرة ما كتب في هذا الصدد وهي أوسع ما حرر في ذلك الوقت وقد اقتفى الناقد أثر بوولي وبليثر واتبع خطة الأوّل في دراسته كتب الفروسية ولنا أن نقول في أنّه أفضل من علّق على الكيخوطي واستفاد من رواية القرون الوسطى. ومن أفدح عيوب هذا الناقد تماديه في ذم أسلوب سرفانتيس ولربما كان يريد منه أن يكتب وفقًا لقواعد معينة وهو من الأمور المستحيلة في ذلك الزمن الذي إنما كان يقوم فيه بتمثيل دور المخضرم ولقد برهن جمهرة من النقاد على أنّ آراء كليمنثين في سرفانتيس كانت جد مجحفة.

ثمّ بينما كان كتاب كليمنثين في طريق النشر ظهر في برشلونة سنة 1834 مجلد تحت عنوان «شروح جديدة لكتاب سرفانتيس» لصاحبه: ث. خ. بسطوس إي كريرا وفيه تعليقات نزيرة الابتكار تحبو وراء شروح بليثر إلّا أنها لدى تعرضها لأعياد الفروسية والمبارزات الخ... تعود فتنفض عنها غبار الخمول وترتقي إلى حيث لا جمود، ولو لم تظهر أبحاث بوولي وبليثر لكان لأبحاث بسطوس مقام جليل ولكن بظهور أعمال البحاثين

لم يبق من سبيل للنكران بأن هذا الأخير قد غرف من مواردهما على قدر المستطاع.

وطلع الأستاذ فرنسيسكو سالس فرير من جامعة هارفرد سنة 1836 بطبعة لـ الكيخوطي صادرة عن بسطون نقل مواردها عن بليثر وكليمنثين وغيرهما وأضاف بعض الشروح التي تتعلق فقط بعبارات قديمة الاستعمال.

وسنة 1847 صدرت عن مدريد طبعة لـ الكيخوطي من تصحيح وتعليق مرتينث دلروميرو، نذكر في سياق البحث ما قاله فيها رويس في معرض الحديث عن الشروح والذيول: «أمّا شروح السيد مرتينث دلروميرو فلا تخلو بصورة عامة من الفائدة بل إنها تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار وتوزن بميزان التقدير؛ لأنَّ أحدها يشير إلى عدة نقائص وحيل ندد بها سرفانتيس ساخرًا كمسألة العرافين وغيرها من الوساوس وتشرح بعض العبارات العربية والتعابير الغجرية والطليانية وأماكن ومدلولات جيء على ذكرها في الكيخوطي».

وما أكبر حجم العفش السرفانطي لخوان هرتزنبوش في شروحه وذيوله للطبعات الصادرة عن أرغماسيا دي ألبا سنة 1863، وشروح ظهرت في الطبعة الصورية التي أصدرها لوبيث فابرا عن برشلونة سنة 1871 وما نُشر في المجلات والصحف يدلُّ على أنّ هناك شروحًا كثيرة ما عداها تتعلق بالقصة الخالدة ويظهر أنّ لوبيث فابرا كان مولهًا لحد الجنون بإصدار ونشر شروح للكيخوطي وما يشهد على صحة ذلك أنّه ظل ينشر الشروح حتّى آخر أيامه على الرغم من الذيول الوافرة التي تقدم ذكرها وأما التي ظهرت في المرحلة الأخيرة من حياته فجلها تصحيحات لما سبق نشره. فهكذا كانت تظهر في مجلة الأتنايو الإشبيلية ومجلة

سرفانتيس المدريدية تصحيحات على التعليقات التي ربما كان دافع عنها بحرارة لسنوات خلت، ومن الأفضل أن يقرأ كتاب سرفانتيس على ما فيه من الشواذ والأخطاء الصرفية التي ألمع إليها مليانس من أن تمسك طبعة الكيخوطي المهشمة التي تولى تصحيحها هرتزنبوش لوفرة أخطائها التي تسمح بتبويبها إلى رديئة وعادية وجيدة وقلما عثر ـ لسوء الحظ ـ على هذه الأخيرة، لقد أعمل مبضع تصحيحه في كتاب سرفانتيس بشكل فظيع، حذف وزاد ما لم يخطر قط ببال بل ولا يحتمل أن يمرّ في مخيلة المؤلف في وقت من الأوقات ولا ينكر عليه أنّه كان صائبًا في تصحيحه المقطع الذي يشير إلى حادثة سرقة خينس دي بسمونتي لروثينو فهذا أمر عديم الأهمية إذا ما قيس بالشطط الفادح لدى ابتكاره يوميات البطل المنتشاوي وتصديقه لخرافات سجن أرغماسيا.

أمّا بحث نقولاس ديث بنخوميا كنقاد «سرفانطي» فيعد في الذروة العليا فهو أوّل من تفرغ للتعليق الروحي على الرواية بجد ونشاط لم يجاره فيهما أحد من قبل وهو المجلي في اكتشاف الغامض أو الرمز الذي شغل أفكار كبار الكتّاب مدة من الزمن دون ما طائل وأثار كثيرًا من المماحكات الأدبية دون ما جدوى وهو الذي كافح في سبيل إنزال وغرس هذه الفكرة إلى أن استقرت وتحولت إلى مدرسة اقتبس تعاليمها المبرزون من تلامذته مثل بايول وفياغس، وله في هذا الصدد منشورات ذات قيمة علمية لا تقدّر. ونشر مقالات ممتعة في المجلة الإسبانية سنة 1878 ـ 1879 لها صبغة الانتقاد على الأبحاث السابقة والشروح التي تقدمت. وبعد أن فرغ من كتابة سلسلة هذه المقالات في المجلات الشهيرة في مدريد وبرشلونة ختم بحثه بنشرة موفقة تحمل العنوان التالي: «ذيول للشعور الروحي

في الكيخوطي» كان صدورها عن برشلونة سنة 1880. وفي شأن هذه الذيول قال أحد مشاهير النقاد: «يمكن للولوعين بـ الكيخوطي أن يروا ويتصفحوا بحثًا لو جرد مما فيه من رمز خاص غريب أراد أن يعثر عليه البحاثة القدير في القصة الخالدة لوجدوا فيه الشيء الكثير مما يستلفت النظر ويثير الإعجاب ويبعث على الإكبار لشخصية ديث بنخوميه الذي درس الكيخوطي وتبحر فيه ممعنًا».

ويصح التأكيد أنّه حتّى سنة 1905 لم تظهر طبعة لـ لكيخوطي ذات شروح وذيول لائقة يمكن أن تضاهي ما جاء به الباحثون في أوّل العهد وهذه الطبعة التي نشرت في الذكرى المئوية الثالثة لنشر الكيخوطي هي من ثمرات مجهود كليمنتي كورتيخون الذي وإن كان قد انتقد أبحاث كليمنثين وهرتزنبوث فقد امتدح شروح بوولي وبما أنّ النقد كان قد قطع شوطًا بعيدًا بفضل الأبحاث القيمة التي قام بها المولعون بـ سرفانطس فقد جنى لحساب بحثه أثماره اليانعة وإذا بمؤلفه أوفى الأبحاث التي نشرت إلى ذلك الحين وأغزرها مادة. ولا تقتصر أهمية هذه الطبعة على الشروح فحسب بل تتعداها إلى المقدمات والتوطئات والأبحاث الموفقة التي أوضحت نقاطًا هامة تتعلق بنص القصة الخالدة. ولم يتمكن المؤلف من رؤية عمله جاهزًا تامًا؛ لأن يد المنون كانت قد عاجلته عند شروعه في كتابة الجزء السادس والأخير من مجموعة أبحاثه.

ومنذ ذلك الحين أخذت تتوالى الطبعات المشروحة شرحًا صائبًا نوعًا إلّا أنّ أصحابها كانوا يكتفون بالأخذ بعضهم عن بعض وقد تستثنى الطبعة الصادرة عن مدريد سنة 1911 لفرنسيسكو رودريكث مارين الذي رغم استفادته من أبحاث من تقدموه لو قوبل درسه بدروسهم لفاقها دقةً وسبكًا.

ولقد أصدر هذا البحاثة فيما بعد أي سنة 1916 علاوة على طبعتين كان قد نشرهما آنفًا الثانية منهما كتصحيح للأولى، درسًا من أفضل الدروس قيمة يدل على أنّه من عارفي سرفانتيس وأسرار كتابه الشهير.

وإلى هنا نكتفي بهذا القدر من النقد الذي ظهر في إسبانيا حول الكيخوطي إلّا أنّنا سنتحدث عن النقد الذي دبجته الأقلام الأجنبية وله علاقة بمؤلف سرفانتيس ومع هذا فتبقى الإشارة إلى نوعين من هذا النقد الذي بات مداره الكيخوطي: النوع الذي خصص لدرس الشكل والنوع الذي كرس لبحث الموضوع. أمّا الأوّل فقد شاع في إسبانيا لتعلقه باللغة والتعابير وأسلوب المؤلف والثاني يتصدى لأشخاص الرواية وهو النوع الذي نعثر عليه بوفرة في الخارج.

وبين الطبعات الإنكليزية التي ينبغي علينا ذكرها رغم عدم احتوائها على تعليقات مسهبة وإنما فيها دروس قيمة كمقدمات إجمالية لكتاب سرفانتيس نذكر أقدمها ألا وهي الطبعة التي ظهرت في لندن سنة 1741 مصحوبة بتعليق موجز لخارفس، وطبعة اسمولت لندن سنة 1753 غير أنّ كثيرًا من شروح هذا مستقاة من ذاك، والشروح التي أضافها لوكهرت إيدمبوغ سنة 1822 هي شروح قيمة ومفيدة إلّا أنها مأخوذة عن بليثر والمجمع اللغوي الإسباني. والبحث الذي قام به آ. خ. دوفيلد جيد وشروحه كما ذكر على دقة الطبعة الصادرة عن لندن سنة 1881 مأخوذة عن بوولي وبليثر وكليمنثين وغيرهم ولكن شروحه الخاصة تدل على حسن ذوق ومعرفة لا يستهان بهما لكتاب سرفانتيس. وسنة 1888 ظهرت طبعة جديدة لـ الكيخوطي في لندن ترجمة واتز ولا نقصد من ذكره هنا كمترجم بل كبحاثة؛ لأن دروسه المدرجة في كلّ جزء مثل الفصول

المخصصة لـ المنتشا ولاماديس دي غولا ولعبور سويرو دي كينيونس المشرف ولتاريخ ضون كيخوطي ولخرافة رولدان ولسحر مرلين ولغيرها كلّ هذه من الأمور الصائبة التي تبرهن على مقدرة هذا المؤلف العلمية وتدل على سعة اطلاعه. وتنبغي الإشارة أيضًا إلى البحث القيم الذي قام به أورمسبي والذي ظهر في صدر الطبعة اللندنية سنة 1885. وكل ثناء يوجه إلى شخصية جيم فيتزمورس ـ كلي، قليل ففي سنة 1898 ظهرت طبعته القيمة لكتاب سرفانتيس مرفقة بالنص الإسباني ومصححة تصحيحًا جيدًا يشرفه ويجعله في مقدمة الباحثين الإنكليز الذين تفرغوا لدراسة سرفانتيس فأصابوا.

أمّا في فرنسا فحتى أواسط القرن التاسع عشر لم تظهر طبعات فرنسية تستحق الذكر. ولا قيمة للملاحظات التي تقرأ في صدر ترجمتي فليودي سان مارتين وفلوران. ومع هذا فتنبغي الإشارة إلى أنّ في الطبعات الأولى الصادرة عن باريس بعض الشروح لتنوير القراء ومثال هذا أنّ المترجم يصطدم بعبارة قد غاب عنه معناها، أو لأنها من تعابير الغجر، أو لأنها قليلة الاستعمال، فيترجمها حسبما يستطيع وعلى الهامش يورد النص الإسباني أو ترجمة تقريبية، وإذا وقع على تعبير عامي أو مثل أو تلاعب في الألفاظ عسرت عليه ترجمته أعطاه المعنى المقارب وفقًا لما يمليه عليه ذوقه وعلى الهامش وضع النبذة الإسبانية أو ترجمتها الحرفية بعد شرح المعنى بأحسن الطرق وأقرب الوسائل المستطاعة لديه». وعلينا أن نذكر أنّه تقرأ شروح للأماكن وللعادات. ولدوبورنيال مترجم كتاب سرفانتيس المطبوع سنة 1807 بعض المقاطع التحليلية التي يمتدح فيها صاحب المؤلف الإسباني إلّا أنّه لما عاد فطبع ترجمته سنة 1821 صدرها بمقدمة قابل فيها

بين الكيخوطي والإليازة وقد أوحى إليه هذا ما فعله ريوس في الطبعة الإسبانية التي طبعها المجمع اللغوي الإسباني سنة 1780 وقد أبدى دي لونوا بعض الملاحظات وأردفها بالتعليقات على هذه الترجمة المطبوعة في باريس سنة 1821. وبعد سنوات أي عام 1826 ظهرت في نفس هذه العاصمة طبعة جديدة تتعلق بحياة سرفانتيس ومؤلفاته من ثمار بروسبر ماريمه وفي شروحها التي تشير إلى ضون كيخوطي فائدة لا بأس بها إلّا أنها تتطلع إلى شروح بليثر.

ويمكن القول: إنّه حتّى سنة 1836 لم يتوصل الفرنسيون إلى درس قيم حول الكيخوطي، والمؤلف الأوّل من هذا النوع هو من منتوج لويس فياردو وعنوانه: «أخبار عن حياة ومؤلفات سرفانتيس»، تقدم على الترجمة التي أصدرها هذا المؤلف لكتاب العبقري الإسباني ولمنتوجته قيمتها في عالم الأدب نظرًا لدقة سبكها وغزارة مادتها ولا ينكر أنّه في كتابة سيرة سرفانتيس استعان بأبحاث ميانس وبليثر وفرنندث دي نفراتي وفي كتابة «الشروح على نص ضون كيخوطي» استنجد بـ بوولي وبـ ليثر وكليمنثين إلّا أنّ هذا لا يحول دون الاعتراف أو الإشادة بمؤلفه. وأمّا المترجمون الألمان وأصحاب المطابع فلم يبرزوا في نشر طبعات ضون كيخوطي ولا بما احتوت عليه هذه من شروح وتقرأ الأبحاث التي دارت حول هذه الرواية في المقدمات لا في الذيول المضافة على متن الكتاب وجلها إن لم نقل كلها لا تسترعي الانتباه.

وأمّا الطبعة الإيطالية التي ظهرت سنة 1622 ففيها بعض الإيضاحات للنص كالتي تحدثنا عنها في الطبعات الفرنسية الأولى لـ ضون كيخوطي ولم ينشر فيما بعد أي كتاب إضافي.

وفي بقية اللغات الأوربية خصص أقل من القليل من البحث المجرد المقتصر على متن ضون كيخوطي وأمّا الأبحاث التي نشرت فكانت تحلل كتاب سرفانتيس من الوجهة العامة دون أن تتعرض إلى تفاصيل القصة.

واستنادًا إلى ما تقدم يمكننا أن نقول أنّ نشر الكيخوطي يُعد نجاحًا مطيعها باهرًا سواء كان فيه شيء من الفلسفة أم لا وسواء كان هجاءً قارسًا ضد كتب الفروسية أو أنّه مجرد كتاب يشير إلى كيف ينبغي أن تكون تلك المنتوجات الأدبية. ولقد تسنى لمؤلف ضون كيخوطي رؤية ترجمتين لكتابه الشهير وأتيح لـ الإنكليز والفرنسيين معرفة أعمال البطل المنتشاوي بلغتهم. ويخبرنا فيتز مورس ـ كلي كيف أنّ إنكلترا كانت أسبق الأمم إلى ترجمة الكيخوطي عندما كتب: «إنّ كتالينا دي أراغون لدى تزوجها من هنري الثامن استصحبت إلى جامعتي أوكسفورد ولندن عددًا كبيرًا من العلماء الإسبان الذين أنشأوا التبادل الروحي والثقافي بين البلدين».

ولا ريب في أنّ أوّل أمة ترجمت الكيخوطي إلى لغتها هي إنكلترا وذلك سنة 1612 أمّا إذا حكمنا على ترجمة شلتون اليوم فقد نجدها كثيرة العيوب تنقصها الرشاقة وفي بعض المقاطع يسود الالتباس فيتعذر فهم النص الحقيقي ولكن لو رجعنا القهقري إلى ذلك العصر لوجدنا أنّ المترجم الإنكليزي قد قام بعمله ولقلنا إنه من الذين يثنى على أمانتهم إذ إنه قد ترجم الأمثال والحكم والأشعار حرفًا بحرف. ويقول لنا أحد مشاهير الكتاب الإنكليز المولعين بـ سرفانتيس وأدبه وهو دوفيلد: «إنّ شلتون كان رجلًا ذا صبر محبًا للعمل كثير الحماس لكتابه». ويكتب بعد هذا بقليل فيقول: «إنّ أفضل الوسائل لانعكاس النور هو الزجاج الذي يسمح برؤية الأمور بجلاء وصفاء فهذا ما ينطبق على شلتون نظرًا لتواضعه

وأمانته وهو حتّى يومنا هذا أفضل المترجمين الإنكليز وأجودهم في نقل ملاحة وجمال الكيخوطي ومع هذا فـ شلتون اليوم لا يقدّره غير الدارسين الماهرين».

ونقول بعد أن نضرب صفحًا عن ذكر عدد وافر من المترجمين الإنكليز وعن الترجمات المختصرة المعدة للمدارس الأولية أنّ أفضل ترجمة ظهرت أخيرًا في إنكلترا هي ترجمة ر. شميث، صدرت عن لندن سنة 1914.

ولئن كان عدد المترجمين الإنكليز ضخمًا فلا يقل عنه عددهم في لغة راسين وموليير. وقد كان أولهم أودان كاتب ملك فرنسا، الذي ترجم ترجمة حرفية كثيرًا من المقاطع وأتى في غيرها على ذكر فكرة المؤلف بصورة إجمالية وبين أسلوب أودان المترجم للجزء الأوّل الصادر عن باريس سنة 1614 وبين أسلوب روسه مترجم الجزء الثاني بون شاسع. وظلت ترجمة الاثنين تظهر حتّى سنة 1677 تاريخ نشر ترجمة فليو دي سان مرتين التي أحرزت شهرة واسعة وأعيد طبعها مرات ومرات وقد شاعت في غضون القرن التاسع عشر شيوعها فيما مضى فاختصرت واتخذت منها نصوص موجزة. ونغفل هنا ذكر أسماء الكثيرين من المترجمين لنقول أنّه سنة 1821 أصدر دي لونوا ترجمة لا تخلو من العيوب إلّا أنّها إذا ما قيست بالترجمات التي تقدمت لاعتبرت أفضل منها.

وفي سنة 1826 أخرجت مطبعة ديبوشه وشركاه الباريسية ترجمة تنم عن خطوة واسعة في هذا المضمار ومن رشاقة وظرافة أسلوبها اتضح أنّها لـ فياردوت وبالرغم من الانتقادات التي وُجّهت إليها شكلت نجاحًا عظيمًا وأعيد طبعها مرارًا ولا تزال تطبع حتّى اليوم. ولا يجمل بنا السكوت عن

ترجمة ظهرت سنة 1847 في باريس لـ داماس هينارد تستحق كلّ تقدير واعتبار برغم صحة استنجاد صاحبها بمقاطع من ترجمة فيادورت.

وصفوة البحث يصح أن نقول في الترجمات والمترجمين الفرنسيين ما قدمناه عن زملائهم الإنكليز ولئن سبق أولئك هؤلاء.

وأما الترجمة الأولى لـ الكيخوطي في الألمانية فيرجع تاريخها إلى سنة 1621 لصاحبها فون درشوهلي وليست من الترجمات الكاملة بل مقاطع مؤلفة من 22 بابًا، وحتى سنة 1669 لم تعرف سوى ثلاث ترجمات لكتاب سرفانتيس، وبعد سنوات قليلة ظهرت ترجمة أخرى تحمل الحروف الأولى من اسم صاحبها خ. ر. ب. وهي وإن لم تكن تامة فمقبولة وتنم على أنّ صاحبها كان جاهلًا بأسرار اللغة الإسبانية، وظهرت سنة 1734 في لبزغ ترجمة جديدة ذات توطئة قيمة تقابل بين متن الرواية والترجمات المتداولة وقد استعان صاحبها الذي أغفل ذكر اسمه بالترجمة الفرنسية لـ فيلو دي سان ـ مرتين. وحتى سنة 1775 لم تظهر في ألمانيا ترجمة يصح أن يُقال فيها أنها كاملة أو مقبولة ومن حقنا أن نشير إلى أنّ هذه الترجمة التي طلعت في هذه الحقبة لم ترض النقد؛ لأنّها علاوة على حذفها مقاطع من الكيخوطي تتصرف تصرفًا بعيد المدى في نقل التعابير فتكون ترجمة برتوش وهو اسم صاحبها، غير وافية إلّا أنّها تفوق بمراحل الترجمة الصادرة سنة 1734، وفي وسعنا أن نؤكد أنّ الألمان لم يحرزوا على ترجمة ضافية لـ الكيخوطي حتّى سنة 1799. فلو نظر إلى ترجمة تييك نظرة مجردة لوجدت أنها لا تستحق الإطراء البالغ الذي خلعه عليها شلجل كما أنّها لا تستأهل الانتقاد المرّ اللاذع الذي وجهه إليها هين أمّا الترجمة فلم تكن صائبة على طول الخط وقد وقعت في نفس الهنات التي تزحلق فيها

فون درشوهلي مثل جعل أسماء العلم في مقام النعوت وأسماء الجنس إلّا أنّها من جهة أخرى تستوعب إصابات موفقة من حيث ترجمة الكتاب بفصه ونصه تدل على سعة اطلاع على خفايا اللغة الإسبانية أكثر من الترجمات الآنفة الذكر. وظهرت سنة 1819 ترجمة لـ يوتز يضاهي أسلوبها من حيث الرشاقة أسلوب تييك وتفوقها أمانة، وطفقت تترى الترجمات إلى أن ظهرت سنة 1884 ترجمتان الأولى لـ برونفلز جد أمينة خير ما فيها التوطئات أو البحث الانتقادي الذي صدر به مؤلفه، والثانية تصحيح لترجمة برتوش بقلم ولزوجن.

وفي اللغة الإيطالية ظهرت ترجمة الكيخوطي الأولى سنة 1622 بقلم لورنزو فرنشيوزيني ومقامها كمقام ترجمات شلتون الإنكليزي وأودان وروسه الفرنسيين وبالرغم من التحويرات الطفيفة التي أدخلها المترجم في متن الرواية فترجمته جديرة بكل تقدير. وسنة 1818 ظهرت ترجمة جديدة مقبولة لكتاب سرفانتيس لـ برطولومه غمبا، تحيد في مجموعها عن نص القصة وتقل عن ترجمة فرنشيوزيني أمانةً إلّا أنّ أسلوبها أرقى وأبلغ، ومن ميزات غمبا أيضًا ترجمة الأشعار التي في كتاب سرفانتيس، ثمّ صحح هذه الترجمة وأعاد نشرها في ميلان سنة 1840 فرنشيسكو أمبروسولي.

ونشير كذلك إلى الترجمات المعدة للأطفال التي قام بها المانزي ودي سان جيستو.

ويلي الترجمات الإيطالية حسب الترتيب التاريخي الترجمات الهولندية والروسية والدينماركية والبولندية والبرتغالية والسويدية والمجرية والرومانية واليونانية والتركية والبلغارية والإسبرنتية واليابانية والهندوسية والعبرانية والنروجية والقطلونية الخ..

وفي معرض الكلام عن ترجمات الكيخوطي إلى اللغات الحية تنبغي الإشارة إلى ترجمة عربية موجزة منقولة عن الكتب المدرسية الفرنسية بقلم عبد القادر رشيد طبعت في المطبعة السلفية بمصر عام 1341 أمّا من حيث قيمة هذه الترجمة فيكفي أن نقول إنها مكتوبة بلغة صحيحة وتقع في مئة وخمسين صفحة من القطع الربع تتخللها صور تكاد تستغرق نصف الكتاب على صغر حجمه.

صور الكيخوطي الفنية

لئن كان ضون كيخوطي يفتح ميدانًا واسعًا أمام أرباب الأقلام لا ينضب معينه، فالمجال الذي يفسحه للفنانين لا يقل عنه رحابة، فصورة البطل تحمل على أعمال الفكر منذ اللحظة الأولى وإن كان سرفانتيس قد وصف بعض تقاطيع سحنته فكل قارئ يتصوره ويتوهمه حسب ما تملي عليه مخيلته فمن القراء من تخيله بلحية ومنهم بدون لحية وبشوارب مسترسلة وغيرهم تصوره أسبل أو مجزوز الشارب وإن اتفقوا جميعًا على أنّه قاحل، وما قلناه في المشاء أو الرحالة يصح أن يُقال في حامل درعه أو مرافقه الأمين. وكم شغلت من أفكار لحيتا السيد والخادم! ولو تسنى لنا مشاهدة اللوحات التي أعدتها ريشة الفنانين من إسبان وأجانب لتمثيل هاتين الشخصيتين لأخذتنا الدهشة ولتأكدنا أنّ ما من لوحة أو رسم عرض في المعارض المختلفة نال شرف الفوز في مصادفة التقاطيع المناسبة لشخصيتي ضون كيخوطي وسانتشو كالتي يتصورها القارئ من بحر هذه القصة الخالدة بلغتها الأصلية ويؤكد هذا ما قدمناه من أنّ كلّ قارئ يتصوره تصورًا مخالفًا لتصوُّر الآخر.

وأما الصور التي تشاهد في كتاب سرفانتيس الخالد فهي تلك التي ازدانت بها الطبعات التي صدرت سنة 1605 عن لشبونة وبلنسية إلّا أنّ النماذج لم تصنع بطريقة خاصة لهذه الطبعات كما أنّ الرسم الذي ظهر على دفة الطبعة البرشلونية الصادرة سنة 1617 لم يكن مصنوعًا لها وإنما صنعا للطبعة الثانية التي صدرت عن لندن في نفس السنة وفي السنة التالية نقل هذه الصورة صاحب الصورة التي ظهرت على الطبعة الفرنسية الصادرة سنة 1618. ففي هذه الصورة يبدو ضون كيخوطي وقد لحق به سانتشو وإلى الوراء جوفا على رأس الجبل مطحنة هوائية. وقد كتب الرسال الشهير ج. ل. بليثر: «إنّ هذه الصورة التي نقشت من الخشب قد جاءت بديعة للغاية وبغض النظر عن سذاجة الرسم الظاهر في الركوب تجب ملاحظة قسمات الشخصين في هذه اللوحة التي تختلف اختلافًا بائنًا عن القسمات التي حددت لكل منهما، فـ ضون كيخوطي فارس شريف وذكي وأما سانتشو فليس بذلك الرجل البدوي الخشن الجلف المتعارف عند العامة، إنّ نظرته لثاقبة تتوقد فيها المهارة ومظهره ينم عن سخرية ماكرة ومن هندامه بصورة إجمالية يبدو كأنه رفيق لسيده. ولولا الخوف من أن يعزى لوهم غير مقصود أو لقصد سبق تصوره لأكدت أنّ رأس ضون كيخوطي ليذكرني بشكسبير كما وأنني رأيت في قسمات سانتشو قسمان جون بول وقد اختلقتها فكاهة الفنانين الإنكليز».

وظهرت سنة 1657 في أمستردام ترجمة هولندية فيها 22 صورة من صنع أحد الأخوين سفري ويتضح من مجرد النظر إلى شخصيتي ضون كيخوطي وسانتشو أنّ صاحب تلك الرسوم ليس بإسباني. وانتقلت لوحات الطبعة الهولندية سنة 1663 إلى بروكسيل فاستعان بها الطابع وكلف بوطانس

أن يضع له صورًا أخرى يزين بها الكيخوطي الذي سيصدر عن مطابعه، وهكذا كان، فإذا بصور الطبعة البلجيكية تصلح لغيرها من الطبعات.

وصدرت عن لندن سنة 1687 طبعة إنكليزية فيها ثماني صور لم تحمل اسم صانعها الذي لم يحسن تخيل هيئة النبيل الشهير بطل رواية سرفانتيس وإلى جانب كلّ هذه الطبعات التي ظهرت في هذه الحقبة، صدرت عن لندن سنة 1700 طبعة صورها تفوق صور الطبعات المتقدمة وتعد خطوة موفقة جاءت لتحلي كتاب سرفانتيس.

وأما الطبعات التي ظهرت في غضون القرن الثامن عشر فهي أفضل الطبعات التي عرفت حتى الآن من حيث الإتقان والإبداع في الصور ولنا أن نمتدح رسوم كويبل التي لا ريب كان ظهورها سنة 1725 أو 1724 وكذلك الطبعات اللندنية التي صدرت بين 1738 و1742 والطبعة الممتازة التي أخرجها المجمع اللغوي الإسباني سنة 1780 في مدريد.

أمّا كويبل فقد صنع 25 لوحة عن ضون كيخوطي لتزيين قصر كومبنيه الملكي وقد استحالت هذه اللوحات فيما بعد بقليل إلى بسط واعتنى الرسامون والمصورون الفرنسيون بعد ذلك بإعادة نسخ هذه البسط لتزيين الطبعات الفرنسية العديدة.

وأفضل هذه الطبعات الطبعة الإسبانية المقدمة إلى الكوندسا دي مونتيخو وقد أرفقها صاحب التقدمة بهذه العبارات: «لا شكّ في أنّك تغضين الطرف عن العيوب التي قد تعثرين عليها في الصور سيما وأن الطبعة صادرة عن بلاد أجنبية حيث يتعذر على المبدعين الاطلاع على الأزياء الإسبانية وغيرها من الأمور التافهة تمام الاطلاع والتي قد تجدين

فيها بعض النقص». ولئن كانت الصور فائقة تثير الإعجاب فقد نقصها اللون المحلي وهذا مما يسهل فهمه إذ إنها تحس وتنطق بما في البيئة الإنكليزية من حياة وألوان لحد يقال معه أنّ رأس ضون كيخوطي في اللوحة التي تمثله وهو يطالع تذكرنا بهيئة شكسبير في شيء من الإبهام.

وأما الطبعة الإنكليزية التي ظهرت سنة 1742 فقد أخذت صورها عن الطبعة الإسبانية الصادرة سنة 1738. والطبعة الإسبانية التي خرجت في مدريد سنة 1784 تحت رعاية المجمع اللغوي الإسباني تشرف كلّ من ساهم في إخراجها فصورها بديعة خارقة ساهم في رسمها أشهر الفنانين الإسبان على الإطلاق. وقد يقال إنّ الفنانين لم يهتدوا إلى خلق البطل المنشاوي فمثل هذا يصح أن يقال أيضًا في أعظم فناني العصر التاسع عشر، ففريق منهم جعله دائمًا ذا قامة طويلة وفريق آخر لم يراع التوازن في رسم أعضاء جسمه. ولقد قال المجمع اللغوي في تصدير طبعته أنّه من أجل التصوير استلهم الرسوم والصور العادية أي أنّه التجأ إلى الصور التي من عهد سرفانتيس لتكوين فكرة عن الملبوس والتجأ إلى سلاح الملك لتكوين فكرة عن المعدات الحربية.

وفي الطبعة الرابعة التي أخرجها المجمع اللغوي الإسباني في مدريد سنة 1819 صور لسرفانتيس ذات قيمة ومع هذا فقد قصرت عن الصور التي في طبعة سنة 1780 وهذا لا يعني خلوها من الصبغة المحلية وسنة 1826 ظهرت في فرنسا طبعة من كتاب سرفانتيس مزينة برسوم بريشة طوني جوهانو رغم ما فيها من عيوب فنية صادفت ارتياحًا عظيمًا وأعيد طبعها مرات في مختلف البلدان الأجنبية وأغدق عليها النقد المدح والثناء. ومن أفخم الطبعات التي ظهرت لـ الكيخوطي سنة 1859 الطبعة البرشلونية تقع

في جزئين، وساهم في رسومها الفنانون الإسبان، والطبعة التي خرجت في باريس سنة 1863 رسومها لغسطافو دوره وسرعان ما تحولت لوحاته إلى ضرورة ماسة لسائر الطبعات الفخمة فأعيد طبعها في إسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا، وإنكلترا، وروسيا، وأميركا، فلوحاته هذه تصون في صورها جلالة الفن والعبقرية رغم أنها لم تتوفق إلى خلق بطل سرفانتيس.

ويكتب سنة 1873 طوماس مرتينث في مؤلفه «بعض معلومات لتزيين الكيخوطي بالرسوم» أنّ كتاب سرفانتيس «لم يلق حتّى الآن الفنان الذي يفهمه ويعرض تمامًا بواسطة قلمه ولوحة تصويره الخلق الحقيقي للبطل المنتشاوي. أيقوم هذا على أنّ المؤلف لم يصفه وصفًا موافقًا؟ كلا وإنما سبب الخطأ في عدم إجادة تصويره هو أنّ الفنانين الذين اعتنوا واهتموا بذلك إنما أفرغوا جهدهم في تصويره رجلًا قاحلًا وعندي أنّ في الكيخوطي شيئًا أكثر من هذا وحده، وهو التمثيل لوسواس عصره وجنونه جنونًا محمومًا بكتب الفروسية التي أفرغت خلاصتها كما ينبغي في رجل معتوه له من هذا القبيل ثقافة تعلو على الحد الوسط، يقع في حيرة عندما يتكلم أو يفكر أو يحترف هذه المهنة الوهمية» ولقد أصاب الناقد، فالرسامون والمصورون والنحاتون لم يتصلوا اتصالًا مباشرًا بشروح الكيخوطي عندما أرادوا أن يُخرجوا على لسان الفن أحد الموضوعات التي يوحي بها كتّاب سرفانتيس، فمن تحصيل الحاصل أن يتقلب خلق المشاء الشهير وفقًا للمواقف والمقاطع وإن كان الفنانون قد رسموه قاحلًا فهذا لا يعني أنّهم قد أصابوا في تمثيل السويداء التي كانت مستحوذة عليه بشكل دائم ولا توفقوا إلى إخراج روح الكبرياء والفروسية التي ما كانت لتفارقه لحظة واحدة، وما أعظم الفرق بين موقفه وهو يقول في قلب بادية

المانتشا: «ما أسعد ذلك القصر وما أيمن تلك الأيام»... وموقفه الآخر إذ يقول: «لا وجود للعصافير اليوم في أعشاش الأمس» وكم يختلف خلق البطل في هذا عنه في موقفه وهو في الفندق يجادل ويؤكد أنّ طست الحلاق إنما هو خوذة ممبرينون وعن موقفه في دار الدوكي وهو ممعن في مجادلة الكاهن. ويقول أونامونو: «إنّ قوة الحقيقة في ضون كيخوطي توجد في نفسه الإسبانية والإنسانية وفي حقيقة صورته التي تعكس مثل هذه النفس». ولكن قد يسأل سائل: أعلينا أن نستخرج نفسه من هيئته أم هيئته من نفسه؟ ويضيف إنّ من قسمات وجهه وخلقه الطبيعي يمكننا بواسطة مزاجه أن نلمح شيئًا أكثر من حقيقة نفسه، الأمر الذي يجيب عليه ضون كيخوطي ذاته لدى وصفه في الباب الأوّل من الجزء الثاني ملامح أماديس ورينلدوس ورولدان إذ يقول: «من الأفعال التي قاموا بها والطباع التي تحلوا بها يمكن أن يستدل بأعمال الحكمة على ملامحهم وألوانهم وقاماتهم».

- IV -

موضوع الكيخوطي

يبتدئ موضوع الرواية في مكان من المنتشا يرى بليثر وكليمنثين وغيرهما أنه أرغماسيا دي ألبا حيث كان يعيش رجل شريف عازب ذو مكانة متوسطة ولوع بقراءة كتب الفروسية، الأمر الذي دفعه إلى تبذير أمواله وبيع بعض أملاكه للحصول على أخبار الأبطال المشائين الرحالة، ومن قلة النوم وكثرة المطالعة ـ كما يقول الروائي ـ نشف دماغه وجف فإذا به يصاب بخبل يحمله على الاعتقاد بأن كل ما كان يقرأه صحيح ولشدة حماسته لهذه الفكرة التي رسخت في رأسه رسوخ الإيمان بل أقوى، أوحى إلى الطيب النية ألونصو كيخانون ـ وهو اسم الشريف ـ جنونه بامتهان حرفة الفارس المشاء الرحالة ووضعها موضع التنفيذ وفقًا لما قرأ وطالع.

ولكن قبل خروجه إلى العراء للبحث عن الأخطار والمجازفات، راح يعود حصانًا هزيلًا كان له وصفه بالقوة والجمال ثمّ اتّخذ أسلحة كانت عنده ورثها عن أسلافه فنظفها وجلاها قدر المستطاع واصطنع له من اسمه اسمًا جديدًا أضاف إليه اسم مقاطعته فإذا به يصبح ضون كيخوطي دي لامانتشا، وتذكر أنّ الفرسان الرحالة ينتقون سيدة لأفكارهم يقدمون لها احتراماتهم فطرأ له أنه في شبابه كان مغرمًا بفتاة فلاحة من إحدى القرى

المجاورة فرأى من المناسب جعلها سيدة أفكاره ولما لم يرق له الاسم الذي كان لها ـ وهو ألوندرا لورنثو ـ أسماها دولثينايا دلطوبوسو.

ولما فرغ من تدبير كلّ هذا في صبيحة يوم من أيام شهر يونيه حزيران، دون أن ينذر أحدًا من أهل بيته، خرج إلى العراء مزودًا بالعزم الأكيد لمجابهة وركوب كلّ الأخطار والمجازفات التي تتصدى له.

وأما وهمه المحموم فكان يحمله دائمًا لا على رؤية ما كان يقع تحت بصره بل ما كان يحوم عليه خياله، وبينما هو كذلك جاد في طلب الأخطار، شاهد في قصر ـ هو في الواقع فندق ـ فتاتين من أدنى طبقات المجتمع فحسبهما سيدتين من رفيعات القوم ونادى صاحب الفندق بصاحب القصر وبهذه الوسيلة دخل ضون كيخوطي إلى عالم الفكرة السامية فرفع نفسه إلى رتبة فارس في نفس الفندق ثمّ يخرج منه بعد قليل عازمًا على اقتحام أعظم المواقع والإتيان بالأعمال الخارقة التي لا يتصورها بشر.

ما كاد يترك الفندق ويتوغل في غابة حتّى سمع استغاثة موجعة فإذا به أمام رجل يعصو فتى، فتحركت فيه همة الفارس التي أراد أن يظهرها فوعظ الرجل وحمله على فكّ عقل الفتى الذي كان قد شدّ إلى جذع شجرة وما إن أتمّ للفارس المغوار هذا حتّى اعتلى صهوة جواده وذهب ولكن الرجل عاد إلى متابعة مشروعه ولم يقلع عنه إلّا بعد أن ترك الفتى بين الموت والحياة، ولمّا خرج الشريف المنتشاوي من الغابة التقى بتجار من طليطلة فأوقفهم وطلب إليهم أن يعترفوا بأن دولثينايا دلطوبوسو هي أجمل امرأة في العالم، فأجابه المسافرون ساخرين فأثارت هذه السخرية غضبه وانقضّ عليهم ورمحه في راحته إلّا أنّه قبل أن يصل إليهم وينزل بهم الأذى، تعثّر الحصان وسقط الفارس فأسرع خدام التجار إلى مكافأة

المشاء بضربه ضربًا مبرحًا إلى أن تركوه في الخلاء بين ميت وحي. وبات على الحضيض مهشم الأعضاء وبعد قليل شرع ـ لا في الأنين إذ إنّ هذا شائن في حق الفرسان المشائين الرحالة ـ بل في إنشاد الموشحات من نظم المركيس دي منطوا وبينما هو على هذه الحال مرّ به عرضًا أحد جيرانه فحمله إلى داره، وكان في يقين وصيفة ضون كيخوطي وابنة أخيه أو أخته لأن الكلمة في الإسبانية تحتمل المعنيين أنّ سبب جنونه إنما يعود إلى كتب الفروسية فقررتا أن تجعلاها طعمًا للنيران. وأما ضون كيخوطي فبعد أن استراح عدة ساعات نهض من فراشه وراح ليستفقد خزانة كتبه فلم يعثر على باب الغرفة فتوهم أنّ أحد السحرة فعل هذا، ومع هذا فكان الكاهن والحلاق يحاولان حمله على ترك تلك المهنة الوعرة، غير أنّ ضون كيخوطي كان قد أقنع جارًا له وهو رجل سليم الطوية لكنه قليل ملح الجمجمة ليذهب الاثنان في طلب المجازفات على أن تكون لسانتشو بانثا ـ وهو اسم ذلك الجار ـ صفة حامل الدرع مقابل تعيينه حاكمًا لأول جزيرة أو أراضي يفتتحها وتكون لحاكمها مرتبة دوكي، وقد دفع الجشع سانتشو إلى قبول الاقتراح الذي عرضه عليه ضون كيخوطي، وفي إحدى الليالي دون أن ينذرا أقاربهما بالأمر، تركا القرية، الأوّل ممتطيًا صهوة جواده «روثيننتي» والثاني راكبًا حماره «روثيو».

وفي رابعة النهار أبصرا ما يقارب 30 أو 40 مطحنة هوائية عدها ضون كيخوطي مردة جبابرة ثمّ اصطدم برهبان فتوهمهم قطّاع طرق وبارز خادم إحدى السيدات وهو في طريقه إلى إشبيلية وفيما بعد التقى بمعازة فقضى ليلته عندهم وحضر دفن راعٍ عاشق، وبعد أن استودعهم اصطدم بأناس قساة القلوب، من ينغواس فعصوه وعصوا سانتشو إلى أن هشموا

أضلاعهما وأخيرًا تمكّن من بلوغ الفندق حيث ضُمدت جراحه، وفي نفس البيت الذي أُعدّ للسيد والخادم كان يبيت أكار من أريبلو فبينما كان الكل هجعًا والليل ينوخ بجؤجوئه على الأجفان وقد استثنى جفني ضون كيخوطي والأكار، ظهرت خادمة تلك الدار، الوفية العهد مريطورنيس ـ وهو اسم تلك الخادمة ـ فعانقها ضون كيخوطي ظنًا منه أنّها ابنة صاحب القصر التي جاءت لتبوح له بلواعج صدرها، وما أن تيقن الأكار من أنّ الفارس المغوار لن يخلي سبيل الفتاة قصده وطفق يلكمه ويلكم سانتشو الذي كان يغط في نومه، فعلا الصراخ إلى أن نهض كلّ من كان بائتًا في الفندق وتساقطت الصفعات والضربات من كلّ جدب وصوب في الظلام الدامس إلى أن عادت السكينة فأسرعوا إلى نجدة ضون كيخوطي الذي خالوه ميتًا، وفي اليوم التالي تركا تلك الدار المنحوسة بعد أن قذف سانتشو المسكين قذفة اللحاف.

ولدى خروجهما من الفندق شاهدا عجاجًا متطايرًا كاد يحجب نور الشمس ولما اقتربا لاحظ سانتشو أنّ قطيعي غنم يكدحان صوبهما غير أنّ ضون كيخوطي أصرّ على أنهما جيشان عرمرمان يستعدان لخوض معركة فاصلة، فجرد رمحه وانطلق مغيرًا على أحدهما فقتل بعض الأغنام وما كان من الرعيان إلّا أن استقبلوه برشقهم إياه بالحجارة التي انهالت عليه كشآبيب المطر فسقط عن صهوة جواده بلا حراك، فبادر مرافقه وحامل درعه إلى إغاثته من تلك الحادثة وهجرا تلك الأماكن وواصلا جدهما في طلب مجازفات جديدة ولم يطل بهما المسير حتّى شاهدا في الليل البهيم أنوارًا تتلألأ فظنّا أنّ هناك أمرًا خارقًا فتربصا وباتا ينتظران وصول ذلك الشيء الذي استرعى انتباههما، فإذا بذلك الشيء جنازة فتصور ضون

كيخوطي حملة النعش أطيافًا ينقلون فارسًا جريحًا فهجم على الفريق الأوّل وأجبر الباقين على تركهم أولئك بعد أن جرح أحدهم وبهذا تأكد له أنهم ليسوا بلصوص بل من رجال الدين، وبعد قليل وفي تلك الليلة ذاتها سمع صليل سلاسل وضربات عنيفة وخرير مياه، فدب الذعر في صدر سانتشو وبات ضون كيخوطي رابط الجأش يترقب مجيء النهار ليقوم بأحد الأعمال التي لم يعرفها التاريخ ولا شهدت مثلها الأيام غير أنّه لما برز الصباح رأيا مصانع مائية لقشر القنب، ثمّ بينما هما في طريقهما شاهدا رجلًا يقترب وعلى رأسه شيء برّاق فتوهم ضون كيخوطي أنّ ذلك الشيء هو خوذة ممبرينو، فهاجم ذلك الرجل فولى هاربًا وسقط ما كان على رأسه فإذا به طست حلاق، الشيء الذي لم يصدقه ضون كيخوطي بل أصرّ على أنّه الخوذة المزعومة، ولم يطل به المقام حتّى التقى بجمهرة من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في الجواري وما أن انتهى إلى الفارس المشاء أنهم ذاهبون قسرًا حتّى تجرد للدفاع عنهم ووثب لمقاتلة الحرس وما أن رأى المحكوم عليهم هذا النزاع حتّى حلوا قيودهم وانضموا إلى ضون كيخوطي فهرب الحراس وتركوا للمساجين حريتهم إلّا أنّ ضون كيخوطي طلب إليهم أن يذهبوا إلى قرية طوبوسو ليقدموا طاعتهم وولاءهم لـ دولثينايا، فسخروا من هذا الطلب فشتمهم النبيل فما كان منهم إلّا رشقوا بالحجارة السيد والخادم وفروا بعد أن سلبوهما كلّ ما كانا يملكانه.

ولكن أحد هؤلاء المساجين اقترف أمرًا أصاب به من سانتشو الصميم وهو أنّه سرق له حماره تحت جناح الظلام وحين تغلغل السيد والخادم في سلسلة جبال «سيرامورينا» تذكر ضون كيخوطي كيف كفّر أماديس دي غولا في «صخر الفقير» عن ذنوبه وعزم على أن يحذو حذوه وأوفد

سانتشو كي يقرئ دولثينايا السلام. ذهب الخادم أو حامل الدرع أو المرافق وسرعان ما التقى بالكاهن والحلاق فسألاه عن سيده فأرشدهم إلى المكان الذي تركه فيه، فعزما على أن يخرجاه من تلك الجبال الوعرة بواسطة حيلة قوامها كتب الفروسية وأعمالها، فبدّل الكاهن زيه ولبس حلة أميرة من مملكة ميكو ميكون جاءت لتطلب حماية الفارس، وكان على الحلاق أن يرافق الأميرة المنكودة الحظ. دخل الثلاثة في قلب تلك الغابة فصادفوا كرينيو الزاهد في الحياة بسبب حبه التعيس والذي راح يعيش عيشة الانفراد والعزلة في تلك البقاع الموحشة وبينما هم في البحث عن ضون كيخوطي عثروا بالقرب من إحدى الغدران على امرأة بلباس رجل فدنوا منها وتحدثوا إليها فأخبرتهم بسبب وجودها في هذه الغابة وبهذا الزي. وبينا هم على هذه الحال كان سانتشو قد ذهب وراء سيده ثمّ التقيا بالكاهن والحلاق غير أنهم تعجبوا من رؤية كردينيو ودورتيه ـ وهو اسم الفتاة ـ التي مثلت دور الأميرة وقام الحلاق بدور الخادم، وتوجه الجميع إلى المكان الذي كان يقيم فيه ضون كيخوطي فعثروا عليه وأفضت الأميرة بما يحز قلبها، فقدم الفارس نفسه للدفاع عنها مهما كلف الأمر، وسار الجميع في طريقهم إلى الفندق، نزلوا في الفندق فترك ضون كيخوطي رفاقه وذهب يطلب الراحة وشرع الآخرون في قراءة رواية لقتل الوقت، عنوانها: الفضولي الممل، إلّا أنهم قبل أن يتموا قراءتها سمعوا صياحًا في غرفة النوم، فدخلوها ووجدوا الفارس المنتشاوي راقدًا وقد أعمل سيفه في رقاب أعداء أميرة ميكو ميكون ومزّق ظروف وقرب الخمر وفيما هم كذلك وصل إلى الفندق جماعة من الضيوف عرف من بينهم كاردينيو حبيبته وعرفت دروتيه زوجها وما إن تعارفوا حتّى عادت المياه

الكدرة إلى صفائها، إلّا أنّ الدنيا ضاقت في عيني سانتشو عندما تأكد لديه أنّ دورتيه ليست بأميرة مملكة ميكو ميكون، وما كاد المرافق المسكين يستريح بعد من عبء هذه الوعكة الهائلة حتّى فوجئ بدخول أناس آخرين إلى الفندق قوامهم: رجل مسيحي قدم حديثًا من بلاد المسلمين وبصحبته امرأة مسلمة. ولما أرخى الليل سدوله دارت مباحثات في أفضلية الجندية على الأدب، فوقف ضون كيخوطي وألقى خطابًا استولى بفصاحة لسانه وصائب آرائه على الألباب وسحر القلوب ثمّ بعد هُنيهة قصّ الرجل الذي وصل حديثًا من بلاد المسلمين قصته وقصة غرامه بثريده ـ وهو اسم المرأة المسلمة التي جاءت معه ـ.

ولما فرغ الأسير من رواية قصته دخل إلى الفندق جمهرة من الناس في رفقة الحاكم ضون خوان بيريث دي فيدما الذي ظهر أنّه شقيق الأسير. وكان في معية الحاكم ابنته التي تبعها شاب من أشرف العائلات الأراغونية، واستمع ليلًا من في الفندق إلى أغنية عذبة أنشدها البقال الذي لم يك سوى عاشق كلارا ـ وهو اسم ابنة الحاكم ـ وبينا هو لكذلك شاهد ضون كيخوطي فتاتين في الشباك فدنى منهما فأوثقتاه بمكر إلى قضيب الشباك، وأسرع الناس على صراخ البطل ولكن في تلك الآونة صادف دخول أناس آخرين إلى الفندق هم خدام ضون لويس ـ وهو اسم عاشق ضونيا كلارا ـ الذين جاءوا يبحثون عنه ليردوه إلى داره. وكأن ما روي حتّى الآن لم يك كافيًا لكي يظهر في هذه اللحظة الحلاق الذي كان قد فقد الطست على أثر هجوم ضون كيخوطي عليه، وقد جاء مطالبًا به، ولم يتخلَ الفارس المشاء الرحالة عن غنيمته بينما كان الحلاق يحاول انتزاعها منه قسرًا والناس يصرخون ولا أحد يسمع ماذا كان يُقال إلّا أنّه عادت أخيرًا المياه

إلى مجاريها فقرر الجميع أن تترك الأمور كما هي عليه، وأن يشرع في أخذ التدابير لإرجاع ضون كيخوطي إلى داره ومن أجل هذا حملوه على الاعتقاد بأنه مسحور، فأركبوه عجلة وهكذا ترك الفندق في قفص قاصدًا داره، وفي الطريق توقفوا عن السير طلبًا للراحة في أحد المروج حيث صادفوا معازًا طفق يشرح قصة غرامه فتدخل في الأمر ضون كيخوطي الذي كان ساعتئذٍ خارج القفص وصرح أنّه يتعهد بوضع حدّ لما قاله المعاز بقوة عضده المفتول فما إن رأى المعاز أنّ ضون كيخوطي يسخر مما رواه حتّى شتمه ولعن ساعة مولده فاستاء ضون كيخوطي الذي ما كان عنده للهزل مكان واشتبك الاثنان في عراك دام إلى أن رنّ صوت صور فطلب ضون كيخوطي من المعاز هدنة وما أن منحه إياها حتّى أدار وجهه وقصد المكان الذي سمع منه ذلك الصوت، فشاهد من بعيد أناسًا يحملون تمثالًا للعذراء في طواف فتقدم ضون كيخوطي منهم ليتحقق ما هو ذاك وما إن دنا منهم حتّى طلب أن يردوا إلى السيدة حريتها المسلوبة، فحسب رجال الدين والقساوسة كلام ذلك الفارس إهانة وسخرية، واستقبلوه بالعصي فدافع المشاء الرحالة عن نفسه حسبما سمحت الظروف ولكنه أخيرًا سقط على الحضيض فتركوه على أنّه ميت. ثمّ أعيد ضون كيخوطي إلى القفص وأركب العجلة التي لم تتوقف إلّا أمام داره في مسقط رأسه حيث استقبلته بفرح الوصيفة وابنة أخيه، واسودت الدنيا في عيني امرأة سانتشو وانكسر قلبها حين رأت أنّ زوجها عاد خاوي الوفاض صفر اليدين حتّى من لقب الشرف الذي كان قد وعد به.

بل ضون كيخوطي من مرضه ومل من البقاء في داره وكره حياة البطالة فعزم الرجوع ثانية إلى حياة المجازفات وأبلغ سانتشو رغبته فقررا هجر

عائلتيهما من جديد والذهاب مرة أخرى في طلب مبتغاهما: الخادم في أثر لقب الشرف الذي طالما أضاع مخه من أجله، والسيد وراء الإتيان بأعمال تحيّر الألباب وتذهل العقول ويقف التاريخ أمامها في بهتة واندهاش وقصدا أوّل ما قصداه قرية الطوبوسو إلّا أنهما بعد أن تجولا في ساحاتها وشوارعها لم يهتديا إلى قصر الدولثينايا فغادراها عند طلوع الفجر.

ثمّ بينما صارا خارج البلدة.عزم ضون كيخوطي على إيفاد سانتشو بمهمة إلى سيدة أفكاره فدبر الخادم حيلة يخدع بها سيده ولما قفل راجعًا أنذره بأن دولثينايا ترغب في ملاقاته وبينما هما كذلك إذا بثلاث فلاحات يظهرن وقد امتطين ثلاثة حمير، فقال سانتشو لسيده إنّ إحداهن لدولثينايا فصدق المشاء الرحالة قول حامل درعه ولكن لما اقترب منهن تيقن أنهن من عامة الناس فأقسم له سانتشو وأغلظ أنّ دولثينايا قد جاءت برفقة وصيفتيها فرضخ أخيرًا السيد لقول المرافق وبدا له أنّ السحرة قد بدلوا سحنة سيدة أفكاره، ومن بعد التقى بفرقة المسرحيات الهزلية لانغولو الشرير ثمّ في الغابة اصطدم بفارس مشاء فنازله وبعد أن قهره اتضح له أنه صديقه المتخرج شمشمون كرسكو فعزا وقوع الحادث إلى لؤم السحرة الأشرار.

وبعد أن تغلب على الفارس ذي المرايا التقى بطلنا النبيل برجل زنيق وقور يسمى ضون دييغو دي ميراندا فسار بمعيته وفيما هما كذلك شاهد ضون كيخوطي عجلة عليها أقفاص فيها أسود فتصدى للمروّض وحمله على أن يفتح الأقفاص ووقف ينتظر وثوب الأسد وسيفه في راحته، وبعد أن تم له ما أراد أغلق المروّض القفص مخافة وقوع ما لا تحمد عقباه وقد احتفي احتفاءً عظيمًا بفارس الأسود ـ وهذا لقب ضون

كيخوطي الجديد بعد أن كان معروفًا بالفارس ذي السحنة الكئيبة ـ في دار ضون دييغو وعندما تهيأ مرة أخرى للخروج في طلب المجازفات أرسل ضون دييغو في صحبة السيد والخادم ولده وهو فتى نجيب حاذق.

وما إن أصبحا وحدهما حتّى التقيا بمسافرين في طريقهم لحضور حفلة زواج كمتشو المثري بـ كيتاريا الحسناء. حضر حفلة الزفاف المذكورة جمهور غفير ولكن لم يتم في الحقيقة زواج كيتاريا من كمتشو بل تزوجت من باسيليو الفقير الذي كان مغرمًا بها. دافع أنصار كمتشو عن هذا كما كافح أنصار باسيليو عنه وانحاز إلى هؤلاء ضون كيخوطي ولم تتفاقم الحال؛ لأنّه عاد إليهم رشدهم. وبعد أن ترك السيد والخادم مكان العرس دخلا غار مونتسينوس؛ لأن مخيلة السيد أملت عليه أمورًا ما سبق وصفها ولا قراءتها، ومن ثمّ دخلا بلدين كان سكانهما قد انقسموا على بعضهم؛ لأنّ رئيس بلدية أحدهما نهق وسخر سكان القرية الأخرى منه. وبينما كان ضون كيخوطي جادًا في طلب المجازفات رأى قاربًا مشدودًا إلى جذع شجرة قرب ضفة نهر، فبدا له أنّه سيأتي عملًا ماجدًا من أعمال الفروسية فحلّ قلس القارس وركبه، فساقه التيار وما إن تأكد سانتشو من دنو الخطر حتّى أخذ يصرخ ويصيح وكان القارب على وشك أن يتحطم في كوة المطحنة، فخرج الطحانون وبأيديهم الهراوات لإيقاف القارب ولما رآهم ضون كيخوطي حسبهم عفاريت فاستل سيفه إلّا أنّه سقط هو ومرافقه في النهر وكادا يموتان غرقًا لولا أنّ الطحانين أنقذوهما فغادرا المكان بعد أن جفّت ثيابهما، وتغلغلا

في غابة حيث تصدى لـ ضون كيخوطي صيادون قدم لهم جزيل احتراماته بعد أن سقط عن صهوة حصانه، وأما زوج السيد فقد طلبت من ضون كيخوطي أن يقبل ضيافته ويستريح في قصره الذي كان على مقربة من ذلك المكان فقصد الجميع القصر وتمكن بطلنا هذه المرة من أن يرى بعيني رأسه ما كان قرأه في كتب الفروسية. وأما الدوقي وزوجه ـ وهو لقب الصيادين اللذين التقى بهما ضون كيخوطي ـ فعزما على أن يتسليا على حساب الفارس فأعدا لهذا الأمر الحفلات التي تنم عن روح وأعمال الفروسية ووصل بهما الحال إلى تعيين سانتشو حاكمًا غير أنّ حكمه دام قليلًا لقيام ثورة ضده قضت عليه وقوضت دعائم دولته. قنط ضون كيخوطي من عيشة البطالة فودع الدوقيين وراح يقصد برشلونة وذات يوم بينما كان ضون كيخوطي على الشاطئ رأى فارسًا أبيض اللباس من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، يدنو منه، وقد وضع رفراف خوذته إلى أسفل وهلالًا فوق درعه فلما اقترب منه قال له أنّه يجدّ في طلبه ليحمله على الإقرار بأن سيدته أجمل من دولثينايا دلطوبوسو وإن أبَى الإقرار بهذا دعاه إلى المبارزة وعندئذ تقرر الرماح مصير كلا الفارسين. قبل ضون كيخوطي المبارزة فورًا لدى سماعه هذا وما إن اشتبكا حتّى سقط ضون كيخوطي عن صهوة جواده مقهورًا إلّا أنّه لم يقر بل لم يعترف بما كان قد طلبه منه الفارس ذو الهلال الأبيض وفضّل الموت مناديًا بتفوق حسن دولثينايا دلطوبوسو، وأكد الفارس الغالب أنّ دولثينايا أجمل امرأة في العالم غير أنّه أجبر الفارس المغلوب على ملازمة داره وعلى ترك السلاح مدة سنة. وما إن قطع عليه هذا العهد حتّى

ذهب. واسودت الدنيا في عيني ضون كيخوطي وضاق صدره فلم يرض البقاء في برشلونة وغادرها في طريقه إلى بلدته ولما كان عائدًا داسته الخنازير وسخر منه الدوقيان. وبعد وصوله إلى قريته دب السقم في جسمه من هول ما قاساه من مرارة الغلبة فتبددت أوهامه وعاد إليه رشده. وهكذا قضى نحبه ضون ألونصو كيخانو الصالح».

- V -

أشخاصه

شخصان رئيسان يشكلان قوام الرواية وأما الآخرون فليسوا سوى الإطار لهاذين الشخصين ضون كيخوطي وسانتشو اللذين هما بطلا الرواية في آنٍ واحد. ولقد قيل بادئ ذي بدء أنّ السيد والخادم، الفارس وحامل الدرع ليسا في الحقيقة صورتين بل إنهما ابتداعان ركبا من نبذ بشرية، الأوّل مجنون والثاني رجل طيب إلّا أنّه قليل ملح الجمجمة، وكلاهما فارس، الواحد يمتطي صهوة جواد هزيل والآخر يعتلي ظهر حمار صبور وما زالا طيلة أربعة قرون يتقبلان ترحيبات وتصفيقات الناس وتحيات رجال الأدب. وقيل فيهما أنهما يمثلان أرسخ عامل تاريخي في أدوار الإنسانية على الإطلاق وقد شوهدت في أحدهما فكرة الخير وفي الآخر فكرة الاستفادة ويمكن أن يرى حسب النقاد روح التجرد في كليهما المكونة من السمو في السيد ومن الحقيقة في الخادم. ولاحظ أحدهم في أنّ السيد قد اعتنق ديانة نكران الذات وإتيان الأعمال لوجه الله وقام كضد له حامل الدرع الذي إنما يأتي الأعمال حبًا بالمنفعة الشخصية الإيجابية، فإذا كان ضون كيخوطي علويًا مجردًا، فـ سانتشو يكون رجلًا إيجابيًا ولهذا أصبح الشعب إن رأى إنسانًا فيه روح جديدة مصلحة أو أنه يعمل لصالح الإنسانية، لقّبوه بـ الكيخوطي ولقبوا كلّ من يأتي عملًا حبًا

بالمنفعة الشخصية سانتشو، فصفات الأوّل تتجلى في أصحاب النظريات العلوية وفي أصحاب الأحلام الذهبية وفي ناكري ذواتهم، وصفات الثاني في الأنانيين وفي الحاسبين للأمور حسابها وفي الإيجابيين.

فأشخاص هذا الكتاب الرائع لا ينتمون، كما هي الحال في كتب الفروسية، إلى طبقة واحدة من المجتمع، لا وجود لبنات الملوك ولا للأميرات ولا للأشراف الرفعاء بل يستعرض في مزيج متنوع جمهرة من القساوسة والحلاقين والدوقات وأصحاب الفنادق واللصوص والفتيات المغرمات والوصائف والفلاحات والسيدات وتجار الحرير والأكرة والخدم والفرسان والرعيان والهزليين والأسارى والمساجين أي أنّه استعرض مجتمع القرن السادس عشر وتصدى للطبقة المنحطة أكثر من تصديه للطبقة الرفيعة وكل هذا بصورة تهويلية إلّا أنها في الأساس تمثيل ساذج لمجتمع ذلك الزمن ولمجتمعنا ولمجتمع الأجيال المقبلة.

والمشهد الذي يستعرض فيه النساء رحب ومختلف الألوان في هذه الرواية: سنتشيكا، ابنة سانتشو، فتاة دبيرة تطيع أوامر والديها وتساعد على القيام بإدارة المنزل، وتريزا بنثا تمثل امرأة المنزل، لا تكلّ ولا تملّ في عملها تحبّ الملابس والعقود لا لأمر ما إلّا لدب الحسد في قلوب جيرانها، تميل إلى ضرب الأمثال كزوجها، وترضى بالعيش كضريباتها. لوثيندا فتاة مثال للطاعة الأبوية ومع أنها مغرمة حتّى الجنون، تكظم عواطفها وتقنع بتعاستها، ودوريتايا من أحسن النسوة اللائي ظهرن في الكتاب، وخيرهن اعتدالًا ورزانة وحصافة وجمالًا وهي ضحية فرنندو المنقلب. وكميلا هي المرأة الحسناء التي لا تقوى على صد إغراء المحيطين بها ولعلها تجسد ضعف الإرادة، مرثالا ترمز إلى المرأة التي

لا تشعر بالحب ولا عرف أحد كيف ينفذ إلى قلبها، التيسيدورا هي الفتاة الخفيفة الرأس المتهورة، المطرابة على استعداد دائم للازدراء بالمساكين الذين يقعون تحت رحمتها، وصيفة ضون كيخوطي أكمل شخصية في الرواية وهي تمثل تلك الوصائف اللائي لمرور زمن طويل على وجودهن في البيوتات يعتقدن أنهن عضو من أعضاء العائلة، فيسدين النصائح ويقاسمن الدار أفراحها وأتراحها، ابنة أخت الكيخوطي تمتثل لإرادة الوصيفة لاعتقادها أنّ ما تقوم به إنما تعمله لصالح الجميع، ليندرا هي الفتاة التعسة التي تتوق إلى الحرية فتصيخ سمعها لكلّ دخيل، ثريدة هي الحب المجرد فتتحمل أكبر التضحيات في سبيل رغبتها، مولينارا وطولوسا فتاتان تعيستان يستولي عليهما الذهول والحيرة عندما تعاملان برفق واحترام ما عرفاهما قبلًا، وفي بادئ الأمر خالتا سخرية وازدراء كلام البطل ولكن من بعد باتتا كمسحورتين لكونهما رأتا كيف رفعتا من الوحل حيث كانتا تعيشان، كيتاريا الفتاة المغرمة بـ باسيليو تستسلم لتيار العواطف الجارف وبشجاعة فائقة تلقي بنفسها تحت مخالب الآلام والفقر لزواجها من الرجل الذي لا يملك من حطام الدنيا فتيلا، مريطورنس الوفية العهد هي تلك الفتاة المعطاء. وكامرأة ضعيفة الإرادة كلفت بـ سانتشو الذي طلب منها وهو مزمع على الذهاب مع سيده أن تأتيه بكأس ماء بعد أن كان سخرية ضيوف الفندق، الدوقة تمثل تمثيلًا لا غبار عليه، المرأة المحبة للفراغ والتسلية والطرب المعدومة الثقافة غير أنها مهذبة في أمور سخيفة، والنساء البرشلونيات سيدات يحببن الهزل والتسلية بشكل شريف وضونيا رودريكث تمثل وصائف البيوتات الكبيرة اللائي يعشن في ظلّ الحياة الرغدة وعندما تسنح لهن الظروف ينتقدن من يخدمنه وضونيا كلارا دي

فيدما هي الفتاة التي تبدأ أسماعها في التقاط الكلمات الغرامية الأولى. فكلّ هذه الأشخاص الموصوفة وصفًا رائعًا بما قل ودل كغيرها من الموصوفات التي يلم بها قلم الروائي العبقري، تمشي جنبًا إلى جنب مع الحمامة الطوبوسية البيضاء، إمبراطورة الطوبوسو دولثينايا المثلى.

ولقد وصفت اليد العبقرية كذلك الذكور وصفًا حلّق في سماء الإبداع، فنرى ونحن نتصفح الرواية الأسير الصبور الشهم، وقسيس الدوقيين الصارم الذي لا تلين له قناة، ورئيس كهنة طليطلة الرزين الأديب، والكاهن بيرو ببريث الرجل الساذج الكريم، وضون فرنندو الدوق المتعجرف وضون دييغو دي ميرندا المهذب الرصين كردانييو التاعس، لوطاريو العادم الإخلاص، انسلمو المخدوع، خيناس دي بسامونتي الماكر الماهر.

ويفصل هرتزنبوش بأصالة رأي صفات أصحاب الفنادق الأربعة الذين ظهروا في الرواية فيقول: «أمّا ابن سان لوكار فساخر وكريم، يرضي ضون كيخوطي ويحميه من الأكرة ويسامحه بالمصروف، وبلوميكي الأيسر رجل انتفاعي وحقود يطالب بدفع ماله ويحتفظ بخرج سانتشو، ويحتد مع اللصوص ضد ضون كيخوطي بعد أن كان الفارس الطيب السريرة قد سكن روع الضيوف الذين كانوا أساؤوا معاملة صاحب المضيف الوقح، وصاحب فندق الأقزام المضحكة رجل ذو أخلاق سليمة، يعجب النبيل العبقري في وسط بحر ضلاله، وصاحب الفندق الذي في طريق سرقسطة مغرور وشحيح على مأكولات منزله وهو لا يطبخ سوى طبخة واحدة يساهم فيها». وما قاله هرتزنبوش في أصحاب الفنادق ليقال عن اللصوص والمعازين وغيرهم.

لئن كانت الأشخاص الإناث تشكل الأساس الذي يوصلنا إلى شخصية

دولثينايا الخالدة فكافّة الأشخاص الذكور تؤلف الإطار الذي يحيط بأظرف شخصيتين وأبدع ما أوجدت العبقرية التي حاكت الرواية وهما ضون كيخوطي وسانتشو فهما شخصيتان على غرار شخصيات الملك ليار وساخيسموندو وأديبو وهما من المبتدعات التي لا تنتمي إلى أمة دون الأخرى بل تنتمي إلى العالم بأسره، مبتكرات مثالية لا تشيخ ولا يعرف الهرم إليها سبيلًا بل عكس ذلك كلما ابتعدنا عنها وطال الزمن وجدناها أشد بروزًا وأعظم قوة.

ولكن كم من مجلدات ألفت في شخصية ضون كيخوطي! لقد كتب أحدهم عنه فوصفه بأنه شخصية هزلية إذ لم يحسن النظر إليه إلّا من خلال النزاع حول خوذة ممبرينو دون أن يفكر في أنّ هذه الشخصية السخيفة هي التي نادت: «لا وجود لعصافير اليوم في أعشاش الأمس». وهو الرجل الضعيف الذي لا حول ولا قوة له فينازل الجبابرة ليتغلب عليهم ويدفع بنفسه وراء المجازفات وقد حمل في صدره غاية سامية ومقدسة: الدفاع عن الضعفاء، حماية التعساء ومواساة الفقراء، وقد قيل فيه أنه يمثل الشرف الإسباني كما لو كان من السهل اعتبار الشرف من الأمور الطبيعية الخاصة التي تميز شعبًا معينًا، فـ ضون كيخوطي شخصية عالمية؛ لأنّ كثيرًا من الأفكار العلوية التي احتوت عليها نفسه هي في صدور غيره من رجال العالم، وهو ذلك الرجل الذي لا يقدر الأخطار التي يتعرض لها ويكافح بحماس عن المذهب الذي يريد فرضه، مذهب عالٍ، عظيم، سام، يبلغ بصاحبه الدرجة القصوى من حيث نكران الذات وحبّ الغير ولو لم يكن كذلك لما ترك عيشه الرغيد في مقرّ داره وأهمل ممتلكاته ليطوف في العراء على أثر المجازفات وقال فيه أحد الكتّاب: «إنّ جنون ضون

كيخوطي يتجلى في عدة أطوار: فهو مثالي حين ينتظر القرويات، وخطر في مغامرة القارب المسحور وشجاع في تجولاته ليلًا في أزقة الطوبوسو، ومتهور في مجازفة غار مونتيسيونس، ومجازفة الأسود، وجامح في منازلته لـ الفثكايينو وغبي في مقاتلته مع كريدينيو» وقد أصاب ذلك الكاتب في تعليقه إذ لا يدفع الجنون إلى القيام بأعمال لو رويت لبدت غير عادية لا يمكن تصديقها؟

كان يتعذر على سرفانتيس أن يصف بطل لامانتشا كرجل عاقل وكان عليه حتمًا أن يقول لنا أنّ دماغه ينتمي إلى فئة الأدمغة التي ينبغي أن تخضع لدراسة الأخصاء بالمجانين، وبهذا تظهر حقيقته ويتضح ذلك الإطار الجلي العتم الذي يلاحظ في الرواية ألا وهو الرجل المثقف الخبير، القارئ الذكي ما دام توهمه لا يرى شيئًا يمت إلى الفروسية بصلة ومتى لاح له أمر من بقايا آثار كتبه الغالية على قلبه استحال إلى مجنون لا دواء له. ولقد قدمنا أن أحد الكتّاب أكد أنّ ضون كيخوطي يمثل الشرف الإسباني ونقول الآن إنّ لابوينتي في مؤلفه «ملك كتبنا» يقول إنّ المشاء الشهير «يمثل الإسباني المبتكر المجازف إن لم يكن في الواقع فعلى الأقل في الميل، المزدري بالخطر الثائر على من يحول دون بلوغ هدفه، المحب للقتال... الخ» أجل يمكن أن يكون مجازفًا ومبتكرًا في أمور ليست مثل إصلاح البيت والسير في جبال «سراموريِنا» الوعرة بعد أن ردّ للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في الجواري حريتهم، أمّا كونه لا يبالي بالأخطار فهذا صحيح لأن شعاره «أنا أساوي مئة رجل» وإنه لسخيف ورزين مجنون وخبير ومنصف في أعماله ومعارض لأحكام العدالة إنه لشخصية إنسانية لأبعد مدى «يتجسد فيه سمو الحقيقة بشكل مضحك» وهو تلميذ

لأفلاطون ـ كما يقول مونطلفو ـ في رداء السخافة والبلاهة: «لئن جردناه من سيفه ولباسه كفارس مشاء رحالة لبقي الفيلسوف».

وأما شخصية سانتشو فتبرز إلى أبعد حد شخصية الفارس السامي في حين إنّ أغلب النقاد قد رأوا في حامل درع ضون كيخوطي الرجل الإيجابي، الأناني الذي يسعى لمنفعته.

والآن فلنبحث في هذه الشخصية: فعند بدرو آ. غرثيا: «إنما هو التجربة المجردة من السمو، والفكر السليم دون التعمق في الأسباب، والشهوانية العملية الخالية من الذي المثل الأعلى ولا يهزها سوى غرضها الخاص» ويقول بيرنس وهورطادو أنّه: «ذلك العامل الذي يحسب عمله اليوم بـ المرافاديس ـ وهو نقد ذلك الزمان ـ رب العائلة الذي لا يملك سوى الحمار وقد علمه الضيق وضنك العيش السعي في طلب الرزق وتحسين الحال» وعند طوبينو: «المادة حسب ما تفهمها الجماعة المثقفة أو غير المثقفة، مفتاح وسر الحياة الإيجابية والتاريخية بما فيها من ضعة وأنانية عملية مدعومة بمقدار لا حد له من التعقل والجهالة» وعند مينث: «يمثل الشعب الخشن المادي في زمانه، ففي نظره لا توجد غير سعادة واحدة: سعادة المأكول والمشروب والنوم والإثراء مع قليل من العمل» ولكنا نصارح هؤلاء النقاد المحترمين أنّ شخصية سانتشو هي من أسوأ ما درس من شخصيات الرواية.

لو كان طامعًا وأنانيًا لما ترك حكم الجزيرة لأول مضادة قامت في سبيله ولو كان محبًا للمادة لهجر سيده عندما تحقق أن حياة الارتحال لا ترد عليه من مكافآت سوى أوجاع وسوء طالع وهذا يتألف من لكمات وعصوات وقذف باللحاف فـ سانتشو رجل سلي الطوية، ظريف، طائع،

ساذج صدوق وغير انتفاعي في آخر الرواية، يضمر الوفاء والحب لسيده، يهجر امرأته وأولاده ليلتحق به ويعلم أنه في رفقة الفارس الرحالة يمتطي المجازفات فلا يلقى سوى العصي والحجارة فيتجلد في كلّ مرة وعندما يتوفى البطل يذرف الدموع، دموع الأسى والأسف أي إنه يبكي ولا يتباكى.

- VI -

روايتا الكيخوطي

«الفضولي الممل» و«الأسير»

لقد كتب الشيء الكثير حول الروايتين المدرجتين في الكيخوطي وكلتاهما تقعان في الجزء الأوّل: فالأولى تستغرق من الفصل 33 حتّى الفصل 35 وعنوانها «الفضولي الممل» والثانية تستغرق من الفصل 39 حتّى 41 وعنوانها «تاريخ الأسير» وتلاحظ في كلتاهما يد سرفانتيس الماهرة من حيث الجمع بين الأمور النفسانية والطرافة والحوادث الحقيقية والخيالية، ولقد حذفت هاتان الحليتان من متن الكتاب في كثير من طبعاته ووصفتا بكونهما من حلى سرفانتيس نظرًا للدور الذي تلعبه الأولى إلى جانب المتخرج فيدريبرا ومحاورات الكلاب ولكون الثانية تحتوي على قسط كبير من تاريخ الأسرى في الجزائر وحتى عن تاريخ سرفانتيس نفسه.

ولا يسوغ أن ينكر أنّ رواية «الفضولي الممل» ذات أصل إيطالي ويكفي أن نتذكر مطلعها الذي يقول: «وفي فلورنسيا المدينة الغنية الجميلة...» ولقد أحسن وأجاد في اختيار إيطاليا مركز ثورة وفوران الشهوات ولو كانت الرواية تصح أن تحدث في أي وقت كان وفي كافة البلدان. أمّا موضوعها فهو كما يلي: «أنسلموا الغنيّ المثري مغرم بزوجه كميلا من

أجمل نساء فلورنسيا ولكنه يعتقد أنّه تنقصها الفضيلة، فتقض عليه مضجعه الغيرة ويفضي بلواعج صدره إلى صديقه لوطاريو ويطلب إليه بإلحاح أن يختبر فيما إذا كانت زوجته تعبث بإيمان الإخلاص والوفاء مقابل هدايا ووعود معسولة، فيرفض لوطاريو في أوّل الأمر إلّا أنه إزاء إلحاح صديقه يجيبه إلى طلبه فتقابله كميلا بالازدراء. يبلّغ صديقه بالأمر فيعاند هذا وكي يفسح المجال لصديقه وزوجته يتظاهر بأنه قام بسفر بعيد ثمّ يعود لوطاريو إلى مغازلة كميلا بكل ما أوتي من حرارة إلى أن يحدث أخيرًا ما كان يتوقع حدوثه وقد قال فيه العالم النفساني: «لا توجد قوة بشرية في وسعها أن تتحمله» وقعت الكارثة فكانت قصاصًا لإلحاح الزوج الفضولي، ودخلت الزوجة الدير بعد أن رأت نفسها موضوع سخرية وذهب الصديق الكاذب إلى حرب فلنديس في طلب الموت». ويصح إدراج هذه الرواية في صف القصص المثلى نظرًا للأمثولة التي تلقيها، علينا وقد نظمها سرفانتيس شعرًا فقال:

«إنما المرأة من زجاج

لا يجوز أن يجرب

إن كانت تكسر أم لا

لأن كلّ شيء ممكن»

تنبغي الإشارة إلى أمر وهو أنّه في هذه الرواية تتلمس الحقائق ذات المغزى الفلسفي البعيد الغور والأخلاق الرفيعة التي في مراعاتها حصلت نجاة العاشقات في الكيخوطي ومن عدم مراعاتها والتظاهر بها سقطت كميلا إلى الحضيض في الفضولي. فلهذا لا شك أنّ الذين يقرأون هذه

الرواية الخالدة قراءة سطحية، لا يدركون الصلة التي تجمع بين قصة المنتشاوي والفلورنتيني، في حين إنّ الذين يقرأونها قراءة روحية يكتشفون أنّ بين القصتين رابطة متينة قوامها قوة جمال لا تجارى وقوة علوية سامية ترشد القارئ وتنوّره دون أن يشعر وتوصله إلى النقطة التي ترفع له النقاب عما قد حجب، عن الأمثولة الأخلاقية الغالية العزيزة على قلب النساء على اختلاف طبقاتهن.

لا ريب في أنّ سرفانتيس قد جاء بهذه الرواية ليؤكد نظريته في القضية الأخلاقية وفي تأثير المجتمع على المرأة فيما يتعلق بتواطؤ الرجل على عفافها وفضيلتها، كما أنها حجر الزاوية في متن الكيخوطي لتنافي وتوازن الأصالة التي تجلت في كلّ ما يمثله الكتاب في هذا الخصوص وتنعكس عليها صورة الأشخاص الإناث اللائي يقمن بأدوارهن في موضوع سرفانتيس.

وفيما يتعلق برواية الأسير فقد تقدمت بنا الإشارة إلى أهميتها نظرًا لما فيها من المعلومات القيمة عن حياة الأسر وموضوعها: «إنّ فتى من مقاطعة ليون مولوع بحياة الأسفار يبحر من اليكنتي قاصدًا جنوة، فيجول في عدة مدن إيطالية ثمّ يتجند في جيش ديغو دي أوربينا وبعد أن يساهم في حروب فلندس يعود إلى إيطاليا ويشترك في موقعة ليبانطو ويقع أسيرًا فيُنقل إلى القسطنطينية وبعد أن يطوف في سواحل أفريقيا ينتقل إلى ملكية حسان باشا ويبقى في الجزائر وبينما هو ذات يوم في الحمام يبصر قصبة تلوح له فيقترب وتقع القصبة وفيها كمية من النقود، تعاد العملية مرات وأخيرًا يتعرف إلى الشخص المحسن الذي يكرمه ليخفف عنه تعاسة الأسر فيشتري بالنقود التي كانت تعطيه إياها ثريده ـ وهو اسم المرأة

المحسنة ـ قاربًا ويخبر أصدقاؤه الأسرى بالأمر وفي إحدى الليالي يغلّون أيدي البحار المسلمين ويخطفون ثريدة بعد أن يوثقوا والدها ويتوجهون إلى السواحل الإسبانية وبعد أن يواجهوا مصاعب عديدة يبلغ بهم الحال إلى غرناطة فتعتنق ثريدة الديانة المسيحية».

تسترعي الانتباه في الرواية الأمانة التاريخية ووصف حياة الأسر في الجزائر وقد قال بعضهم أنّ هذه القصة لا تنسجم مع كتاب سرفانتيس فأخطأوا نظرًا لما فيها من الأمور المهمة التي تبعث في نفس القارئ الارتياح وتتعلق بحياة المؤلف علاقة مباشرة أو بحياة رفاقه في الأسر.

ـ VII ـ

تقليدات الكيخوطي

كتب سرفانتيس بعد أن أتمّ الجزء الأوّل من الكيخوطي ينذر بقرب صدور الجزء الثاني وكان وعده هذا سنة 1605 إلّا أنّه مرت أعوام ودخلت سنة 1914 دون أن يفي بما وعد به، إنه راح يعد كتابه على مهل فهذا مما لا ريب فيه، وإنّه لو لم يصدر أفيانادا تتمة الكيخوطي لظلت مخطوطة سرفانتيس دون أن تنجز، فهذا أكثر من أكيد. وعلى كلّ حال، فـ سرفانتيس كان من المتنبئين عندما تكهن أنّ رجلًا غيره سيواصل رواية قصة الكيخوطي إلّا أنه لم يتفوق في سكبه حيث إنّ نفس سرفانتيس قال فيه: «لقد كتبه بريشة نعامة غليظة أساء بريها».

فالإنذار بإصدار حوادث المرة الثالثة لخروج ضون كيخوطي ومرور عدة سنوات في انتظار ذلك الجزء دون جدوى، دفعا بفرنندث دي أفيانادا إلى كتابة مؤلفه وغايته الأولى تحوم حول الاستفادة من نجاح الكيخوطي ولدينا في التاريخ شواهد عديدة لمثل هذا الحادث أي أن يشرع أحد الكتّاب في تصنيف مؤلفه ثمّ يأتي من ينجزه من بعده وخصوصًا في ذلك الوقت الذي لم تكن لتحترم فيه حقوق التأليف.

ولئن قوبل كتاب سرفانتيس بمؤلف دي أفيانادا لما شكّ أحد في أنّ هذا الأخير أدنى بكثير من ذاك ولقد قال سرفانتيس في مقدمة الجزء

الثاني ملمعًا إلى كتاب خصمه: «ما حسن قط مطلب ثان» ولم يتوفق أحد إلى عبارة أصدق من هذه. ويقول مونتيانو ولويندو في مقدمة طبعة الكيخوطي الصادرة عن مدريد سنة 1732: «ما من رجل حكيم ينحاز إلى جانب سرفانتيس» إنها لعبارة مغرضة إلى أبعد حد كما أنّ حكم ميانس غير صائب في سيرة سرفانتيس عن أسلوب أفيانادا بقوله إنه: «محشو بالسرقات والعبارات التي لا تمتّ إلى اللغة الإسبانية بصلة وهو أسلوب خشن مضطرب وصفوة القول إنّه أهل لكل ازدراء» ومما لا ريب فيه أنّ كيخوطي دي أفيانادا لا يمكن أن يقارن بـ كيخوطي سرفانتيس وهذا لا يعني أنّه خالٍ من كلّ قيمة أدبية. ولم يقم ناقد أدلى برأيه في الكيخوطي الملفق دون تحيّز وبإخلاص وأصالة رأي مثل العالم الإسباني الشهير منندث إي بلايو حيث قال: «النكتة خشنة ولكنها غزيرة وبديهية، القوة الهزلية همجية ولكن لا ينكر لها وجود، والمحاورة وإن كانت حبلى بالبلاهة التي تشمئز منها النفس لدى قراءة كلّ صفحة، فهي خاصة ومناسبة للشخصيات الرابلية[1] التي أدخلها الروائي في سير الحوادث وأعطى كلاً منها دورًا، وأما ما يحط من قيمة مثل هذا الكتاب وينزله إلى أسفل الدركات لا بالنسبة إلى الكتاب العبقري الذي دنسه دي أفيانادا عن بلاهة فحسب بل بالنسبة إلى أمور كثيرة من خاصيات ذلك الزمن لا تتعدى حدود الإبداع والتسلية، ومنها الفكرة المنحطة المسكينة التي يقدمها المؤلف عن الحياة، وابتذالية أفكاره وغياب كلّ مثل أعلى وكل سمو جمالي وتمرغه في كلّ ما هو مزنخ وقبيح بلذة وانشراح طبيعيين، والاعتناء الذي يكرسه لكل ما هو غشيم ولكل ما هو دنيء ومهوع من وظائف الأعضاء التي يتركب منها الجسم

(1) نسبة إلى المؤلف الفرنسي الشهير «رابلي».

الحيواني. ليس هو بالكتاب الخلاعي المتهتك؛ لأن هذا مما لا يرضاه زمانه وطبائع سلالته ولكنه كاتب الأقذار ومن أنتن الكتّاب الذين يمكن أن يعثر عليهم رائحة».

ولقد مرّت ثلاثة قرون وما زال الاسم الحقيقي لمؤلف الكيخوطي الملفق مجهولًا كجهله عندما كتب سرفانتيس: «لو ساعد الحظ وأهدى إلى معرفة المؤلف» وكما يقرأ في آخر الجزء الثاني أو في تلك العبارات التي جاءت في المقدمة: «لا يتجرأ على الخروج إلى الحقل المفتوح ولا أن يظهر تحت السماء الصافية الأديم، لقد أخفى اسمه وجحد وطنه كأنه قد اقترف جريمة الخيانة ضد شخصية الملك. لئن ساعدكم الحظ واهتديتم إليه...».

وأورد الكتاب والنقّاد أسماء لا تحصى ولا تُعد إلّا أنّه قد تعذّر عليهم جميعًا الإتيان بالأدلة التي تفي بالغرض المطلوب وتكشف عن هذه النقطة العمياء وصفوة القول أنّه ما من أحد يقدر أن يدلنا على الكاتب الذي تستّر تحت اسم فرنندث دي أفيانادا لإصدار الجزء الثاني من الكيخوطي، ومع هذا فقد اتّفقت الآراء على أنّ مؤلف الكيخوطي الملفق إنما هو أحد المؤلفين المسرحيين ومن ألد أعداء سرفانتيس.

بات كيخوطي فرنندث دي أفيانادا في عالم النسيان أكثر من مئة سنة ـ رغم أنّه لم يلق في عصره نجاحًا ـ إلى أنّ ترجمته إلى الفرنسية بل حوره لاساج ويرجع الفضل في نجاحه عندئذ إلى ما أضاف عليه هذا لا إلى ما أودع فيه دي أفيانادا، وما أضافه الكاتب الفرنسي وما اقتبسه عن الجزء الأوّل من كتاب سرفانتيس، حمل على الاعتقاد بأن سرفانتيس في الجزء الثاني نقل عن كتاب خصمه الأمر الذي أوضحه مننّدث إي بلايو في

مقابلته بين المؤلفات الثلاثة ضنًا بسمعة صاحب الكيخوطي الأصيل. وستظل هذه القضية المعقدة على ما هي عليه من إبهام وغموض ريثما يعثر على وثيقة تزيح اللثام عن شخصية خصم سرفانتيس بالضبط.

وأمّا المؤلف الذي وضعه صاحب الاسم المستعار فرنندث دي أفيانادا فهو أوّل تقليد لـ الكيخوطي فيما إذا استثنينا المطبوعة الكاذبة الصادرة سنة 1609 عن باريس تحت عنوان: «مقتل الوفاء والدفاع عن الشرف» وهي قصة مقتبسة من حكاية مرسالا والراعي كريسستمو ومطبوعة باللغتين الفرنسية والإسبانية، غايتها تيسير تعلم اللغة الإسبانية للطلاب.

وأصدر الكاتب الفرنسي سورل ده سوفيني سنة 1627 مؤلفًا من أتفه المؤلفات في هذا الموضوع، عنوانه: «الراعي الشاذ» وهو انتقاد للروايات الطبيعية الدارجة وقتئذ وأصدر فيما بعد كتابين في أحدهما بعض مقاطع تصح مقابلتها بكتاب سرفانتيس إذ إنّ صاحبه عندما ألفه كان ينظر إلى هذا الأخير.

ومن أفضل المؤلفات التي صدرت خارج إسبانيا كتقليد لـ الكيخوطي المؤلف الذي نشر في إنكلترا تحت عنوان: «الهيد برس» لـ صموئيل يولثر، صادف هذا المؤلف الشعري الذي ظهر سنة 1663 و1664 و1678 في ثلاثة أجزاء قبولًا منقطع النظير وترجم إلى الألمانية والفرنسية، وأعيد نشره سنة 1819 وفي هذه الطبعة التي صححها غريس وقعت الإشارة إلى المقاطع التي من بنات أفكار سرفانتيس.

لئن كان «الهيد بريس» أحسن تقليد في الإنكليزية لـ ضون كيخوطي فتاريخ ضون كيخوطي دي لامانشا الذي ألفه فيلو دي سان مارتان، وطبع جزأه الأوّل سنة 1695 وجزأه الثاني سنة 1713 أبدع تقليد في الفرنسية.

وظهرت سنة 1697، في أمستردام طبعة كاذبة لـ الكيخوطي بأن فيها قصر باع المقلد وإخفاقه في الدخول إلى نفسية الأبطال، ونشر سنة 1710 في باريس كتاب مقتبس من كتاب سرفانتيس. وتحت عنوان خلاب طبعت في باريس سنة 1713 كراسة شعرية ذات أربعين بيتًا لا غير من تأليف طميزل دي سان ياسنت المعروف بالدكتور متاناسيوس كلها إطراء ومدح للمؤلف ولمؤلفه وقد كتبت بالعبرانية واليونانية والفرنسية واللاتينية والإنكليزية والهولندية الخ. وهي هجاء لاذع مقتبس من مقدمة الجزء الأوّل لـ ضون كيخوطي حيث يسخر سرفانتيس من أشعار المديح التي تظهر في مقدمة أمهات كتب عصره وخصوصًا في كتب لويس دي بيغا.

وظهر سنة 1734 في لندن كتاب يقدح في الأدب المحموم كقدح سرفانتيس في أدب الفروسية وأعمال بطل ذلك الكتاب شبيهة كلّ الشبه بأعمال بطل سرفانتيس، وصدرت في باريس سنة 1737 طبعة لهذا الكتاب ثمّ سنة 1757 ترجم إلى الإيطالية نقلًا عن الطبعة الفرنسية الطافحة بسيرة سرفانتيس؛ لأنّها مقتبسة من كتابه كما يدل على ذلك عنوانها وهو: ضون كيشوط فرنسوا، وقد جن بطلها من قراءة كتب الفروسية. وأشخاصها هم نفس أشخاص ضون كيخوطي من أوجه عديدة.

وأخذت تتوالى الكتب التي تنظر إلى ضون كيخوطي حتّى سنة 1914 إلّا أننا نضرب صفحًا عن ذكر عدد كبير منها، مكتفين بالقدر الذي سلجناه.

- VIII -

ضون كيخوطي في المسرح

لقد قدمنا أنّ أعمال أبطال الفروسية تسربت إلى أكواخ الرعيان كتسربها إلى قصور الأعيان ووطئت أعتاب الزرائب كما تربعت في صدر المسارح فقوبلت بالترحاب، فلماذا لا يسوغ إذن أن يحمل الرحالة المنتشاوي على نفس المحمل؟ ولئن كان رأي دي ارتيادا، ولوبي دي فيغا، وبيرث دي مونطالبان وروخس ثوريا وكلديرون دي لابركا وغيرهم لم يأنفوا من استغلال مواضيع الفروسية للمسرح فلماذا لا يصح للبلنسي غيان دي كسترو وللمدريدي فرنسيسكو دي أفيلا حمل الحكيم المجنون إلى خشبة المسرح أيضًا؟ وعلام لا ينبغي أن تظهر على المسرح شخصية الرحالة الكريم وقد سبقته إلى الظهور شخصيات زملائه؟ هذا ما مرّ في خلد مؤلفي المسرحيتين اللتين عنوانهما: «الكوندي دي إيرلوس» و«التسابيح الميلادية والأناشيد الطريفة» فألف أحدهما مسرحية «ضون كيخوطي دي لامانتشا» وصنف الآخر مسرحية «أعمال ضون كيخوطي دي لامانتشا التي لا تجارى» ومع هذا فيمكن القول أنّه لو كان وصف العبقري الخالد بطله على الشكل الذي أوحاه خيال فيلثيانو دي سلفا المحموم لما فقد كتاب سرفانتيس شيئًا ولكن نظرًا لكون الكيخوطي هو دراما عالمية لسائر الأوقات والأزمان، لكافة البلدان وعموم أبناء آدم، دراما تصف الفرق

بين ما يدرك الفكر الشامخ وما يطمع إليه القلب الكريم وبين ما يقبله ويرضاه العالم المسكين. فكيف تحمل هذه الشخصية الساحرة الشعرية إلى خشبة المسرح؟ وكيف يمكن أن يشعر المشاهد بوجود عزة النفس والبطولة اللتين تسيران مع الدم في عروق النبيل المنتشاوي؟ وتقرأ اليوم المسرحيات عن سحر دي مرلين، وعن أماديس دي غولا، والمركيس دي منطوا وغيرهم فلا يعثر فيها إلّا على حب القتال وكبرياء البطل، أهذه هي الحال في المسرحيات التي يظهر فيها المنتشاوي المغرم؟ هل استوت الحال بين الدراما والرواية؟ كلا؛ لأنه تفصل بين الواحدة والأخرى هوة سحيقة.

ولقد قام بتمثيل دور ضون كيخوطي أشهر الممثلين ومنهم أنجم سينمائية فلم يتوفق حتّى إيروين نفسه مع ما وهبته السماء من عبقرية إلى حمل المتفرجين على نسيان لذة الكتاب وقراءته ولا استطاعت الشاشة البيضاء بدورها أن تمحو من ذاكرة الذين تمتعوا بمطالعة الرواية الأثر البليغ الذي تركته فيهم.

وعند أحد المؤلفين المعاصرين يتعذر تعذرًا كليًا نقل الكيخوطي إلى خشبة المسرح لأن هذه الشخصية الفذة التي أوجدتها العبقرية تفقد كلّ عظمتها ويعود السبب في ذلك إلى أنّ صورة الرحالة الشهير لا ينبغي أن يتأملها البصر فحسب بل والخيال أيضًا. وتنقلب شخصية الرحالة عند إنشاد الأشعار أو ساعة التغني إلى سخرية تنال من سمو إبداع سرفانتيس، ورؤيتها على اللوحات والتماثيل حملت على الهتاف: «يراد فيها تشبيه ضون كيخوطي» وكلمة يراد يقصد منها بجلاء أنه ينقصها شيء لتصبح هي هو بذاته، وهذا الشيء ما هو سوى تلك العبقرية الخاصة التي أوحت

إلى سرفانتيس روايته الفخمة، فـ ضون كيخوطي ككتاب يمكن أن يكون معينًا غزير المادة للاستلهام، ولكن ضون كيخوطي، شخصية، لا ينبغي أن تمسها الأيدي البشرية.

وتحتوي هذه الرواية الفاخرة على موضوعات لا يُحصى لها عدد، يمكن أن تنقل إلى خشبة المسرح إلّا أنّ المقدرة تقوم على ألّا يظهر قط ضون ألونصو كيخانو وألا يبين مجسمًا في شخص ما، وذلك أنّ كلّ شخص قد خلق في مخيلته صورة لهذا الفارس العالمي فإذا ما قابل الشخص الذي خلقه في خياله بالشخص الذي يظهر أمام عينيه أي إذا ما تحول الشخص المثالي إلى شخص وضعي فقد قيمته الروحانية ولما كان ضون كيخوطي روحًا فوضعه قبالة الأنوار المسرحية يجرده من السحر الذي يتأثر به في الرواية. ومن المعلوم أنّ ما من مسرحية ظهر فيها مغرم دولثينايا وأرضت الجمهور والنقد إرضاءً تامًا وهذا مما لا يعسر فهمه حيث إنّه يتعذر على خشبة المسرح تلمس أهم الصفات التي تبعث على الإعجاب والدهشة لدى دراسة ضون كيخوطي وهي ما يراه عقل هذا وما هو ذلك المرئي في الحقيقة.

ولقد أسلفنا أنّ ضون كيخوطي صادف نجاحًا عظيمًا وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله ينتقل إلى خشبة المسرح بعد ظهوره بقليل ويحتمل أن يكون سرفانتيس سمع بطله ينشد أشعار المؤلف المسرحي البلنسي الشهير، غيان دي كسترو، وصاحب مسرحية «ضون كيخوطي دي لامانتشا» وللدلالة على إعجاب الشاعر بكتاب سرفانتيس نذكر أنّه وضع مسرحية أخرى مع بلفيس مقتبسة من ضون كيخوطي وحمل إلى خشبة المسرح رواية «الفضولي الممل».

ولم ينهل المؤلفون المسرحيون الإسبان فحسب من معين كتاب سرفانتيس بل حذا حذوهم المؤلفون الفرنسيون والهولنديون والإيطاليون ولكن مسرحياتهم لم تلق نجاحًا يستحق الذكر حيث إنّ التي ظهر فيها ضون كيخوطي كبطل كان ظهوره منها أقرب إلى الهزل منه إلى شيء آخر وسانتشو رجل مجنون كسيده ولم تبدُ قطّ عزة نفس الفارس ولا مكر وسذاجة حامل درعه وحتى المنطق الذي أنطقوا به الأشخاص لا يتناسب بوجه من الوجوه مع المنطق الذي استعمله سرفانتيس إلّا في قليل من المواقف.

- IX -

الصحافة وضون كيخوطي

كتب سرفانتيس في روايته الخالدة أنّه لن يمضي زمن طويل إلّا وتصبح ذات شهرة واسعة الأعمال الموصوفة في كتابه العجيب وتكتسح أشخاصه مقامًا شعبيًا رفيعًا. ولما لم يكن للصحافة وجود في ذلك الحين لم يستطع أن يجزم أنّه مع ممر الأيام سوف تصدر مجلات أسبوعية تحمل اسمي الرفيقين اللذين لم تنفصم قط الروابط التي جمعتهما، وتشهد على شعبية مؤلف سرفانتيس الكتب العديدة والرسوم والتماثيل الرامية إلى إعلاء وتخليد ما انجلته مثل هذه العبقرية، ولقد كتب مننديث إي بلايو يقول في هذا الصدد: «إنّ البهيمتين اللتين ركبهما ضون كيخوطي وسانتشو والأرض التي وطأتها أقدامهما والأماكن التي ولدا فيها باتت خالدة مخلدة».

وليست بطويلة لائحة الجراد والمجلات التي تذكر أسماؤها بكتاب سرفانتيس إلّا أنها تدل على أنّ المقام السامي الذي تربع فيه الكتاب لم يقتصر على إسبانيا فحسب بل إنه تعداها إلى الخارج حيث ساهمت كثير من المنشورات اليومية والأسبوعية في إكساب مؤلف سرفانتيس شعبية مترامية الأطراف بعيدة المدى ممتدة الصدى.

وأسبق العواصم الأوربية في هذا المضمار كانت مدينة لندن إذ صدرت عنها أوّل جريدة سنة 1803 تحمل اسم «الانبيغو» التي ظلت تصدر هذا

الاسم حتّى سنة 1818، ثمّ أجرت تحويرًا وأصبحت منذ صدور عددها التاسع عشر تُعرف «بالانبيغو أو ضون كيخوطي دي لامانتشا الجديد» ثمّ أخذ في الشيوع استعمال اسمي ضون كيخوطي وسانتشو وظهرت في مناسبات مختلفة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا الخ مجلات أسبوعية وشهرية ونصف شهرية باسمهما بل وكان بعض كتاب الجرائد التي ظهرت في برشلونة ومدريد يوقعون بأسماء مستعارة هي أسماء لأشخاص رواية الكاتب الإسباني المبدع.

- X -

الكيخوطي

والنقد الوطني والأجنبي

سبقت بنا الإشارة إلى النجاح المنقطع النظير الذي لاقاه كتاب سرفانتيس وإلى كون الطبعات - سواء بلغته الأصلية أو باللغات الأجنبية - عديدة تترى، إلّا أنّ النقد لم يشرع في إعلاء شأن مؤلف كهذا من حيث النبوغ والإبداع حتّى أواسط القرن الثامن عشر. وقد يعترض معترض فيقول إنه في غضون القرن السابع عشر أطرى عليه من الإسبان: فاريا وسوثا ونيقولاس أنطونيو ومن الأجانب: دانيل هيت وسان أفريموند فتس وأحسنوا الثناء عليه ومدحوا مؤلفه الخالد، ومع هذا فيقتضي الإلماع إلى أنّ النقد السرفانطي الحقيقي ابتدأ في إسبانيا مع ميانس وذلك سنة 1737، وفي الخارج مع مترجم ضون كيخوطي ب. آ. ر. موتيه سنة 1700.

وينقسم النقد حسبما لاحظناه ونحن في دراسة الرواية الخالدة إلى لغوي ونفساني، فالأول من خصائص الإسبان محضًا ومع وجود أجانب لهم اطلاع واسع على أسرار اللغة الإسبانية وطرق تعبير سرفانتيس، لم يكرسوا مجهوداتهم لدراسته كما فعل كليمنثين وكلديرون وكورنيخون ورودريكث مرين الخ.. ونضرب صفحًا عن كافة النقاد الإسبان وأقوالهم

في سرفانتيس وروايته التي تتجلى فيها روح العبقرية الصرف لنورد رأي شيخهم ومعلمهم دونما منازع ألا هو مننذث إي بلايو الذي كتب في معرض بحثه عن الكيخوطي هذه السطور: «صارع سرفانتيس ضد هذا النوع من أدب الفروسية الكاذب التافه مستعملًا كلّ معدات سخريته الرؤوفة ممزوجة بالحب والشفقة، الأمر الذي جعله متفوقًا لا يقهر ولا يُطاق في مضمار هذه الفكرة الخاطئة العديمة الأركان عن المرأة التي نصبت صنمًا ـ زائلًا ـ يعبد عبادة مدنسة ومستحيلة. هذا ما ضحى به إلى الأبد سواء عن طريق المثل الأعلى المستحب في دولثينايا وسواء عن طريق الحقيقة الخشنة في مريطورنيس.

«وفي معرضه النسائي الحافل أظهر في دورتيه وفي ثريده وفي ضونيا كلارا مقدار الملاحة والغرام والحنان في نفس المرأة ضمن شروط الوجود المعقولة. فهذا النشاط الجامح الذي لا حدود لمدلوله، المجرد من كلّ نظام اجتماعي ومن كلّ غاية حكيمة، هو ما جسده في شخصية مجنون علوي، الذي إنما هو كذلك من قراءة كتبه ومن الصوفية الدائمة التي تحمل النفوس الخيالية على لبس رؤيا الفن برؤيا الحياة. أمّا ضون كيخوطي فلا يثير فينا الأسف فحسب بل الإجلال والاعتبار: الحكمة تجري في كلماته العسجدية، ويتأمله القارئ باحترام وضحك في آنٍ واحد، كفصل حقيقي وكأضحوكة للبطولة، وحسب العبارة الموفقة للشاعر الإنكليزي وردسوث. إنّ أصالة الرأي قد عششت في أعماق مؤئل جنونه الفخم. وأما دماغه فهو كناية عن عالم أسمى حيث تنعكس عليه مكبرة، أسطع أوهام الأدوار والأطوار الشعرية التي ما أن تحتك احتكاكًا عنيفًا بالعالم التاريخي إلّا وتفقد ما تضمنته من إفك وخطر وتنفكّ عقدة

لغزها في مرتبة الهزل العليا من غير مرارة، بفضل التأثير النفعي المطهر للضحك. وكما أنّ نقد كتب الفروسية كان حجة لا سببًا أساسيًا لخلق خرافة الكيخوطي فهكذا بدأ بطل الرواية كسخرية رؤوفة لاماديس دي غولا، إلّا أنّه سرعان ما حلّق بجناحيه وارتفع فوق مثل هذا الدور. ومن حق مؤلف أماديس أن يفصل باعتناء عن جمهرة تباعه حيث إنه قام بعمل لا يقتصر على كتاب في الفروسية مقلدًا لأولئك الذين عاشوا تحت سماء بريطانية فرنسة، فلقد كتب أوّل رواية مثالية سامية عصرية هي مذهب للفارس الكامل، وملحمة الإخلاص والوفاء للحب، وقانون للشرف والأدب وهي التي ساعدت على خلق نظام اتبعته وراعته عدة أجيال، وما من بطل روائي فرض الإعجاب بشخصيته على الناس بمثل هذا القدر من البهاء والفخفخة كبطل مؤلف أماديس قبل أن يظهر ضون كيخوطي. ففي هذا الأخير يعيش أماديس ثانية إلّا أنّه يحطم ما في نفسه من مصطنع ليوطد ما فيها من أزلي، ولا تمسّ بأذى الفكرة العليا التي تسخّر العضو المفتول المسلح لخدمة النظام الأخلاقي والعدالة، إلّا أنّ غشاوتها المؤقتة تتوارى وقد استحالت إلى ألف شظية من جراء ملامستها الخشنة للحقيقة الدائمة النقص البعيدة عن الكمال الدائمة الحدود ومع هذا فهي في طور الانبعاث أقل كمالًا وحدودًا وخشونة منها في القرن الوسيط.

أبصر «ضون كيخوطي» النور في فترة حرجة بين عالم تتداعى أركانه وآخر أخذ يطل على الحياة من خلال حركات غير منتظمة فإذا هو يتأرجح بين التعقل والجنون بدافع انتقال مستمر مما هو مثالي إلى ما هو حقيقي ولئن نظر إليه نظرة واعية لثبت أنّ جنونه ما هو سوى خبل وهمي بالنسبة إلى العالم الخارجي وبعبارة أصح، ما هو إلّا تكييف وتفسير زائف للوقائع

الحقيقية، إذ في أعماق دماغه الطاهر لا تزال تسطع في وميض لا تخبو له جذوة تلك الأفكار البلورية الأزلية السعيدة التي يتحدث عنها أفلاطون. وهذا وإن ترك سرفانتيس الحدود غير واضحة بين التعقل والجنون وإلقاء أفضل الدروس الحكمية على لسان مخبول ما كانا ليحسبا من حيث السداد والإصابة بأقل توفيقًا من الأمور التي ولج بابها وأبدع. ولم يقصد بهذا السخرية من الذكاء البشري. لا ولا تشنيع البطولة التي ما كانت لتبدو مضحكة قط في الكيخوطي لولا الطريقة غير المناسبة التي يستعملها البطل لتحقيق مثله الأعلى الجيد في حدّ ذاته. وليس التطلع إلى المثل الأعلى ما يحمل ضون كيخوطي على الغضب بل الفردية الصاخبة الجامحة. ولا يكدر عليه صفاءه وينزله منزلة المجانين سوى تلك الفكرة الخاطئة عن النشاط وهي التي تدفعه إلى منازلة العالم بإقدام وجرأة وتجعل فضيلته ومجهوده كلا شيء.

يخر ضون كيخوطي صريعًا في النزاع بين الحرية والفاقة لعدم ملائمته مع محيطه غير أنّ انكساره ليس إلّا في الظاهر؛ لأنّ أمانيه النبيلة لم تمس بأذى، .وسوف تتحقق في عالم أفضل حسبما أنذر به احتضاره العاقل المسيحي إلى أقصى حدّ. ولئن كان هذا نوعًا ما رمزًا في الواقع فيتعذر نكران أنّه كذلك بالنسبة إلينا وعليه يدور معظم أهمية الكيخوطي من الناحية الإنسانية، إلّا أنّه في نظر المؤلف لا أثر لمثل هذا الرمز بل هو مخلوق ذو حياة كله جمال وروح، هو ابن مخيلته الشعرية المختار، يفرح به ويخلع عليه أبدع صفات الكائن البشري وأبهاها. ولم يؤلف سرفانتيس الكيخوطي بالطريقة الرمزية الباردة الآلية وإنما ألفه بعد أن رأى هذه الطريقة تصعد صعودًا مع شعاع العبقرية البديهي المفاجئ فاقتفى أثره وسحرته

بهرجته ثمّ توصل إلى الرمز من غير أن يبحث عنه أو يتعمده واستنزف المكنون الروحي الذي في البطل. رأى سرفانتيس الجمال فأحبه ومتّه به ناظريه وأما ما تبقى فقد جاءه صاغرًا وهذا ما جعل من خرافة فكاهية كان قد ابتدأها كسخرية أدبية لا لسائر أنواع أدب الفروسية بل لنوع خاص منه تتحول بحكم الضرورة المنطقية إلى قدح في المثل التاريخي السامي الذي تحدثت عنه تلك الكتب وتواصل تطورها في حلقة من المضادات البهية غير المنتظرة فلا تقتصر على تمثيل الحياة الوطنية تمثيلًا كاملًا ومنسجمًا في فترة أوجها المترامي وانحطاطها المهدد بقرب الإناخة، بل تعدتها فإذا بها ملحمة هزلية لبني البشر وكتاب الضحك والحكمة الخالد».

***

وأما النقد الأميركي لكتاب سرفانتيس فحديث العهد جدًا، ففي أميركا الشمالية تنبغي الإشارة إلى تعليقات تيكنور وبسكوط وشيفل الأستاذ العالم في جامعة بركيلي، وفي أميركا الوسطى تستحق الذكر دروس سلدياس وفي أميركا الجنوبية أبحاث فورس ثيبايوس ومونر صانص غير أننا سنأتي على ذكر نبذ مما قاله الناقد الشهير أمينادورو أوردنينا الذي يُعد أقدر وأبرع دارسي سرفانتيس في أميركا الإسبانية: «وكما أنّ هوميرو انتصب بين الشرق والغرب لإشادة حاجز أزلي يفصل بين الإبهام السري المسيطر على الديانات الآسيوية والإلهيات الكثيرة العدد المطبوعة كلّ منها بطابع خاص مميز رغم كثرتها، التي كانت تغص بها سماء اليونان، فقد انتصب كذلك سرفانتيس بين العصر الوسيط والعصر الحديث أي بين عالمين، أحدهما قاتم غير ثابت مفعم بالإبهام والثاني ساطع الضياء راسخ على أساس التعقل والسيادة الشعبية لقد شرب هوميرو نخب

عصر الفن وحياة القوة الجسدية والقوة الأخلاقية، وهيأ العالم اليوناني لفتوحات الإقدام والذكاء، وأما في حضرة سرفانتيس فتضمحل الأساطير وميتولوجيا العصر الوسيط الهائلة بما فيها من أقزام وأغوال ومردة، ويبقى بلا نفس ولا حياة ذلك النوع الأدبي المضحك الذي تبناه، ثمّ تظهر أشعة الفن وتنجلي قوة فاعلية الذكاء لتنير السبيل أمام عبقرية الكاتب المرح، فخر الإنسانية الذي إنما كتابه لملك العقل السليم والذوق السليم وحقل الشعور الحصين ومشعل الشعر الحقيقي... ضون كيخوطي هذا الكتاب هو التعليق على تاريخ البشرية، وعالميته تشمل كافة العصور وألوانه تنعكس على كافة الوجوه من أعلاها إلى أسفلها... ولم يكن الكيخوطي قط ذلك النقد الفارغ التافه لعيوبنا وشهواتنا بل هو أرفع مقصد وأسمى غاية يرمي إليها الشعر فهذا الذي صانه وجعله يعلو على الحدثان ويظل دائم الطرافة في سائر الأزمان الخ..».

ورغم كون الكيخوطي لم يترجم في روسيا حتّى سنة 1769 ورغم وجود دراسات ذات أهمية لا بد من الإشارة إلى بحث قيم لـ تورغينف تحت العنوان الآتي: «هملت وضون كيخوطي» نقتطف منه هذه السطور: «إنّ لظهور هملت وضون كيخوطي في آنٍ واحد مغزىً كبيرًا فهاتان الشخصيتان هما جيد الطبيعة وقفاها، هما قطبان تدور عليهما الأرض. أو لا ينتمي كافة أبناء البشر إلى هاتين الشخصيتين؟ أليس فينا شيء من ضون كيخوطي وشي من هملت؟ ومن المؤكد اليوم أنّ وجود هؤلاء يتعدى بكثير كلّ حساب غير أنّ أولئك لم ينقرضوا بعد وسبب هذا أنّه في كافة العصور والأزمنة سيكون طريقتان للتفكير أو لإدراك المثل الأعلى: أحدهما تضعه خارج نطاق دائرة الطبيعة البشرية، والثانية تنزله داخلها ويمكن أن يقال إمّا

«الأنا» الذي تفضله إمّا «الأنا» الذي تعزه نوعًا فهاتان الطريقتان للتفكير في المثل الأعلى قد التقتا في شخصيتين مختلفتي الأطوار والطبائع إلى حد بعيد كما هما عليه هملت وضون كيخوطي.

فبادئ ذي بدء علينا أن نقضي على تلك العادة المألوفة في ألّا يشار إلا إلى شريف المانتشا، إلى الفارس المشاء، إلى ذي السحنة الكئيبة، الشخصية التي خلقتها مخيلة الشاعر ليسخر خاصة من روايات الفروسية. أجل إننا نعلم أنّ أهمية هذه الشخصية ارتقت في رعاية وتحت ظلّ عظمة من خلقها وابتدعها كما نعلم أنّ ضون كيخوطي في الجزء الثاني من الكتاب إنما هو سمير الدوقيين والدوقيات، والمشير الحكيم لحامل درعه وخادمه وليست له أدنى علاقة بـ ضون كيخوطي الذي في الجزء الأوّل.

فلفهم طبائع المشاء الشهير يتحتم الامتزاج الكلي بروح الرواية، فـ ضون كيخوطي هو قبل وفوق كلّ شيء شعار، ورمز للإيمان ولكن للإيمان الخالد الأزلي نوعًا، للإيمان الذي لا يموت ولا يتحول، للإيمان بالحقيقة الخالصة الطاهرة التي تعلو على الفرد، الحقيقة التي تتطلب التضحيات والتي تبلغ على أثر كفاح طويل ونكران ذات قوي. وضون كيخوطي هو ذلك الرجل المشرّب بحب المثل الأعلى ولكي يتوصل إليه تراه على استعداد دائمًا وأبدًا لتحمل كلّ أنواع الازدراءات ومقاساة مرارة الحرمان، إنه لعلى أهبة التضحية بحياته إنما الغاية الوحيدة منها هي أنها تفسح له المجال للسعي وراء ذلك المثل الأعلى ضنًا منه في نصرة العدالة والحقيقة. فما يهم أن يكون ما أوحى إلى البطل هذا المثل الأسمى هي مجموعة الخرافات التي تقرأ في كتب الفروسية؟ فلو عاش ضون كيخوطي

لنفسه لحسب ذلك مخلًا بمروءته، فلذا قد عاش خارج نفسه تمامًا قد عاش لأمثاله، لأبناء جنسه، لتخفيف وطأة الشرّ، لمنازلة أعداء البشرية: المردة والسحرة أي مضطهدي الضعيف. ضون كيخوطي لا يعرف للأنانية معنى ولا يفكر بنفسه ولا يشعر إلّا بالتضحية وبنكران الذات، إنه لرجل مؤمن يتقدم برباطة جأش نحو المثل الأعلى دون أن يلتفت لا شمالًا ولا يمينًا، فلهذا هو صبور، ناكر لذاته، حقير اللباس، لا يشعر بدافع يحثه على طلب حاجياته، سليم القلب ويملك نفسًا جبارة شجاعة، وقد يظهر مجنونًا إذ إنّ الواقع يذوب كالشمع على حرارة الحماس فلذا يتوهم قطعان الغنم فرسانًا مدججين بالسلاح. وفي بعض الأحيان يبدو كأنه أقل من الوسط، رجل عادي نظرًا لبهتته في مواضع الشفقة أو الفرح وسبب هذا لأنه يصعب عليه خاصة أن يقفز سريعًا من أمر إلى آخر، إنه لشبيه بالشجرة المسنة التي لا تسمح جذورها بنقلها من مكانها. ومتى كوّن ضون كيخوطي فكرة عن أمر ما يستحيل أن يغير رأيه، ورسوخ أعماله الأخلاقية يكسب أفكاره قوة وجلاء كما يكسب عباراته التضحية بالذات بغض النظر عن المواقف المضحكة التي يقفها في كلّ آنٍ وحين.

ضون كيخوطي رجل فقير الحال وفقره يكاد يكون مدقعًا، موارده محدودة وعائلته قليلة، إنّه لشيخ يعيش دون معين ولما كان عبد نفسه كلفها أمر إصلاح الأمور المعوجة والدفاع عن المضطهدين لغرابة هذه الأمور في نظره، فما أن يهمه لو أنّ فاتحة أعماله الفروسية أنزلت على رأس بريء أراد الدفاع عنه مصيبتين بدلًا من واحدة وهكذا كان فعندما يخلّص لانديس من القصاص الذي فرضه عليه خوان هلدودو لم يمرّ بباله أنه متى ذهب سيضاعف السيد قصاص الفتى. ولا يترك في نفسه أثرًا قيامه بمهاجمة

مطاحن هوائية مفيدة بدلًا من مردة جبابرة وقد يطرب القارئ العادي ويصفق لما هو مضحك في الكتاب لا للمعنى العميق الذي يتضمنه وإن كان إيمان ضون كيخوطي وسذاجته يقودان الابتسامة طائعة صاغرة إلّا أننا نتساءل: من يا تُرى في وسعه أن يؤكد بعد أن يفحص ضميره فحصًا دقيقًا، إنه دائمًا وأبدًا قد توفق إلى تمييز طست الحلاق من خوذة ممبرينو؟...

ولئن قوبل سانتشو بنثا بـ بولونيو لأبدى الأوّل ناحية مختلفة كلّ الاختلاف عن الثاني، يضحك سانتشو من سيده ويعلم أنّه مجنون إلّا أنّه يترك بلدته وعائلته مرتين ليلتحق به متحملًا منه كلّ أنواع الإزعاج ويظهر مخلصًا أمينًا حتّى ساعة احتضار ضون كيخوطي وله به ثقة عمياء ويبكي على أقدام السرير الذي أسلم فوقه الروح سيده ولا ينبغي لنا أن نبحث عن هذه الثقة العمياء في المنفعة لأن سانتشو رجل يحسن وضع الأمور في أماكنها ويعرف أنّ ضون كيخوطي لن يلقى سوى لكمات وعصوات، ولكن أمر هذه الثقة يخضع لهدف أسمى وهذا الهدف هو ما يتكون عند العامة لدى اعتناقهم قضية مشرفة عادلة اعتناقًا أعمى ولـ سانتشو مواضع عمى أخرى كتحمسه لكل ما هو سامٍ وكبير حتّى لينسى كلّ ما يهمه وهذا يعني نسيانه لكل ما هو ضروري...

ضون كيخوطي يحب محبوبته؛ آنسة خيالية اسمها دولثينايا دلطوبوسو وعلى مذبح حبها يقدم دائمًا وأبدًا حياته قربانًا وعندما يرى نفسه مغلوبًا وتضغط عليه ركبة قاهرة، يصيح: «دولثينايا دلطوبوسو أجمل امرأة في العالم وأنا أتعس فارس على سطح الأرض، فليس من المروءة أن يغبن وهني هذه الحقيقة، لزايها فارس بالرمح وانتزع مني الحياة ما دمت قد جردتني من الشرف».

المشاء الرحالة الشهير يحب وحبه علوي طاهر لدرجة لا يشك معها قط بعدم وجود مدلول حبه وعندما تجيئه محبوبته وقد تحولت إلى فلاحة قذرة، لا يصدق ما تراه عينه ويؤكد أنّ ذلك التحول إنما هو من عمل الساحر الشرير. ولقد شاهدنا كذلك في الحياة أكثر من رجلين يضحيان بحياتهما من أجل دولثينايا الخيالية ومن أجل شيء كبير في معتقدهم عظيم وجميل وعندما اضمحلت أوهامهم واصطدموا بالحقيقة عزوا ذلك التحويل إلى الأشرار وإلى الكوارث بل وإلى السحرة..

وقال أحد اللوردات الإنكليز إنّ ضون كيخوطي أنموذج الشهماء ولئن كانت الآداب الرزينة والبساطة من حلى الرجل المؤدب فـ ضون كيخوطي أوّل من يستحق هذا اللقب..

يعرف ضون كيخوطي كيف يحترم كافة المؤسسات: «الديانة، طبقة الأشراف، الملكية وفي نفس الوقت يتوق إلى الحرية ويعترف بحرية أمثاله من بني البشر».

***

وُجّهت إلى سرفانتيس عدة انتقادات لكثرة العصوات واللكمات التي جعلها تنهال على عاتق البطل المشاء، وأما في الجزء الثاني من الكتاب فلا يضرب قط إلّا أنه في آخره بعد أن يقهره الفارس ذو الهلال الأبيض ويحمله قسرًا على التخلي عن مهنته، وقبل أن يموت بقليل، يجعله عرضة لأن تدوسه الخنازير فهذا المشهد دفع الكثيرين إلى توجيه انتقادات مُرّة إلى سرفانتيس واتهموه بتكرار سخريات سابقة إلّا أنّ الانتقادات في غير محلها نظرًا لكون هذا المشهد يلقى

نورًا موضحًا على عبقريته الموفقة كلّ التوفيق إذ إنه ينم عن معنى عميق وهو أنّ أمثال الكيخوطي يداسون بالأقدام وغالبًا ما يكون ذلك في آخر عهدهم، وما هذا سوى ضريبة لا مفر لأصحاب الرسالة من دفعها إلى الغريزة الفظة، إلى ذلك الجمهور الجاهل الذي لا يفهمهم ويبيت وكان الأمر لا يعنيه، هذه هي صفعة الفريسي التي بعد أن يذوق طعمها الكيخوطيون يمكنهم أن يموتوا مطمئنين لمرورهم في البوتقة وخروجهم منها طاهرين مطهرين ثمّ يفتح الخلود آفاقه أمام عيونهم...

هملت وضون كيخوطي يموتان ميتة مؤلمة ولكن كم من فارق بين الأوّل والثاني في الأخير! إنّ الكلمات الأخيرة التي ينطق بها هملت لجميلة وبديعة، يتذلل ويطمئن ثمّ يطلب إلى هوراسيو الأمين أن يعيش ويكون حليفًا لـ فورتمبرس ولكن نظرته لا تكتشف المستقبل: «وكل ما عدا ذلك فسكون» يقول عند الوفاة شاكًا ثمّ يسكت إلى الأبد. وأما نهاية ضون كيخوطي فتغمر النفس شعورًا غضًا وعندئذٍ فقط تظهر للجميع عظمة نفسه. وعندما يقول له حامل درعه معزيًا أن استعد نشاطك ونخرج حالًا في طلب المجازفات، يجيبه المحتضر: «رويدًا، رويدًا! ليس لعصافير اليوم أن تسكن في أعشاش الأمس. قد كنت مجنونًا وأصبحت عاقلًا، كنت ضون كيخوطي ديَ لامانتشا وأنا الآن، كما قلت، ألونصو كيخانو الصالح» وهي كلمات مفاجئة وهذا الاسم الذي نطق به للمرة الأولى والوحيدة، يؤثر عظيم التأثير. أجل، هذه هي الكلمة الوحيدة التي لها قيمة أمام الموت وما عداها فهباء يمر: الألقاب، السلطة والعبقرية التي ترى كلّ شيء، كلّ هذا يعود ترابًا «وكل عظيم على الأرض يتبخر ثمّ يضمحل كالدخان إلّا

الأعمال الصالحة فهي التي تدوم وتدوم أكثر من الجمال. ولقد قال بولس الرسول إنّ كلّ شيء يضمحل ولا يبقى سوى الحب».

***

واعتنى النقاد البرتغاليون والألمان والفرنساويون عناية خاصة بدراسة كتاب سرفانتيس من الوجهة النفسانية وأثنوا على عبقرية المؤلف كما أثنى عليها مننداث إي بلايو والناقد الروسي وغيرهما.

ونكتفي بهذا القدر عن الكيخوطي لننتقل إلى دراسة المؤلفات التي أنجزها سرفانتيس في المرحلة الأخيرة من نشاطه الأدبي المثمر.

القصص المثالية

صدرت هذه المجموعة عن مدريد سنة 1613 وفي مقدمتها، بعد أن يلمع المؤلف إلى إصابته في معركة ليبانطو التي قال فيها إنها «أعظم وأسمى فرصة أتيح للأجيال المتقدمة رؤيتها ولن تحلم الأجيال المقبلة بمشاهدة مثلها» ينوه بصبغة مؤلفه الأخلاقية في هذه العبارات: «لقد خلعت على هذه القصص اسم الأمثال ولئن نظرت إليها مليًا لما وجدت واحدة خلت من مثال ذي فائدة... ولئن مر طالعها لإثارة رغبة باطلة أو إيقاظ فكرة سافلة لكنت أفضل قطع اليد التي كتبتها بها قبل أن أطلع بها على الجمهور... لم تعد تسمح لي سني بالاستهتار بالحياة الأخرى...».

إنّ هذه الاحتياطات الأخلاقية لصادقة في الجملة ولو تعذر أمر قبولها بنصّها وفصها في رواية «الزواج الخادع» ولا بصورة من الصور في روايتي: «رنكونتي وكورطاديو» وأضاف سرفانتيس حاشية إلى قوله هي عين الصواب الذي لا ينازعه فيه منازع فقال: «وأنا أوّل من كتب الروايات القصصية باللغة الإسبانية..».

وأما هذه الروايات فيمكن أن تقسم إلى أربعة أنواع:

أوّلًا ـ التي هي من ابتكاره الصرف وعلى طراز النمط الإيطالي وهي أوهى رواياته وأقلها قيمة ومنها: «المحب المتهتك، قوة الدم، والسيدة كورناليه».

ثانيًا ـ يدخل في هذا القسم الروايات التي يستطعم فيها الطعم الواقعي والشيء الكثير من البلاط الإيطالي، وتنضوي تحت لوائها الروايات الآتية: «الغجرية الصغيرة، الإسبانية الإنكليزية، والفتاتان».

ثالثًا ـ تنتمي إلى هذا القسم الروايات ذات الصبغة الواقعية، والتي تكثر فيها الحواشي التعريضية وهي من أفضل الروايات إذ فيها يطأ سرفانتيس حقلًا خاصًا به وهو سيد لا يُجارى في هذا المضمار، ومن هذه الروايات: «رنكونتي وكورطاديو، والماسحة النبيلة، والزواج الخادع، والغيور الاسترماني».

رابعًا ـ ينضم إلى هذا القسم مؤلفان غريبان ليسا من الروايات كما يفهم من كلمة رواية غير أن قيمتهما عظيمة فائقة وهما: «المتخرج فيدريارا، ومناجاة الكلاب».

المحب المتهتك:

من أهمّ ما يلفت النظر في هذه الرواية وصف التعاسة والأخطار والخيانات التي يستهدف لها الأسرى في الجزائر.

يعود سرفانتيس في هذه الرواية وفي الإسبانية الإنكليزية وفي تاريخ الأسير في الكيخوطي، إلى استخراج مشاهد الأسر التي تذوّق طعمها هو نفسه.

فالمحب المتهتك من أضعف رواياته وأقلها قيمة.

الغجرية الصغيرة:

«برثيوسا مدربة على الرقص والغناء وغير ذلك من الفنون الغجرية، امتلكت القلوب وسحرت الألباب بخفة دمها وجواباتها السريعة الحاذقة، يكلف بها ضون خوان دي كركمو، وهو فارس شاب، ويرضى بالشرط الذي تفرضه عليه لتصدق حبه لها وهو أن يترك والديه وثروته ويتخلى عن مقامه الاجتماعي ويلتحق بها ويشاطر حبيبته حياتها التائهة مدة معينة فيتخذ اسم أندرس كبيارو عوضًا عن اسمه الأوّل يلقي عصا الترحال في مكان بالقرب من مرسية حيث تكلف الفتاة خوانا كردوتشا ابنة صاحبة الفندق كلفا يكاد يكون جنونًا بالغجري الكاذب، فتبوح له بلواعج غرامها وتطلب إليه ملحة أن يتزوج منها فيمتنع وتصمم هي على الانتقام منه لازدرائه إياها فتتهمه بالسرقة، وعندما يُلقى القبض عليه يشتمه ابن رئيس بلدية ذلك المكان، فيقتله أندرس ويذهب وكافة الغجر إلى سجن مرسيه حيث يتضح أمر برثيوسا فإذا بها ابنة حاكم أثيفيدو، وكانت قد خطفتها وهي حديثة السن الغجرية العجوز التي تعهدتها وعلمتها ضروب الرقص. وأخيرًا يتضح كذلك أمر أندرس كبيارو أي خوان كركمو فيزوج من برثيوسا كما يتزوج مناسيس من ضونيا كونسطنثا دي أثيفيدو».

أشار السنيور إيكاثا إلى مقطع في «مناجاة الكلاب» يتحدث عن أصل الكوندي المزعوم بين النور وهو الحادث الذي سكبه سرفانتيس في قالب روائي في الغجرية الصغيرة.

وأما البيئة والصفات في الغجرية الصغيرة فتنتمي إلى المثل الأعلى انتماءً قاطعًا وهذا ما يدنيها نوعًا من طراز «لاغالاطيه» وغيرها من الروايات المختصة بالرعيان.

ولشخصية برثيوسا شبيهات في «طرسيانا» من كتاب أبولونيا، وفي «بطرانوالو» لطيمونيدا وعند بعضهم في «لا إسميرالدا دي نوطر دام دي باريس» لـ فيكتور هيغو.

الإسبانية الإنكليزية:

أبرز نواحي هذه الرواية وصف البلاط الإنكليزي والملكة، وكون المؤلف تعمد إظهار الميول المثالية المحضة وذلك من جعله حب ريكردو لـ إيزبالا يدوم بعد أن ذوى جمال جسدها. ففي هذه الرواية بزغت شمس سرفانتيس كوصِاف للرحلات البحرية كما ظهرت شخصيته الفذة ممثلة في الأشخاص.

الفتاتان:

«فتاتان متحليتان بصفات حميدة، تغادران منزل والديهما بلباس الرجال وتتجشمان الأخطار والأهوال للالتحاق بالرجلين اللذين علق في شراكهما قلب كلّ واحدة منهما ثمّ تعودان بصحبة زوجيهما ولم تحيدا ـ في كلّ هذا ـ قيد أنملة عن أرفع درجات الرقة والرفعة الخالصتين».

رنكونتي وكورطاديو:

«رنكون وكورطادو، فتيان شريدان عمّر الأوّل خمس عشرة سنة والثاني ست عشرة سنة، يلتقيان ذات يوم من أيام الصيف في فندق محلة مولينيو. كلاهما ظريف في ثياب رثة، يلعبان الورق مع أكار فيغشانه ويربحان قدرًا من النقود، ثمّ يصلان إشبيلية حيث يتصلان بحمالة القفف

فينضمان إلى هذه المهنة ويدخلان في خدمة طالب وجندي فيخطفان محفظة نقود الأوّل ويتعرفان إلى فتى آخر من حملة القفف اسمه غنتشوالو فينصحهما أن يقدما دار مونيبوديو رئيس أوباش إشبيلية ويسجلا اسميهما ويحضر إلى تلك الدار لصوص آخرون بعضهم لا يقترف ذنبًا ولا يسرق نهار الجمعة ثمّ يظهر مونيبوديو وهو طويل القامة، أسمر الوجه مقرون الحاجبين، أسود اللحية غائر العينين. أسوأ وأغلظ حلاق في العالم» يختبر وينصح ويقبل في المدرسة الإجرامية دخول رنكون وكورطادو، وينذر أحد الجواسيس بقدوم مأمور السلطة فيسكن مونيبوديو روع الحاضرين طالما المأمور صديق جاء ليأخذ كيس نقود مسروقًا الأمر الذي لم يكن في علم الزملاء سابقًا. ثمّ تدخل العرصة لاغننثيوسا وفتاة أخرى من النساء المقاتلة، وكلاهما صديقتا تشيكيثناكي ومنيفرو الزميلين البطلين الحاضرين ثمة حيث أولموا وتظهر كاريهرطا وقد كست جسدها القروت وهي تشتكي من العصوة التي أذاقها طعمها ربوليدو، فيواسيها مونيبوديو وينصحها غير أنّ الشابة تصرّح بحبها لـ ربوليدو رغم ألم العصوة وتقول بأنها ذاهبة لتبحث عنه. ويراقب رنكونتي بعض الزملاء القدماء أو اللذين يتجسسون لمصلحة الجمعية، ثمّ يصل ربوليدو وتحدث مشاجرات مع كريهرطا والبطلين فيوفق بينهم مونيبوديو الرزين فيقام احتفال ويرقصون ويعزفون وتغني غنثيوسا وينشد معها الآخرون وتلمح كاريهرطا إلى عصوتها بقولها:

«رويدك أيها الغضوب ولا تفرط في عصوتي

إذ لو نظرت مليًا لاتضح لك أنك تقرع جسدك»

وهنا يسرع أحدهم ليسأل فيما إذا كان قد طعن التاجر أربع عشرة طعنة

في وجهه فيجيب تشيكيثناكي أنّه اضطر إلى طعن الخادم لا السيد لضيق وجه هذا الأخير وعدم اتساعه لتحمل الطعنات المذكورة، ثمّ يتشاجرون في شأن الأجور ويعود الرجل إلى مطالبة التاجرة فتسلمه سلسلة ذهبية ومن بعد تقرأ لائحة المطلوبات المفروغ منها والمدفوعات إلى الجمعية المحترمة أي مذكرة الطعنات التي ينبغي أن تنفذ خلال هذا الأسبوع الخ».

يوزع مونيبديو على الجميع أربعين ريالًا ويعين حيًا لكل من رنكون ورفيقه، ثمّ يأتيهم الإنذار بوصول لوبيو المالقي إلى إشبيلية «الذي بورقة لعب يجرد رئيس الأبالسة من نقوده» ويعلنون أنهم سيعقدون الأحد القادم مجلسًا جديدًا».

إنّ هذه الرواية تشكل لوحة فائقة الإبداع من حيث دقة الملاحظة وإصابة إظهار الصفات الحقيقية الواقعية لحياة اللصوص في إشبيلية في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر.

أجاد سرفانتيس كلّ الإجادة في وصف مونيبوديو والأخلاق التي تنتمي كلها إلى الحياة الشريرة المطبوعة بتحلي الأشخاص بطابع خاص ومغزى مجرد ولا سيّما مونيبوديو الذي جاء وكأنه صورة من صور فلاثكث أو ريشة غويا،

ولقد ميّز مننذث إي بلايو ببراعته الخارقة عدة أساليب وإخراجات في حقل الأدب اللصوصي الإسباني في ذلك الزمن في بحثه ووصفه لروح وأخلاق رنكونتي فقال: «تجري في صفحات الرنكونتي بهجة طافحة وسرور منير وشيء مما يسمى بالغفران الجمالي الذي يطهر كلّ ما هو بغيض وإجرامي في القالب ومن غير أن يمسّ الأخلاق يحول إلى مشهد

مُسلٍ وفكه، وبمقدار ما تختلف طريقة مشاهدة وملاحظة حياة اللصوص التي راقبها سرفانتيس وسدد إليها نظره العلوي، يتنوع أسلوبه إلى حدٍّ بعيد، ذلك الأسلوب الجريء السهل في رنكونتي، الجاف المعير عند لاثاريو، اللفظ الخليع المرير عند ماطيو ألمان أحد الكتاب البارزين المحلقين إلّا أنّه يبعد كلّ البعد عن سرفانتيس من حيث المغزى والمبنى حتّى ليظهر وكأنه لم يكن من معاصريه ولا من اللذين يقتربون منه أو يمتّون إليه بصِلة أدبية».

الماسحة النبيلة:

شابان صديقان ضون طوماس دي أفندانيو وضون ديغو دي كرياثو، بدلًا من أن يذهبا إلى طلمنكة ليتابعا دراستهما، يذهبان إلى فندق الإشبيلي في طليطلة حيث يكلف دي أفندانيو بكونسطنثا الحسناء، خادمة الفندق ويطلب من صاحب الفندق أن يقبله في خدمته ولما كان صديقه كرياثو ميالًا لحياة التشرد والمجازفات وكي لا يترك رفيقه، يقتني حمارًا ويتعاطى مهنة السقابة ويتضح أمر الماسحة الجميلة ويعترف بها والدها. فإذا بها فتاة نبيلة، ويتزوج الفتى المتخفي أفندانيو من الماسحة النبيلة».

الزواج الخادع:

كتبها سرفانتيس كتوطئة لمناجاة الكلاب.

الغيور الاسترماني:

درس عميق للنفسية الشهوانية.

المتخرج فيدريارا:

«الطالب طوماس روداخا يتجند ويذهب إلى إيطاليا ثمّ يعود إلى طلمنكة لمتابعة دروسه القانونية. تكلف به إحدى السيدات ولمّا لم يصغ فيدريارا لنداء قلبها التجأت بنصيحة امرأة منحدرة من أصل إسلامي إلى الشعوذة؛ لكسب إرادة من تهوى. يمرض فيدريارا مرضًا أدناه من الموت وتهرب المرأة ثمّ يبل إلّا أنه يُصاب بالجنون ويخال نفسه من زجاج ويوصي الناس أن لا يمسّوه لئلا يتحطم ومع هذا فهو ذكي حاذق وأجوبته دامغة. وبعد انقضاء سنتين يعود إلى رشده بفضل معالجة أحد الرهبان له ويذهب إلى فلندس».

تقتضي الإشارة إلى ناحيتين مختلفتين في هذه الرواية الأولى حياة الأسفار التي تهذب الرجال الرزناء، والثانية الأجوبة الحاذقة وهذه أهم من الأولى؛ لأنّها تكسب الرواية ميزة خاصة إلخ.

مناجاة الكلاب:

يلاحظ في هذه الرواية الفريدة الغريبة البديعة عوامل معقدة مشتبكة فلكل كلب صفاته الخاصة: ففي برغنثا الخيال وفي ثيبيون الرزانة والوقار.

ولقد قال خصمه لوبي دي بيغا في هذه الروايات: «لم تنقص سرفانتيس الظرافة ولباقة الأسلوب، وقال عدوه اللدود أفينادا في مقدمة الكيخوطي: «إنّ هذه الروايات الانتقادية أكثر منها مثالية، وأسمى طريودي مولينا مؤلفها «بوكاثيو إسبانيا».

وجاء في كتاب وجهه غوت إلى شيلر: «إنّ هذه الروايات إنما هي كنز

بهيج ثقافي تهذيبي ويعرب عن سروره لكون المؤلف الإسباني قد تتطرق إلى نفس المبادئ الفنية التي يعتمد عليها في إنتاج مؤلفاته إلخ..».

تكثر في الروايات المثالية الشواهد التاريخية العميمة الفائدة التي تكشف النقاب عن عوائد ذلك الزمان ولا غرابة في هذا نظرًا لميول المؤلف الواقعية.

برسيلس:

آخر مؤلفات سرفانتيس قدمه إلى الكوندي دي لاموس أربعة أيام قبل وفاته ويقول في التقدمة: «رجلي في الركاب وفي صدري غصة الموت... أمس أعطيت لي الإسعافات الأخيرة واليوم أكتب هذه، الوقت ضيق والغصة تشتد والأمل يقل ومع هذا تنازعني رغبة البقاء، وكم أود أن أرجئ هذا ريثما أتمكن من تقبيل أقدام سعادتكم».

وأما البرسيلس فمقتبسة من الرواية البيزنطية وتستطيع في نظر مؤلفها «أن تضاهي هليودورو» وقد تكون أردأ أو أفضل ما ألف في لغتنا وأعني المؤلفات المسلية».

وحقيقة الأمر فالرواية لم تكن حسبما أرادها سرفانتيس أن تكون، فيها بعض حوادث حافلة بنزعة الفروسية وبوصف حياة الرعيان وتكثر فيها كذلك الحواشي عن حياة سرفانتيس نفسه إلّا أنها غامضة نوعًا، وقد أثرت هذه الرواية في الأدب الذي جاء بعدها.

انتهى